أطفال الطين

أوكتافيو باث

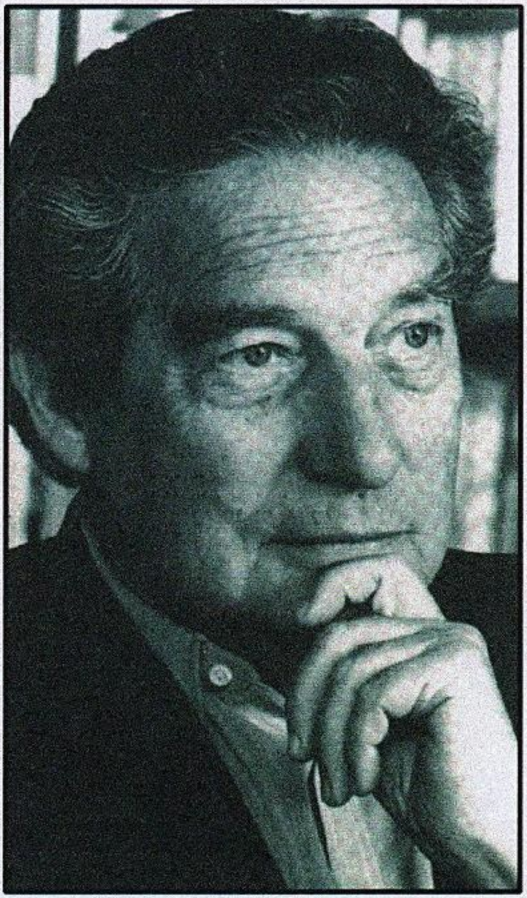

1990

جائزة نوبل

للآداب

ترجمة : أسامة إسبر

دار الينابيع

- جميع الحقوق محفوظة

- الكتاب: أطفال الطين
- المؤلف: أسامة أسبر
- الإخراج الفني: أليسار محفوض
- تصميم الغلاف: أليسا زيلينوفا
- الطبعة الأولى: ٢٠٠١

دار الينابيع

طباعة . نشر . توزيع

دمشق ـــ مزرعة ـــ شارع الملك العادل

هاتف: ٤٤٦١٣٣٠ ص. ب ٦٣٤٨

أوكتافيو باث

أطفال الطين

الشعر الحديث من الرومانسية إلى الطليعة

ترجمة : أسامة أسبر

مقدمة

حاولت في كتاب القوس والقيثارة El arco y la lira (مكسيكو، ١٩٥٦) الذي نشر منذ سنوات طويلة، أن أجيب على ثلاثة أسئلة حول الشعر: ما هي القصيدة؟ ماذا تقول؟ كيف توصل القصائد؟ وهذا الكتاب يوسع استجابتي للسؤال الثالث.

إن القصيدة شيء يُصْنَع من اللغة، والإيقاعات، ومن معتقدات وهواجس الشاعر والمجتمع. وهي نتاج تاريخ ومجتمع محددين لكن نمط وجودها في التاريخ متناقض. والقصيدة أداة تنتج تاريخاً مضاداً، على الرغم من أن الشاعر يمكن ألا يقصد هذا. ذلك أن العملية الشعرية تعكس مرور الزمن وتحوله، فالقصيدة لا توقف الزمن - وإنما تناقضه وتغير مظهره. وسواء كنا نتحدث عن سونيتة باروكية، أو ملحمة شعبية، أو خرافة، فداخل حدودها يمر الزمن بشكل مختلف عن الزمن في التاريخ أو في ما ندعوه الحياة الواقعية. ويُعْثَرُ على التناقض بين الشعر والتاريخ في جميع المجتمعات، لكنه لم يتجل بشكل واضح إلا في العصر الحديث. وكانت

الاستجابة إلى التناقض بين المجتمع والشعر وفهمه، الموضوعَ المركزي، وغالباً السري، للشعر منذ المرحلة الرومانسية.

حاولت في هذا الكتاب أن أصف، من وجهة نظر شاعر أميركي إسباني، الحركة الشعرية الحديثة وعلاقاتها المتناقضة مع ما ندعوه بـ"الحديث".

وعلى الرغم من اللغة والاختلافات الثقافية لا يملك العالم الغربي إلا شعرا حديثا واحدا. وقليلا ما يكون ضروريا أن نشير إلى أن كلمة "غربي" تشمل التراثين الشعريين الأنجلو - أميركي والأميركي اللاتيني (والأخير بفروعه الثلاثة: الإسباني، والبرتغالي، والفرنسي).

ولكي أوضح وحدة الشعر الحديث اخترت من تاريخه الحوادث التي أرى أنها وثيقة الصلة أكثر من غيرها: ولادة هذا الشعر في الرومانسية الإنكليزية والألمانية، تحوله إلى الرمزية الفرنسية والحداثة الأميركية الإسبانية، وأخيرا، وصوله إلى الأوج في الاتجاهات الطليعية للقرن العشرين.

كان الشعر الحديث منذ أيامه الأولى رد فعل على العصر الحديث، وقد ناضل في البداية في اتجاه ثم في آخر بما أن تغييرا طرأ على تجليات "الحديث" والتي هي التنوير، والعقل النقدي، والليبرالية، والوضعية، والماركسية. وهذا يشرح غموض علاقاته - وغالبا ما يبدأ بتفان حماسي يتبعه تمزق فظ - مع الحركات الثورية للعصر الحديث، من الثورة الفرنسية إلى الروسية.

حين عارض الشعراء العقلانية الحديثة أعادوا اكتشاف تراث قديم قدم الإنسان أبقته على قيد الحياة نهضة الأفلاطونية المحدثة[١] والطوائف الهرمسية والسحرية واتجاهات القرنين السادس والسابع عشر. وقد عبر هذا التراث القرن الثامن عشر، واخترق التاسع عشر، حتى وصل إلى قرننا. وأنا أشير هنا إلى التناظر Analogy، رؤية الكون كنسق من التناظرات وإلى اللغة كصنو للكون.

إن التناظر، كما فهمه الرومانسيون والرمزيون، تدمره المفارقة[٢] Irony، أي وعي العصر الحديث ونقده للمسيحية والأديان الأخرى.

لقد حول القرن العشرون المفارقة إلى فكاهة - سوداء، خضراء أو أرجوانية. وصارع التناظر والمفارقة الشاعر بقومية وتقدمية العصر الحديث، في الوقت نفسه، وتماما كما وضعاه بعنف وجها لوجه مع المسيحية. وموضوع الشعر الحديث مزدوج: فهو حوار متناقض مع الثورات الحديثة، والعقائد المسيحية وضدها، وهناك داخل الشعر، وكل عمل شعري، حوار بين التناظر والمفارقة. والسياق الذي ينكشف فيه هذا الحوار المزدوج هو أيضا حوار آخر: يمكن أن ينظر إلى الشعر الحديث كتاريخ للعلاقات المتناقضة - الانسحار والمقت متشابكان - بين اللغات الرومانسية[٣]

---

(١) - الأفلاطونية المحدثة مذهب نشأ في القرن الثالث للميلاد،وهو عبارة عن الفلسفة الأفلاطونية معدلة بحيث تنسجم مع المفاهيم الأرسطووية والشرقية.وقد تصور أصحابه العالم فيضا منبثقا عن الذات الإلهية التي تستطيع الروح الاتحاد بها في حالة الانجذاب الصوفي.

(٢) - Irony : التورية الساخرة، السخرية ، التهكم، تعبير ساخر وقد آثرت أن أترجمها مفارقة تماشيا مع بعض الترجمات العربية.

(٣) - اللغات الرومانسية (أي الناشئة عن اللاتينية).

والجرمانية[٤] ، التراث المركزي للكلاسيكية الإغريقية اللاتينية والتراث الشاذ للفردي والغريب الذي تمثله الرومانسية ، والشعر المقطعي syllabic poetry والشعر القائم على النبر accentual .

وتبعت الحركات الطليعية في القرن العشرين النماذج نفسها كما في القرن السابق ، لكن في جهة عكسية . وكانت "حداثة" الشعراء الأنجلو- أميركيين محاولة للعودة إلى تراث أوروبا المركزي - النقيض الدقيق للرومانسية الإنكليزية والألمانية - بينما دفعت السوريالية الفرنسية الرومانسية الألمانية إلى حدودها القصوى .

وحددت فترتنا الخاصة نهاية الطليعة ، وبذلك كل شيء دعي *فنا حديثا* منذ القرن الثامن عشر . وما هو خاضع للتشكيك في النصف الثاني من قرننا ليس فكرة الفن نفسها ، وإنما فكرة "الحديث" .

وأناقش في نهاية هذا الكتاب الشعر الذي جاء إلى الوجود منذ الطليعة . وهذه الصفحات توحد مع **Los signos en rotacion** ، بيانا شعريا نشرته في ١٩٦٥ ، وهو يخدم الآن كخاتمة لكتاب القوس والقيثارة .

---

(٤) - مجموعة من اللغات الهندية الأوروبية تشمل الإنكليزية والألمانية والهولندية واللغات السكندنافية إلخ.

تراث ضد نفسه

يبدو عنوان هذا الفصل "تراث ضد نفسه" متناقضا للوهلة الأولى. هل يمكن أن يكون التراث ما يقطع السلسلة ويقاطع الاستمرارية؟ هل يستطيع هذا النفي أن يصبح تراثا دون أن ينكر نفسه ؟

لا يتضمن تراث القطيعة نفي التراث فحسب وإنما أيضا القطيعة. ولا يحل التناقض استبدال عبارة "تراث ضد نفسه" بكلمات يكون تناقضها أقل وضوحا - مثل "التراث الحديث". كيف يمكن أن يكون الحديث تراثيا؟

ورغم التناقض الضمني - أحيانا مع وعي كامل به، كمثل تأملات بودلير في *الفن الرومانسي*- أطلق على الحداثة، منذ بداية القرن الماضي، اسم تراث، واعتبر الرفض الشكل المفضل للتغيير. وإلى حد ما، سيكون من غير الصحيح أن نقول إن الحداثة تراث، ينبغي أن أقول إنها التراث *الآخر*. الحداثة تراث جدلي يزيح تراث اللحظة، مهما كان، ولكن بعد لحظة، يمنح مكانه لتراث آخر، هو، بدوره، تجل مؤقت للحداثة. والحداثة ليست نفسها مطلقا، إنها دائما *الآخر*. ولا يتصف الحديث بالجدة فحسب وإنما بـ"*الآخرية*" otherness كذلك. والحداثة تراث عجيب وتراث للعجيب، ومحكوم عليها بالتعددية: كان التراث القديم دائما نفسه، أما الحديث فهو مختلف على الدوام. سلم القديم بالوحدة بين الماضي والحاضر، أما الحديث، الذي لم يقتنع بالتشديد على اختلافاته الخاصة، أكد أن الماضي ليس واحدا بل متعدد. وبهذا المعنى يكون تراث الحديث (

آخرية) جذرية وتعددا للماضي. أما الحاضر فلن يتسامح مع الماضي، ولن يكون اليوم ابن الماضي. ما هو حديث يمارس قطيعة مع الماضي، وينكره بشكل كامل. فالحداثة مكتفية بذاتها، وتؤسس تراثها الخاص. ومثال على ذلك عنوان كتاب هارولد روزنبرغ عن الفن: تراث الجديد. وعلى الرغم من أن الجديد يمكن ألا يكون بالضبط حديثا - هناك إبداعات معينة غير جديدة - يعبر هذا العنوان، بوضوح وإيجاز بارع، عن مفارقة في جذر فن وشعر زمننا، عن المبدأ الفكري الذي يبررهما وينكرهما في آن، وعن غذائهما وسمهما. ذلك أن شعر وفن زمننا يعيشان على الحداثة - ويموتان منها.

ظهرت عبادة الجديد وحب الجدة في تاريخ الشعر الغربي بانتظام لا أجرؤ على تسميته دوريا، وهو ليس عشوائيا أيضا. ثمة فترات كانت القاعدة فيها هي "محاكاة القدماء" وأخرى مجدت الجدة والدهشة. وأقدم مثالا على ذلك الشعراء الميتافيزيقيين الإنكليز والشعراء الباروكيين الإسبان. كلاهما مارس، بحماسة متساوية، علم جمال الدهشة.

إن الجدة والدهشة مصطلحان متصلان، لكنهما يختلفان عن بعضهما، وأفكار واستعارات القصيدة الباروكية وأدواتها الكلامية الأخرى مصممة كي تدهش: الجديد جديد إذا كان مفاجئا. لكن جدة القرن السابع عشر لم تكن نقدية ولم تتضمن نفي التراث. على العكس، أكدت استمراريته. قال غارسيان Garcian : "إن الحديثين أكثر براعة من القدماء ولكن لا يعني هذا أنهم مختلفون". تحمس غارسيان لكتابات بعض معاصريه ليس لأن مؤلفيها هجروا أسلوبا أقدم، بل لأنهم قدموا مزيجا جديدا ومدهشا من العناصر نفسها.

لم يكن غونغورا Gongora أو غارسيان ثوريين بالمعنى الذي نستخدم به الكلمة اليوم، ولم ينطلقا ليغيرا أفكار الجمال في زمنهما - رغم أن غونغورا فعل ذلك في الحقيقة. ولم تكن الجدة، بالنسبة إليهما، مترادفة مع التغيير وإنما مع الدهشة. ولكي نعثر على هذا التوحد الغريب بين جماليات الدهشة والنفي، ينبغي أن ننتقل إلى نهاية القرن الثامن عشر، إلى بداية الحقبة الحديثة.

كانت الحداثة، منذ ولادتها، هياما نقديا، بقدر ما هي نقد وهيام، وككثير من الهندسات الكلاسيكية للمتاهات الباروكية كانت نفيا مزدوجا. كانت الحداثة هياما مخدرا، بلغ أوجه في نفي نفسه، ونوعا من الهدم الذاتي الخلاق. ومنذ الرومانسية كان الخيال الشعري يبني نصبا تذكارية على الأرض التي هدمها النقد.

ما ميز حداثتنا عن حداثة العصور الأخرى ليس عبادتنا للجديد والمدهش، رغم أهميتها، وإنما حقيقة أنها رفض، نقد للماضي القريب، وقطيعة مع الاستمرارية.

ليس الفن الحديث سليل عصر النقد وحسب، وإنما هو أيضا ناقده الخاص. وليس الجديد هو الحديث بالضبط، إلا إذا كان يحمل شحنة متفجرة مضاعفة: نفي الماضي وتأكيد شيء مختلف. هذا "الشيء" غير اسمه وشكله في مجرى القرنين السابقين من حساسية ما قبل الرومانسيين إلى ميتا-مفارقة Meta-irony ، لكنه كان دائما ما هو مختلف، ومنفصل عن التراث السائد، وغريب عنه، فرادة تنفجر في الحاضر وتحرف مساره في اتجاه غير متوقع. إنه غرابة مثيرة للجدل، معارضة نشيطة. أغرانا الجديد

ليس بسبب جدته بل بسبب اختلافه . وهذا الاختلاف نفي - مدية تقطع الزمن إلى نصفين : ما قبل والآن . .

تستطيع الحداثة أن تتبنى القديم جدا إذا رفضت تراث اللحظة واقترحت تراثا مختلفا . مكرسا من القوى المثيرة للجدل نفسها كالجديد ، ما هو قديم جدا ليس ماضيا وإنما بداية . يحييه ولعنا بالتناقضات ، ينفخ فيه الروح ، ويجعله معاصرا لنا .

يتألف الفن والأدب الحديثان من اكتشاف مستمر لما هو قديم وبعيد : من الشعر الشعبي الألماني الذي أحياه هيردر إلى الشعر الصيني الذي أعاد باوند ابتكاره ، من شرق دي لاكروا ، إلى فن البحار الجنوبية الذي أحبه بريتون كثيرا . وقد حدد ظهور جميع هذه اللوحات ، والمنحوتات ، والقصائد في أفقنا الجمالي انكسارا ، وتغييرا . وقاطعت هذه الابتكارات ، التي يبلغ عمرها مائة ألف عام ، التراث مرة بعد أخرى ، واتصل تاريخ الفن الحديث بانبعاث الأشكال الفنية للحضارات المتلاشية . ودخلت منتجات الفن القديم والحضارات البعيدة ، بشكل طبيعي ، في تراث القطيعة ، كتجليات لعلم جمال الدهشة ، وكتجسدات مؤقتة للنفي النقدي . إنها من بين أقنعة الحداثة .

محا التراث الحديث القطيعة بين القديم والمعاصر وبين البعيد والقريب . وكان الحمض الذي أذاب تلك الاختلافات هو النقد .

الهيام النقدي : الحب المفرط والمتقد للنقد وأدواته التفكيكية الدقيقة ، لكنه نقد يحب موضوعه ، يجوع إلى الشيء نفسه الذي ينكره . محبا لنفسه ومحاربا لها ، لا يستطيع أن يؤكد أي شيء مستمر أو يتخذ أي مبدأ كقاعدة ، مبدؤه الوحيد هو نفي جميع المبادئ : التغيير المستمر . ولن نفهم

معنى هذه العبادة إلا إذا أدركنا أنه متأصل في مفهوم خاص عن الزمن. فبالنسبة إلى القدماء، اليوم يكرر البارحة، أما بالنسبة للحديثين فإنه ينكره. في الحالة الأولى، يرى الزمن ويشعر به كعامل منظم، كعملية تكون فيها التنوعات والاستثناءات هي فعلا تنوعات واستثناءات من القاعدة. أما بالنسبة إلينا فإن الزمن لا يكرر لحظات أو قرونا متماثلة، كل قرن - وكل لحظة - *فريد ومختلف وآخر*.

يخفي تراث الحديث مفارقة أكبر مما هو ملمح إليه في التناقض بين القديم والجديد، الحديث والتقليدي. ويتلاشى التعارض بين الماضي والحاضر لأن الزمن يمر بسرعة بحيث أن الفروقات بين الماضي، والحاضر، والمستقبل، تتبخر. ونستطيع أن نتحدث عن تراث حديث دون أن نناقض أنفسنا لأن العصر الحديث قد حت تقريبا، إلى درجة التلاشي، العداء بين القديم والواقعي، والجديد والتقليدي. ولا يعتم تسريع الزمن الانفصال بين ما حدث وما يحدث فحسب وإنما أيضا يستأصل الفروقات بين الكهولة والشباب. مجد عصرنا الشباب وقيمه بجنون كي يجعل من هذه العبادة خرافة، هذا إذا لم يجعلها دينا. ومع ذلك لم يحدث من قبل أن أدركتنا الشيخوخة بسرعة كما اليوم. فمجموعاتنا الفنية، ودواويننا الشعرية، ومكتباتنا، مليئة بأساليب مكتهلة قبل الأوان. حركات، لوحات، منحوتات، روايات وقصائد. نشعر بالدوار : ما حدث لتوه ينتمي مسبقا إلى عالم البعيد بشكل لانهائي، بينما في الوقت نفسه قديم القدماء قريب بشكل لانهائي. وبوسعنا أن نستنتج أن التراث الحديث والأفكار والصور المتناقضة التي يثيرها هذا المفهوم هي نتيجة ظاهرة أكثر إزعاجا : يحدد العصر الحديث تسريع الزمن التاريخي. وإذا كانت الأعوام، والشهور، والأيام، في

الحقيقة، لا تمر الآن بسرعة أكبر، فعلى الأقل تحدث فيها أشياء أكثر. وتحدث أشياء أكثر في الوقت نفسه - ليس تعاقبيا، وإنما تزامنيا. وينتج تسريع كهذا عملية صهر: تتدفق جميع الأزمنة والأمكنة معا في "آن وهنا" واحد.

يمكن أن يتساءل البعض فيما إذا كان التاريخ يمر الآن بشكل أسرع من قبل. من يستطيع أن يجيب على هذا السؤال؟ إن تسريع الزمن التاريخي يمكن أن يكون وهما، والتغييرات والتشنجات التي تسبب لنا الكآبة، أو تملؤنا بالتساؤل، يمكن أن تكون أقل عمقا وحسما مما اعتقدنا بكثير. بدت الثورة الروسية انقطاعا جبارا بين الماضي والمستقبل بحيث أن مسافرا قال: رأيت المستقبل وهو يعمل. واليوم يدهشنا استمرار الملامح التقليدية لروسيا، ويبدو أن كتاب جون ريد الذي يروي وقائع الأيام المؤثرة لعام ١٩١٧ يصف ماضيا بعيدا جدا، هو ماضي مركيز كوستين Coustine، الذي كان موضوعه عالم القياصرة البيروقراطي والبوليسي، و هو جديد بأكثر من طريقة. وتكرهنا الثورة المكسيكية على الشك بتسارع التاريخ. كانت جيشانا عميقا هدف إلى تحديث البلاد، مع ذلك، كانت الحقيقة الأكثر أهمية عن المكسيك المعاصرة هي استمرار طرق تفكير وشعور تنتمي إلى العصر الكولونيالي، أو إلى العالم ما قبل الهسباني. وينطبق الشيء نفسه على الفن والأدب.

حدثت في القرن والنصف السابقين تغييرات وثورات جمالية كثيرة، لكن المبدأ نفسه ألهم الرومانسيين الألمان والإنكليز، والرمزيين الفرنسيين، والطليعة الكوزموبوليتانية (العالمية) للنصف الأول من القرن العشرين. وعرف فريدريك شليغل، في مناسبات متنوعة، الشعر الرومانسي،

والحب، والمفارقة، بمفردات لا تختلف عن تلك التي استخدمها بريتون، بعد قرن، في حديثه عن إيروتيكية، وخيال، وحس فكاهة السورياليين. أهي تأثيرات؟ أم مصادفات؟ كلا : إنها مجرد استمرار طرق معينة في التفكير، والنظر والشعور.

وتنمو الشكوك حول حقيقة "تسريع الواقع" بشكل أكبر، إذا قارنا، بدلا من العودة إلى الماضي القريب من أجل الأمثلة، بين عصور بعيدة أو حضارات مختلفة. وأظهر جورج دوميزيل George Dumezil وجود إيديولوجيا مشتركة بين جميع الشعوب الهندو - أوروبية، من الهند وإيران إلى العالمين السلتي والجرماني، وهي إيديولوجيا قاومت، ولا تزال تقاوم، الحت المضاعف للعزلة التاريخية والجغرافية.

لا يزال الهندو - أوروبيون، الذين تفصلهم آلاف الأميال وآلاف السنوات، يحافظون على تصور ثلاثي للعالم. وأنا مقتنع أن شيئا مشابها ينطبق على الشعوب المنغولية، في آسيا وكذلك في أميركا، وذلك العالم ينتظر مفكرا مثل دوميزيل ليظهر وحدته العميقة. وقد لاحظ بعض الباحثين، قبل بنجامين لي وورف Benjamin Lee Whorf الذي كان أول من صاغ، منهجيا، التغاير بين البنى الذهنية المتضمنة في الأوروبيين وبنى الهوبي Hopi، لاحظوا وجود واستمرار الرؤية الرباعية للعالم الشائعة بين الهنود الأميركيين. لكن الاختلافات بين الحضارات تخبئ وحدة سرية: الإنسان. والفروقات الثقافية والتاريخية هي عمل مؤلف واحد يطرأ عليه تغيير طفيف. والطبيعة البشرية ليست وهما: إنها العامل المستمر الذي ينتج التغييرات، وتنوع الثقافات، والتواريخ، والأديان، والفنون.

يمكن أن نستنتج أن تسريع التاريخ وهمي، أو من المرجح أكثر، أن التغييرات تتلمس السطح وحسب دون أن تغير الواقع العميق. وتتبع الحوادث بعضها ويخبئ تضخم التاريخ المشهد الطبيعي، الذي تحت الماء، لأودية وجبال ثابتة. بأي معنى، إذن، نستطيع أن نتحدث عن تراث حديث؟ يمكن أن يكون تسريع التاريخ وهميا أو حقيقيا - فالفكرة يمكن أن يشكك بها بشكل شرعي - لكن المجتمع الذي ابتكر تعبير "التراث الحديث" هو مجتمع فريد. وتتضمن العبارة أكثر من تناقض منطقي وألسني: إنها تعبر عن ذلك الوضع الدراماتيكي لحضارتنا التي لا تبحث عن أساسها في الماضي أو في مبدأ ما ثابت، وإنما في التغيير. وسواء اعتقدنا أن البنى الاجتماعية تتغير ببطء شديد والبنى الذهنية ثابتة، أو سواء آمنا بالتاريخ وتحولاته التي لا تنتهي، تبقى حقيقة واحدة: تغيرت صورتنا عن الزمن. إن مقارنة فكرتنا عن الزمن مع فكرة مسيحية تعود إلى القرن الثاني عشر، تجعل الفرق واضحا على الفور.

وكما تغيرت صورتنا عن الزمن تغيرت علاقتنا مع التراث. إن نقد التراث يبدأ بوعي الانتماء إلى تراث وتعيش الشعوب التراثية منغمسة في ماضيها دون أن تطرح عليه أسئلة. تعيش في تراثاتها ومعها دون أن تمتلك وعيا بها. وحالما يدرك إنسان أنه ينتمي إلى تراث، فهو يعرف ضمنيا أنه مختلف عن ذلك التراث، وعاجلا أم آجلا تكرهه هذه المعرفة على طرح الأسئلة عليه، وفحصه، وأحيانا إنكاره.

ويتميز عصرنا عن حقب ومجتمعات أخرى من خلال الصورة التي شكلناها عن الزمن. بالنسبة إلينا، الزمن هو جوهر التاريخ، الزمن ينتشر في التاريخ. ومعنى "التراث الحديث" يبزغ بشكل أكثر وضوحا: إنه تعبير

عن وعينا التاريخي. إنه نقد للماضي، وهو محاولة، كررت عدة مرات في القرنين السابقين، لتأسيس تراث على المبدأ الوحيد المنيع على النقد، لأنه شرط ونتيجة النقد: التغيير، التاريخ.

تختلف العلاقة بين الماضي، والحاضر، والمستقبل في كل حضارة. ففي المجتمعات البدائية، النموذج الأصلي الزماني للحاضر والمستقبل، هو الماضي - ليس الماضي القريب، بل الماضي السحيق الذي يرقد وراء أي ماض، في بداية البداية. يتدفق ماضي كل ماضي باستمرار كنبع، يجري في الحاضر ويصبح جزءا منه: وهو الحقيقة الوحيدة الهامة. والحياة الاجتماعية ليست تاريخية وإنما طقسية، لا تصنع من تعاقب تغييرات وإنما من التكرار الإيقاعي للماضي اللازمني. وهذا الماضي الحاضر دائما يحمي المجتمع من التغيير من خلال خدمته كنموذج للمحاكاة ومن خلال تحققه الدوري في الطقس. ويمتلك الماضي طبيعة مزدوجة: إنه زمن غير قابل للتغيير، مغلق، إنه ليس ما حدث مرة، بل ما يحدث دائما. ينجو الماضي من كل من الحدث والمصادفة، ورغم أنه زمن، فهو أيضا نفي للزمن. وهو يذيب التناقضات بين ما حدث البارحة وما يحدث اليوم. والعرف هو أن يكون عصيا على التغيير: ينبغي أن يحدث كل شيء كما في الماضي اللازماني.

لا شيء يمكن أن يكون معارضا لمفهومنا في الزمن أكثر من مفهوم البدائيين، بالنسبة إلينا الزمن هو حامل التغيير، وبالنسبة إليهم هو الوسيط الذي يقمعه. وأكثر من كونه مقولة زمنية فإن ماضي الإنسان البدائي هو حقيقة وراء الزمن: البداية الأصلية. تخيلت جميع المجتمعات، عدا مجتمعنا، مكانا ماورائيا، حيث يستريح الزمن متصالحا مع نفسه، ويمتنع

على التغيير ، لأنه ، بعد أن يصبح شفافية ثابتة ، يتوقف عن التدفق ، أو لأنه متدفق بلا نهاية ، يبقى متماثلا مع نفسه . ينتصر مبدأ الهوية : تختفي التناقضات لأن الزمن التام يوجد خارج الزمن . وبالنسبة للشعوب البدائية ، على النقيض من المسيحية أو المسلمة ، النموذج اللازماني يوجد ليس بعد وإنما قبل ، ليس في نهاية الزمن وإنما في بداية البداية . إنه ليس الحالة التي يجب أن نصل إليها حين يلغى الزمن ، بل ما يجب أن نحاكيه منذ البداية .

نظر المجتمع البدائي بمقت إلى التنوعات التي يتضمنها مرور الزمن ، وكانت التغييرات نذر شؤم بالنسبة إليه . وما نسميه التاريخ هو خطأ ، سقطة . ونظرت الحضارات الشرقية والمتوسطية ، كتلك الأميركية السابقة على كولومبس ، إلى التاريخ بالريبة نفسها لكنها لم تنكره هكذا بشكل جذري . إن ماضي البدائيين هو ثابت وحاضر دائما ، أما ماضي الثقافات الشرقية والمتوسطية ينتشر في دوائر ولوالب : عصور العالم . إنه تحول مدهش للماضي اللازماني ، ينقضي ، وخاضع للتغيير ، ويصبح زمانيا . والماضي هو البذرة البدائية التي تتبرعم ، وتنمو ، وتستنفد نفسها ، وتموت - لتولد ثانية . ولا يزال النموذج هو الماضي قبل جميع العصور ، زمن البداية السعيد ، الذي يحكمه تناغم السماء والأرض . لكنه ماض يمتلك الخصائص نفسها التي تمتلكها النباتات والكائنات الحية ، إنه مادة مفعمة بالحيوية ، تتغير ، وفضلا عن ذلك ، تموت . والتاريخ هو حط من قدر الزمن الأصلي ، سيرورة بطيئة وعنيدة للانحطاط الذي ينتهي بالموت . والتكرار هو علاج التغيير والانقراض ، الزمن ينتظر في نهاية كل دورة . الماضي عصر قادم ، المستقبل يقدم صورة مزدوجة : نهاية الزمن وولادته من جديد ، فساد الماضي الأصلي وانبعاثه . نهاية الدورة هي استعادة الماضي الأصلي - وبداية

السقوط المحتم. ويختلف هذا المفهوم، بشكل واضح، عن مفهوم المسيحيين والحديثين: بالنسبة للمسيحيين، الزمن التام هو الأبدية - الزمن ملغى، التاريخ ممحوق، أما بالنسبة إلى الحديثين، إذا وجد الكمال، لا يمكن العثور عليه إلا في المستقبل. وأيضا، مستقبلنا لا يشبه الماضي أو الحاضر، إنه إقليم المفاجأة، بينما مستقبل المتوسطيين والشرقيين القدماء يجري في الماضي.

يمتلك العالم الغربي اسما لهذا الزمن البدئي الذي هو نموذج جميع الأزمنة، عصر التناغم بين الإنسان والطبيعة وبين الإنسان والإنسان: العصر الذهبي. في الحضارات الأخرى - الصينية، الميسو -أميركية - Meso American، كان اليشب لا الذهب، هو الذي يرمز إلى التناغم بين الخطة الاجتماعية للكائنات البشرية وخطة الطبيعة. لقد جسد اليشب اخضرار الطبيعة الذي يعود دائما، كما رمز الذهب إلى تجسد ضوء الشمس. اليشب والذهب رمزان مزدوجان، مثل كل شيء يعبر عن ميتات وانبعاثات الزمن الدوري. في إحدى المراحل الزمن مكثف ومحول إلى مادة صلبة ثمينة، وكأنه كان يتمنى أن ينجو من التغيير وانحطاطه، في مرحلة أخرى، الحجر والمعدن هشان، هما ثانية زمن، وحين يتحولان إلى خضار وبراز حيواني وعفونة، يتحللان. لكن التحلل والتفسخ هما أيضا انبعاث وخصب: كان المكسيكيون القدماء يضعون كرة من اليشب في أفواه موتاهم.

عكس غموض الذهب واليشب غموض الزمن الدوري: إن النموذج الأصلي الزماني يوجد في الزمن ويتبنى شكل ماض يعود - فقط ليتحرك ويبتعد مرة أخرى.

وسواء كان أخضر أو ذهبيا، الزمن السعيد هو زمن انسجام، اتحاد للأزمنة، لا يستمر إلا لحظة. إنه ميثاق صحيح: تكثيف الزمن في قطرة

يشب أو ذهب يتبعه تشتت وفساد. والتكرار لا يحمينا من تغييرات التاريخ إلا لكي يخضعنا لها بشكل أكثر قسوة. تتوقف عن كونها حادثة، سقطة، أو خطأ، وتصبح اللحظات التعاقبية لسيرورة لا ترحم. ولا تنجو الآلهة من الدورة.

تروي جميع الأساطير، من المصريين إلى اليونانيين إلى الآزتيكيين، قصة ولادة، وموت، وانبعاث الآلهة. في قصيدة نهواتلية Nahuatle يختفي كويتزالكوتل في الأفق "حيث تلتقي مياه البحر بمياه السماء". وسيعيد الظهور في الأفق نفسه، حين يصبح الغسق فجرا.

ألا يوجد مهرب للخروج من دائرة الزمن؟

تخيلت الهند، منذ بداية حضارتها، "ما وراء" ليس زمنا بالضبط لكنه نفي له: إنه كائن ثابت متماثل مع نفسه (براهمان) أو فراغ ثابت بشكل مساو (نرفانا). براهمان لا يتغير أبدا، ولا يمكن أن يقال عنه شيء، عدا أنه هو، ولا شيء يمكن أن يقال عن النرفانا، ليس حتى إنها ليست هي. في كلتا الحالتين نحن نتعامل مع واقع وراء الزمن واللغة، وواقع لا يقر بأية أسماء سوى أسماء النفي الكوني، لأنه ليس هذا أو ذاك أو ما يكمن في الماوراء. إنه ليس هذا أو ذاك، ومع ذلك هو كلاهما. لا تكسر الحضارة الهندية الزمن الدوري، إنما تبدده وتحيله إلى سلسلة من الأوهام الخيالية دون أن تنكر حقيقته التجريبية. وهذا النقد للزمن، الذي يحول التغيير إلى وهم، هو طريقة أخرى أكثر جذرية، لمعارضة التاريخ. إن الماضي اللازماني للإنسان البدائي، يصبح زمنيا، مجسدا، ويصبح الزمن الدوري للحضارات المتوسطية والشرقية. الهند تبدد الدوائر: إنها حرفيا حلم براهمان. في كل مرة يستيقظ فيها الله، يتبدد الحلم. إن دوام هذا الحلم يرعبني: سيستمر

العصر الذي نعيش فيه الآن - بالأحرى حلم هذا العصر، الذي يتصف بالامتلاك غير العادل للثروة - أربعمائة واثنان وثلاثون ألف عام. أنه في كل مرة يستيقظ فيها الإله يحكم عليه أن ينام مرة أخرى كي يحلم الحلم نفسه. هذا الحلم الواسع، الدائري، الوحشي والرتيب، غير حقيقي لمن يحلمه بل حقيقي لنا الذين حلم بهم. ويكمن خطر هذه الراديكالية الميتافيزيقية في أن الإنسان لا يستطيع أن ينجو من النفي الكوني. ما الذي سيبقى للإنسان بين التاريخ بدوائره غير الواقعية وواقعية بلا لون تخلو من النكهة والمواصفات؟ كلاهما لا يسكن - انظر الحاشية ١.

بددت الهند الدوائر، المسيحية قطعتها. قبل لحظة الإشراق، يستدعي غواتما حيواته السابقة ويرى، في أكوان وعصور كونية أخرى، غواتمات آخرين يختفون في الفراغ. أما المسيح فقد جاء إلى الأرض مرة واحدة. كان العالم الذي انتشرت فيه المسيحية يؤمن بانحطاطه المحتم، وكان البشر مقتنعين أنهم يعيشون نهاية دورة. وقد عبر عن هذه الفكرة أحيانا بمفردات مسيحية تقريبا: "ستتبدد العناصر الأرضية وتتهدم بحيث يمكن أن تخلق كلها من جديد ببراءتها الأولى". ويتواشج الجزء الأول من جملة سينيكا Seneca مع ما آمن به المسيحيون وأملوا قدومه: اقتراب نهاية العالم.

من المرجح جدا أن أحد أسباب العدد الكبير من الارتدادات إلى الدين الجديد كان الإيمان بالنهاية الوشيكة. وقدمت المسيحية جوابا على التهديد الذي حوم فوق البشرية. هل كان كثيرون سيرتدون لو كانوا يعرفون أن العالم سيستمر عدة آلاف من السنين؟ اعتقد القديس أوغسطين أن عصر الإنسانية الأول، منذ سقوط آدم إلى تضحية المسيح، استمر أقل بقليل من ستة آلاف عام، وأن العصر الأخير، عصرنا، لن يستمر إلا بضعة قرون.

تضمن الزمن الدائري للفلاسفة الوثنيين عودة عصر ذهبي، لكن هذا التجدد الكوني، بغض النظر عن كونه إرجاء للحركة العنيدة نحو الانحطاط، لم يكن مترادفا مع الخلاص الفردي. وعدت المسيحية بالخلاص الفردي، وهكذا أنتج انتصارها تغييرا جوهريا: لم يعد بطل المسرحية الكونية العالم بل الإنسان - أو بالأحرى كل إنسان. تغير مركز جاذبية الزمن. كان زمن الوثنيين الدائري لانهائيا ولا شخصيا، وكان الزمن المسيحي متناهيا وشخصيا.

دحض أوغسطين فكرة الدوائر بحجج مثيرة للفضول قائلا إنه من السخف أن الأرواح العاقلة لا تتذكر أنها عاشت جميع تلك الحيوات التي تحدث عنها الفلاسفة الوثنيون، ومن السخف أيضا أن نسلم، في الوقت نفسه، بالحكمة وبالعود الأبدي: "كيف تستطيع الروح الخالدة التي اكتسبت الحكمة أن تخضع لهذه الهجرات التي لا تتوقف بين سعادة كاملة وشقاء غير حقيقي؟"

أصبحت صورة الزمن الدائري تصميما شيطانيا، وجعلت ريموندو لال Raimundo Lull يقول بعد قرون: "إن الأسى في الجحيم هو كمثل حركة الدائرة". إن الزمن المسيحي المتناهي والشخصي، غير قابل للارتداد. قال القديس أوغسطين: ليس صحيحا أنه محكوم على أفلاطون أن يدرس طيلة دورات لا تحصى، في مدرسة في أثينا تدعى الأكاديمية، العقيدة نفسها للطلاب نفسهم: "يموت المسيح من أجل خطايانا وينبعث من الموت مرة واحدة فحسب، ولن يموت بعد ذلك". حين كسرت المسيحية الدائرة وأدخلت فكرة زمن متناه غير قابل للارتداد، أبرزت "آخرية" الزمن، وأوضحت تلك الصفة التي تجعل الزمن يتحرر من نفسه، ينقسم، ويفصل

نفسه، ويصبح شيئا آخر ومختلفا دائما. وقطع سقوط آدم الحاضر الأبدي للفردوس: بداية الزمن التعاقبي هي بداية الانفصال. الزمن، الذي ينشق باستمرار، يكرر دوما القطيعة الأصلية، القطيعة عن البداية: تقسيم الحاضر الأبدي إلى أمس، اليوم، والغد، وكل منها مختلف وفريد. هذا التغيير المتواصل هو علامة النقص، إشارة السقوط. كل لحظة هي فريدة ومتميزة لأنها منفصلة، مقطوعة عن الوحدة. التاريخ مرادف للسقوط.

وما يختلف عن تغاير الزمن التاريخي هو وحدة الزمن التي تأتي بعد كل زمن. في الأبدية تنتهي التناقضات، يتصالح كل شيء، والمصالحة تنجز الكمال، وحدتها الأولى والأخيرة. ومجيء الحاضر الأبدي، بعد يوم القيامة، هو موت الموت - موت التغيير. وتأكيد الأبدية المسيحية ليس أقل رعبا من نفي الهند لها.

في دائرة الجحيم الثالثة، حيث يعاني الشرهون في بحيرة من البراز، يلتقي دانتي بشخص من بلاده، وهو رجل بائس يدعى Ciacco. بعد أن يتنبأ بمصائب مدنية جديدة في فلورنسة - يمتلك الفاسدون موهبة الرؤية الثانية - ويطلب من دانتي أن يذكر الشعب به حين يعود إلى الأرض، يغوص المسكين سياكو تحت المياه القذرة. يقول فرجيل: "لن يخرج مرة أخرى، إلى أن يصدح البوق الملائكي"، وهذا سيحدث يوم القيامة. يسأل دانتي دليله إن كان ألم هذه الروح سيزداد أو يخف بعد "يوم القيامة العظيم". يجيب فيرجيل: ستزداد معاناته لأنه في حالة الكمال الأكبر، يجب أن يكون كل من النعيم والألم أكبر. في نهاية الزمن كل شيء وكل كائن سيكون ما هو بشكل أكثر كمالا: يتواشج امتلاء المتعة في الفردوس، بدقة، ونقطة نقطة، مع اكتمال المعاناة في الجحيم.

ماضي البدائيين اللازماني، الزمن الدائري، الفراغ البوذي، انحلال الأضداد في براهمان أو الأبدية المسيحية: إن السلسلة الكاملة لمفهومات الزمن ضخمة، لكن هذا التنوع يمكن إرجاعه إلى مبدأ واحد. إن جميع هذه النماذج الأصلية، رغم إمكانية اختلافها، هي محاولات لمحق التغيير أو على الأقل لدفعه إلى الحدود الدنيا. وهي تواجه تعدد الزمن الحقيقي بوحدة زمن مثالي، آخرية الزمن بهوية زمن وراء الزمن. وتسلم المحاولات الأكثر جذرية، كمثل الفراغ البوذي والأنطولوجيا المسيحية، بمفهومات تختفي فيها الآخرية والتناقض، المتضمنان في مرور الزمن، بعد أن يحل مكانهما زمن لازماني. وتميل نماذج أصلية زمانية أخرى إلى خلق التناغم بين المتضادات دون قمعها بشكل كامل، إما من خلال وصل الأزمنة بماض سحيق يصبح الحاضر باستمرار، أو من خلال فكرة دوائر أو عصور العالم.

انفصل عصرنا فجأة عن هذه الطرق من الفكر. وبعد أن ورث زمن المسيحية أحادي الخط وغير القابل للارتداد، تبنى المعارضة المسيحية للمفاهيم الدورية، لكنه أنكر، وبشكل متزامن، النموذج الأصلي المسيحي وأكد واحدا ينفي جميع أفكار وصور الزمن التي صنعها الإنسان لنفسه.

إن العصر الحديث هو العصر الأول الذي يمجد التغيير ويحوله إلى أساس. الاختلاف، الانفصال، الآخرية، التعدد، الابتكار، التطور، الثورة، التاريخ - جميع هذه الكلمات يمكن أن تكثف في كلمة واحدة: المستقبل. لا الماضي ولا الأبدية، لا الزمن الذي ليس إلا الزمن الذي ليس بعد والذي سيبقى دائما سيأتي: هذا هو نموذجنا الأصلي.

زار إنكلترة في نهاية القرن الثامن عشر هندي مسلم يدعى ميرزا أبو طالب خان. حين عاد كتب انطباعاته. من بين الأشياء التي أدهشته

بالإضافة إلى التقدم الميكانيكي، وحالة العلم، وفن المحادثة، والفتيات الإنكليزيات، (أشجار السرو الأرضية التي تقمع جميع الرغبات لتستريح في ظل أشجار الفردوس ") يعثر المرء على فكرة التقدم: " يمتلك الإنكليز آراء غريبة جدا بخصوص ما يعنيه الكمال. يصرون أنه صفة مثالية تستند بشكل كامل إلى المقارنة، ويقولون إن البشرية صعدت تدريجيا من حالة الوحشية إلى الكرامة الرفيعة للفيلسوف نيوتن، ولكن بعيدا عن الوصول إلى الكمال، من المحتمل في عصور المستقبل أن ينظر الفلاسفة إلى اكتشافات نيوتن بالازدراء نفسه الذي ننظر به الآن إلى الحالة الساذجة للفنون بين البدائيين". بالنسبة لأبي طالب كمالنا مثالي ونسبي. لا يمتلك ولن يمتلك حقيقة، سيكون دائما غير كاف وناقصا. ليس كمالنا ما هو منجز بل ما سيأتي. كان القدماء يخافون من المستقبل وابتكروا صيغا كي يطهروه. أما نحن سنضحي بحياتنا لنعرف وجهه المشع - الوجه الذي لن نراه أبدا.

ثورة المستقبل

تنسج الأجيال، في كل مجتمع، شبكة من التكرارات والتنويعات. ذلك أن "النزاع بين القدماء والمعاصرين" يتجدد، في كل دورة، بطريقة أو بأخرى، وعلى نحو بين أو ضمني. ثمة كثير من "الفترات الحديثة" بقدر ما يوجد من حقب تاريخية. مع ذلك، ليس هناك مجتمع دعا نفسه "حديثا" إلا مجتمعنا. وإذا كانت الحداثة ناتجة عن مرور الزمن، أن تسمي نفسك "حديثا" هذا يعني أن تسلم نفسك لفقدان التسمية بسرعة. ما الاسم الذي سيطلق على العصر الحديث في المستقبل؟ ربما من أجل إعاقة الحت الحتمي الذي يمحو كل شيء، قررت المجتمعات الأخرى أن تعرف من خلال اسم إله، أو معتقد، أو قدر. وتشير أسماء كالإسلام، والمسيحية، والمملكة الوسطى إلى مبدأ ثابت أو إلى، على الأقل، أفكار وصور مستقرة. يستقر كل مجتمع على الاسم الذي سيصبح حجر أساسه، يعرف نفسه في خياره، ويؤكد نفسه، باحترام، للآخرين. التسمية تقسم العالم إلى قسمين، إلى مسيحيين ووثنيين، مسلمين وكفار، متحررين وبرابرة، تولتيكس Toltecs وتشيتشيميكانس Chichimecans، نحن والآخرين. وكذلك يقسم مجتمعنا العالم إلى قسمين: الحديث والقديم. ويعمل هذا التقسيم داخل المجتمع - حيث يخلق قطيعة بين الحديث والتقليدي، الجديد والقديم - وخارجه.

في كل مرة يقابل فيها الأوروبيون والأميركيون الشماليون المنحـدرون منهم الثقافات الأخرى، يسمونها *متخلفـة*. وهـذه ليسـت المرة الأولـى التـي تفرض فيها سلالة أو حضارة أشكالها على الآخريـن، لكـن مـن المؤكـد أنـها المرة الأولى التي جعل فيها الإنسان التغيير مثالا كونيا ونفى أي مبدأ ثابت.

أرجع المسلم أو المسيحي نقص الغريب إلى اختـلاف الإيمـان. بالنسبة لليونـانيين، والصينيين، أو التولتيكس، الغريـب أقـل شـأنا لأنـه بربـري، وتشيتشيميكان. كان الأفارقة والآسيويون، منذ القرن الثـامن العشـر، أدنـى لأنهم ليسوا حديثين. ولقد حدد العالم الغربي نفسه بالتغيير والزمن، وليـس هناك حداثة إلا حداثة الغرب. لم يكـد يبقـى برابـرة، أو كفـار، أو وثنيـون، بالأحرى، يمكن أن يصل عدد الكلاب الوثنيين Heathen Dogs إلى الملايين لكنهم يدعون بـ" الشعوب المتخلفة".

"المتخلفة" – تنتمي هذه الصفة إلى لغة الأمم المتحدة المصابة بفقـر الـدم والمخصية. ولا تمتلك الكلمة معنى دقيقا في حقلي علـم الإناسـة والتـاريخ. والمصطلـح ليـس علميـا وإنمـا بيروقراطي. ورغـم غموضـه، أو ربمـا بسـببه، فضلـه علمـاء الاقتصـاد والاجتمـاع. ولقـد قنـع غموضـه فكرتـين زائفتـين: الأولـى سـلمت جـدلا أنـه ليـس هنـاك إلا حضـارة واحـدة، أو يمكـن إرجـاع الحضارات المختلفة إلى نموذج واحد هـو الحضـارة الغربيـة الحديثـة. وأكـدت الثانية أن تغيرات المجتمعات والثقافات خطية وتصاعدية ويمكن قياسـها. وقـد أصبح الميل إلى ربـط العصـر الحديـث بالحضـارة، وكليـهما بـالغرب، واسـع الانتشار بحيث أن كثيرا من البشر فـي أميركـا اللاتينيـة يتحدثـون عـن تخلفنـا الثقافي. كيف يمكن أن تكون ثقافة متخلفة؟ هل شكسـبير أكثر "تطورا" مـن دانتي، وهـل ثربـانتس "متخلـف" بالمقارنـة مـع همنغـواي؟ صحيـح أن هنـاك

تراكم معرفة في حقل العلم، وبهذا المعنى يمكن أن يتحدث المرء عن التطور. لكن تراكم المعرفة هذا لا يتضمن، بأية طريقة، أن علماء اليوم أكثر "تطورا" من علماء الأمس. يمكن أن يجادل أنه على الأقل حين نتحدث عن التكنولوجيا ونتائجها الاجتماعية، يبرر مفهوم التطور. بهذا المعنى، بالضبط، يبدو لي المفهوم ملتبسا وخطيرا. إن المبادئ التي تستند إليها التكنولوجيا كونية، أما تطبيقها فليس كذلك. ولقد أدى تبني التكنولوجيا الأميركية الشمالية في المكسيك، دون تفكير، إلى مصائب لا تنتهي، وإلى تدهور متواصل لنمط حياتنا وثقافتنا.

ليست هذه ظلامية حنينية، الظلاميون الوحيدون الحقيقيون هم أولئك الذين يغذون خرافة التقدم بأي ثمن. أعرف أننا لا نستطيع النجاة، فنحن محكومون "بالتطور"، لكن، لنجعل العقاب أقل وحشية.

التطور، التقدم، الحداثة - متى بدأ العصر الحديث؟ من بين الطرق الكثيرة التي يمكننا أن نقرأ بها كتب الماضي، هناك طريقة أفضلها: أن أبحث فيها، ليس عن ما نحن، وإنما عن الشيء الذي ينكر ما نحن. أعود إلى دانتي، بالضبط، لأنه أقل شعراء تراثنا العظيم معاصرة.

يمر دانتي وفرجيل عبر مدى واسع من شواهد القبور الملتهبة في دائرة الجحيم السادسة حيث يحترق الفلاسفة الأبيقوريون والماديون. يقابلان في أحد القبور نبيلا فلورنسيا، يدعى فاريناتا ديغلي أوبيرتي Farinata degli Uberti، يتحمل عذاب النار بشجاعة. تنبأ فاريناتا بنفي دانتي، ثم أجاب على سؤال طرحه دانتي قائلا: ستؤخذ منه حتى هبة الرؤية الثانية "حين يغلق باب المستقبل". لن يبقى بعد يوم القيامة شيء يمكن التنبؤ به لأنه لن يحدث أي شيء.

إن انغلاق الزمن يعني نهاية المستقبل. كلما قرأت هذا النص أبدو وكأنني أسمع صوتا ليس من عصر آخر وحسب وإنما من عالم آخر أيضا. وفي الحقيقة هو عالم آخر يلفظ هذه الكلمات المقيتة. لقد أصبح موضوع موت الله شائعا، أما فكرة أن بوابات المستقبل ستنغلق في أحد الأيام تضحكني تارة وتجعلني أرتجف طورا.

نتصور الزمن كتدفق متواصل، كحركة لا تنتهي نحو المستقبل، وإذا انغلق المستقبل، يتوقف الزمن. هذه الفكرة لا تحتمل، ولا تطاق. إنها تسيء إلى حساسياتنا الأخلاقية من خلال السخرية من إيماننا بإمكانية كمال الأنواع، وتسيء إلى عقلنا من خلال نكران إيماننا بالتطور والتقدم. في عالم دانتي الكمال مترادف مع حالة وراء التغير والثبات، كمال الوجود. مزاحا من الزمن المتناهي والمتغير للتاريخ، كل شيء هو ما هو إلى أبد الآبدين. إن حاضرا أبديا كهذا يبدو لنا غير قابل للتفكير ومستحيلا. الحاضر من خلال التعريف هو الفوري، والفوري هو الأنقى، الشكل الأكثر توترا للزمن. إذا أصبح توتر اللحظة ثابتا في بقائه، نواجه مستحيلا منطقيا هو أيضا كابوس. بالنسبة لدانتي الحاضر الثابت للأبدية هو قمة الكمال، بالنسبة لنا هو اللعنة، بما أنه يضعنا في حالة، إذا لم تكن الموت، فهي ليست الحياة أيضا. إنها مملكة من البشر الذين دفنوا أحياء، ليس في مدافن حجرية، وإنما بين جدران من الثواني المتجمدة. إن هذا الكمال إنكار للوجود كما فكرنا به وشعرنا به وأحببناه - كاحتمال دائم للوجود، الحركة، التقدم نحو أرض المستقبل القابلة للتغيير. هناك في المستقبل، حيث الوجود بصيرة بالوجود، يتوضع فردوسنا. لقد بدأ العصر الحديث في اللحظة التي

تجرأ فيها الإنسان على إنجاز فعل كان سيجعل دانتي وفاريناتا ديغلي أوبيرتي يرتجفان ويضحكان في الوقت نفسه: فتح بوابات المستقبل.

إن الحداثة هي حصرا مفهوم غربي لا يظهر في أية حضارة أخرى. ذلك أن الحضارات الأخرى تسلم بصور زمانية ونماذج أصلية من المستحيل أن نستنتج منها فكرتنا عن الزمن، حتى كنفي. ولا علاقة لفكرتنا عن الزمن بالفراغ البوذي، أو الوجود الهندوسي غير القابل للتمييز، أو الزمن الدوري لليونانيين، والصينيين، والآزتيك، أو ماضي الإنسان البدائي المرتبط بالنماذج الأصلية.

تصور المجتمع المسيحي القروسطي الزمن كسيرورة متناهية، متعاقبة وغير قابلة للارتداد. حين يستنفد الزمن - أو كما يقول الشاعر: حين يغلق باب المستقبل - سيسود حاضر أبدي. في زمن التاريخ المتناهي، في الآن وهنا، يقامر الإنسان بحياته الأبدية. أما فكرتنا الحديثة عن الزمن يمكن أن تظهر داخل هذا المفهوم عن الزمن غير القابل للارتداد فحسب، ولا يمكن أن تظهر إلا كنقد للأبدية المسيحية. صحيح أن النموذج الأصلي الزماني في الثقافة الإسلامية متماثل مع نموذج المسيحية، لكن، ليس من المحتمل أن يظهر نقد الأبدية هناك لسبب سيتوضح بعد قليل، وجوهر الحداثة هو نقد الأبدية: الزمن الحديث هو زمن نقدي.

إن التاريخ صراع وتمزق التناقضات الاجتماعية، والسياسية، والدينية جميع المجتمعات. تموت المجتمعات وتحيا بسبب ذلك. إحدى وظائف النموذج الأصلي الزماني هو أن يقدم حلا مثاليا لازمانيا لهذه التناقضات ويحفظ المجتمع من التغير والموت. بالتالي، كل فكرة عن الزمن استعارة لا يبتكرها الشاعر وإنما السلالة. ولكن علماء اللاهوت والفلاسفة يحولون

هذه الصور الجمعية العظيمة عن الزمن إلى مفهومات. بعد أن تمر في غربال العقل والنقد، تصبح نسخا لمبدأ الهوية، محددة جيدا، قليلا أو كثيرا.

أحيانا تكون إزالة الأضداد جذرية: يتخلص النقد البوذي من مصطلحي "أنا" و"العالم" مؤكدا فراغا كونيا مطلقا لا يمكن أن يقال عنه أي شيء لأنه فارغ من كل شيء، حتى فراغه الخاص كما قال ماهايانا سوترا. في حالات أخرى، لا تزاح العناصر المتناقضة وإنما تصالح وتجعل متناسقة كما في فلسفة الصين القديمة عن الزمن. إن احتمال انفجار التناقض وتدمير النسق، هو فكري وواقعي. إذا انهار التماسك المنطقي، يفقد المجتمع أسسه ويسقط. وهذا ما يفسر الطبيعة المغلقة والمكتفية بذاتها لهذه النماذج الأصلية، وادعاءها المناعة، ومقاومتها للتغيير.

يمكن أن يغير المجتمع نموذجه الأصلي - وربما ينتقل من الشرك إلى التوحيد، أو من الزمن الدوري إلى زمن الإسلام أو المسيحية المتناهي وغير القابل للارتداد -لكن النماذج الأصلية لا تبدل ولا تحول. إن الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة الكونية هو المجتمع الغربي.

نتجت القطيعة المسيحية عن التراث المزدوج للتوحيد اليهودي والفلسفة الوثنية. والفكرة اليونانية عن الوجود، في أي من صيغها - لدى الفلاسفة الذين أتوا قبل سقراط، والأبيقوريين، والرواقيين، والأفلاطونيين الجدد - متضاربة مع الفكرة اليهودية عن إله شخصاني خلق الكون.

وعت الفلسفة المسيحية هذا التناقض بشكل عميق وصار موضوعها المحوري منذ آباء الكنيسة فصاعدا، وحاولت السكولاستية[1] أن تبدده بأنطولوجيا ذات مكر فائق للعادة. ونتج العصر الحديث عن استحالة تبديده. ومزق النزاع بين العقل والوحي العالم العربي كذلك، لكن الوحي انتصر هناك وأدى ذلك إلى موت الفلسفة، ولم يؤد كما حدث في الغرب إلى موت الله. وأغلق انتصار الأبدية بوابات المستقبل وانتصرت الأبدية انتصارا مطلقا: الله هو الله. نجا العالم الغربي من التكرار ليقع في التناقض.

بدأ العصر الحديث حين اعتقد أن الصراع بين الله والوجود، والعقل والوحي، غير قابل للحل. على عكس ما حصل في الإسلام، نما العقل على حساب الله. الله واحد وغير قابل للانقسام (لا يسمح بالآخرية إلا كخطيئة اللاوجود non-being ، بينما العقل يميل إلى الانشقاق على نفسه. كلما تأمل نفسه، ينقسم إلى نصفين، كلما تأمل نفسه، يكتشف أنه آخر. يطمح العقل إلى الوحدة، لكن على عكس القداسة، لا يستريح ولا يماثل نفسه مع الوحدة، هكذا، الثالوث، الذي يمزج الوحدة والتعدد، هو لغز لا يستطيع العقل اختراقه. إذا أصبحت الوحدة انعكاسية، تصبح آخر: تدرك نفسها كغيرية. حين وقف الغرب مع العقل حكم على نفسه بأن يكون آخر دائما وأن يسرمد نفسه من خلال نفي الذات المستمر.

---

(١) - الفلسفة النصرانية السائدة في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة، ولقد بنيت على منطق أرسطو ومفهومه لما وراء الطبيعة ولكنها اتسمت، في أوروبا الغربية خاصة، بإخضاع الفلسفة للاهوت ومن أبرز رجالها توما الاكويني الذي حاول أن يقيم صلة عقلانية بين العقل والدين.

وفي الأنساق الميتافيزيقية التي اشتقها العصر الحديث في أيامه الأولى، ظهر العقل كمبدأ قائم بذاته: إنه أساس ذاته وأساس العالم. لكن أنساقا أخرى حلت مكان هذه الأنساق، العقل فيها أولا وأخيرا هو نقد. وتوقف العقل، الذي استدار إلى نفسه، عن ابتكار الأنساق. تتبع حدوده، حكم على نفسه، ومن خلال هذا الحكم، دمر نفسه كمبدأ مرشد. وأسس العقل، من خلال هذا التدمير الذاتي، حجر زاوية جديدا. وحكم العقل النقدي، مبدؤنا الحاكم، بطريقة فريدة، فبدلا من بناء أنساق منيعة على النقد، عمل كناقد للذات. حكم بقدر ما انتشر ورتب نفسه كموضوع للتحليل، والشك، والنفي. إنه ليس معبدا أو حصنا، إنما فضاء مفتوح، ساحة عامة وطريق، مناقشة، طريقة - طريق يصنع نفسه ويخربها بشكل مستمر، طريقة مبدؤها الوحيد فحص جميع المبادئ. لقد أكد العقل النقدي، بدقته البالغة، الصفة المؤقتة أو الزائلة. لا شيء مستمرا، يتحدد العقل بالتغيير والآخرية. لا تحكمنا الهوية بتكراراتها الضخمة والرتيبة، وإنما تحكمنا الآخرية والتناقض، والتجليات المدوخة للنقد.

كان هدف النقد في الماضي هو الحقيقة، أما في العصر الحديث فالحقيقة هي النقد. لا الحقيقة الأبدية وإنما حقيقة التغيير.

كان تناقض المجتمع المسيحي قائما على الصراع بين العقل والوحي، الوجود الذي اعتقد أنه يفكر بذاته، والله الذي هو شخص خالق. أما تناقض العصر الحديث فيظهر في محاولات بناء أنساق لا تستند إلى مبدأ لازماني وإنما إلى مبدأ التغيير.

دعا هيغل فلسفته علاجا للتمزق. لكن إذا كان العصر الحديث هو تمزق المجتمع المسيحي، وإذا كان أساسنا، العقل النقدي، يمزق نفسه

باستمرار، كيف يمكن أن نشفى من التمزق دون أن ننكر أنفسنا وأساسنا؟ كانت مشكلة الغرب هي كيف ندخل عناصر متعارضة في نوع من الوحدة دون أن نلغيها. في حضارات أخرى، كان حل تناقضات الأضداد الخطوة الأولى نحو إثبات توحيدي. وفي العالم الكاثوليكي قدمت أنطولوجيا درجات الوجود إمكانية إضعاف الأضداد إلى درجة جعلها تختفي بشكل كامل تقريبا. وتولى الديالكتيك المشروع نفسه في العصر الحديث، لكنه فعل ذلك من خلال اللجوء إلى المفارقة، وجعل السلب الجسر الموحد بين المصطلحات. ادعى إنهاء الخصومات، ليس من خلال إضعاف الأضداد وإنما من خلال تصعيدها. ودعا كانط الديالكتيك "منطق الأوهام"، لكن هيغل أصر أنه كان من الممكن إزالة الفضيحة الفلسفية المعروفة "الشيء في ذاته" الكانطي، وذلك بفضل سلبية هذا المفهوم. ولا يحتاج المرء إلى الاتفاق مع كانط ليلاحظ، حتى ولو كان هيغل على صواب، أن الديالكتيك يلغي التناقضات لكي يجعلها تعاود الظهور على الفور فحسب.

تذبذب النسق الفلسفي العظيم الأخير في الغرب بين الهذيان التأملي والعقل النقدي، كان فكرة نصبت نفسها كنسق لكي تنشق إلى نصفين فحسب، وتعالج الانشقاق بالانشقاق.

في طرف واحد من العصر الحديث هناك هيغل وأتباعه الماديون، في الطرف الآخر، نقد جميع الأنساق، من التجريبية إلى نيتشه والألسنية الحديثة والفلسفة التحليلية. هذا التعارض هو سبب ومبرر وجود العالم الغربي – أصله وموته المستقبلي.

العصر الحديث انفصال. أستخدم كلمة "انفصال" بمعناها الأكثر وضوحا: الابتعاد عن شيء ما، فصل الذات. بدأ العصر الحديث كابتعاد

عن المجتمع المسيحي. ورغم أنه مخلص لأصوله، فهو ابتعاد - قطع - متواصل، انشقاق لا يتوقف. يكرر كل جيل العمل الذي نؤسس من خلاله، وبهذا التكرار ننكر أنفسنا ونكررها. الانفصال يوحدنا مع الحركة الأصلية لمجتمعنا، والانقطاع يعيدنا إلى أنفسنا. وكأن الأمر إحدى عمليات التعذيب التي تخيلها دانتي (لكن التي هي بالنسبة إلينا ضربة حظ: مكافأتنا للعيش في التاريخ). نبحث عن أنفسنا في الآخرية، نجد أنفسنا هناك، وحالما نتوحد مع الآخر الذي نبتكره والذي ليس إلا إنعكاسا لنا، نفصل أنفسنا عن ذلك الكائن الشبحي، ونجري ثانية بحثا عن أنفسنا، مطاردين ظلنا. هذه الحركة إلى الأمام، التي لا تنتهي، دائما إلى الأمام - نحو المجهول - ندعوها التقدم.

إن فكرتنا عن الزمن كتغير متواصل لا تحدث قطيعة مع النموذج الأصلي المسيحي القروسطي وحسب، وإنما هي مزيج جديد لعناصره في الوقت نفسه: الزمن الأفقي، من سقوط آدم إلى يوم القيامة، والحاضر الأبدي الذي يتبع ذلك.

وأصبح العنصر الأول، الذي هو الزمن المتناهي، الزمن اللامتناهي تقريبا للتطور الطبيعي والتاريخ، لكنه استبقى صفتين: إنه غير قابل للتكرار ومتتابع. ورفض العصر الحديث الزمن الدوري بنفس الطريقة الواضحة التي قام بها أوغسطين: الأمور تحدث مرة واحدة، إنها غير قابلة للتكرار، والشخصية الرئيسية لهذه المسرحية المؤقتة لم تعد الروح الفردية وإنما الكيان الجمعي، النوع البشري.

وأصبح العنصر الثاني، الذي هو الكمال المجسد في الأبدية، صفة للتاريخ. هكذا للمرة الأولى، أضفيت قيمة على التغيير. لا تصل الكائنات

والأشياء إلى الامتلاء الكامل لواقعيتها وكمالها في الزمن الآخر للعالم الآخر بل في الزمن الحاضر، الذي هو حاضر هارب، وليس زمنا حاضرا أبديا. التاريخ هو طريقنا إلى الكمال. لم يشدد العصر الحديث، بفضل منطقه الخاص، على الواقع الفعلي لكل إنسان، وإنما على الواقع المثالي للمجتمع والنوع. إذا توقفت أفعال وأعمال البشر عن امتلاك دلالة دينية، فإنها تتخذ صفة متجاوزة للفرد، ودلالتها، بشكل رئيسي، تاريخية واجتماعية. هذا التهديم للقيم المسيحية كان أيضا تحولا. لم يعد الزمن البشري يدور حول شمس الأبدية الثابتة، سلم، بدلا من ذلك، بالكمال داخل التاريخ، لا خارجه. النوع، لا الفرد، هو موضوع هذا الكمال الجديد، ويمكن الوصول إليه، لا من خلال التوحد مع الله، ولكن من خلال المشاركة، في الفعل الأرضي، التاريخي. إن الكمال، الذي تعتبره السكولاستية صفة للأبدية، دخل في الزمن، بالتالي، رفضت الحياة التأملية كمثال بشري أعلى، وشدد على القيمة المطلقة للفعل العابر. إن قدر الإنسان ليس التوحد مع الله، وإنما مع التاريخ. لقد حل العمل مكان التوبة، والتقدم مكان الميراث، والسياسة مكان الدين.

رأى العصر الحديث نفسه ثوريا، وهو كذلك بطرق كثيرة، والطريقة الأولى الأكثر وضوحا هي سيمانتية: لقد غير العالم الحديث معنى كلمة ثورة. امتلك المعنى الأصلي - قلب العوالم والنجوم - معنى آخر، أكثر ألفة، وضع إلى جانبه: انفصال عنيف عن النظام القديم وتأسيس نظام جديد أكثر عدلا أو أكثر عقلانية. كان قلب النجوم تجليا مرئيا للزمن الدائري، وأصبحت الثورة، في معناها الجديد، التعبير الأكمل عن الزمن الخطي، والمتتابع، وغير القابل للارتداد. وتضمن أحد المعنيين العودة

الأبدية للماضي، والآخر تضمن هدم الماضي وبناء مجتمع جديد. لكن المعنى الأول لا يختفي بشكل كامل، إنما يخضع لتحويل آخر. لقد عبرت الثورة، بمعناها الحديث، وبتماسك كبير، عن مفهوم التاريخ كتغير وتقدم لا مفر منهما. إذا كف المجتمع عن الدوران وأصبح آسنا، تنشب ثورة. وإذا كانت الثورات ضرورية، يكون التاريخ مشبعا بضرورة الزمن الدوري. وهذا لغز غير قابل للحل كلغز الثالوث، بما أن الثورات هي تعبير عن الزمن غير القابل للارتداد، وبالتالي هي تجليات للعقل النقدي. ويكشف غموض معنى الثورة الآثار الأسطورية للزمن الدوري والآثار الهندسية للنقد، الزمن الأكثر قدما والابتكار الأكثر جدة. إنها القدر والحرية.

كان التغيير الثوري العظيم ثورة المستقبل. وفي المجتمع المسيحي كان المستقبل تحت حكم الموت، لأن انتصار الحاضر الأبدي، الذي يتبع يوم القيامة، كان نهاية المستقبل. العصر الحديث يعكس المصطلحات: إذا كان الإنسان هو التاريخ ولا يتعرف على نفسه إلا في التاريخ، وإذا كان التاريخ هو الزمن، ينظر إلى الأمام، ويصبح المستقبل المكان المختار للكمال، أما إذا كان الكمال نسبيا، في علاقته مع المستقبل، ومطلقا في علاقته مع الماضي، عندئذ يصبح المستقبل مركز الثالوث الزماني. إنه مغناطيس للحاضر، ومحك للماضي. إنه أبدي كحاضر المسيحية الثابت. وعلى الرغم من أن مستقبلنا إسقاط للتاريخ، فهو وراء التاريخ، وبمنأى عن التغيير والمصادفة. وهو، كمثل أبدية المسيحيين، يكمن في الجانب الآخر من الزمن. مستقبلنا هو إسقاط الزمن المتتابع ونفيه في آن. الإنسان الحديث يدفع نحو المستقبل بالعنف نفسه الذي كان يدفع به المسيحي نحو الفردوس أو الجحيم.

كانت الأبدية المسيحية تمثل حلا لجميع التناقضات والألم، نهاية التاريخ والزمن. ومستقبلنا، رغم أنه مستودع الكمال، ليس مكان استراحة أو نهاية، بل على العكس، إنه بداية مستمرة، حركة متواصلة إلى الأمام. مستقبلنا فردوس/ جحيم: فردوس لأنه أرض الرغبة، وجحيم لأنه منزل عدم الرضا. من ناحية، كمالنا نسبي دائما، ومن ناحية أخرى، لا يمكن الوصول إليه ولا يلمس.

المستقبل، أرض ميعاد التاريخ، حقل لا سبيل إليه. ويمكن أن نطبق على نموذجنا الأصلي الزماني الخاص النقد الذي طبقه العالم الحديث على الأبدية المسيحية وذلك الذي طبقته المسيحية على الزمن الدائري للعالم القديم. إن التثمين المفرط للتغيير يستتبع التثمين المفرط للمستقبل: زمن ليس زمنا . . . !؟

هل الأدب الحديث حديث؟ إن حداثته غامضة: بدأ الصراع بين الشعر والعالم الحديث مع ما قبل الرومانسيين ولا يزال مستمرا إلى اليوم. سأحاول أن أصف هذا الصراع، ليس من خلال تطوره الكامل - ذلك أنني لست مؤرخا أدبيا - بل من خلال التشديد على اللحظات والأعمال التي تظهره بشكل أوضح. إذا بدت هذه الطريقة اعتباطية، أدعي فقط أنني لست اعتباطيا بلا مسوغ. وجهات نظري هي وجهات نظر شاعر هسباني- أميركي، وليست هذه أطروحة منفصلة بل استكشاف لأصولي، ومحاولة غير مباشرة لتعريف الذات. وتأملاتي تنتمي إلى ما دعاه بودلير "النقد المتحيز"، النوع الوحيد الذي رآه صالحا.

حاولت أن أعرف العصر الحديث بأنه عصر النقد الذي ولد من السلب. أظهر هذا السلب نفسه بوضوح مؤثر في صورتنا عن الزمن. سلم

الدين المسيحي بإلغاء المستقبل من خلال تصور الأبدية كمكان للكمال. وبدأت الحداثة كنقد للأبدية المسيحية وأعاد نقدها مزج العناصر المتجسدة في الفكرة المسيحية عن الزمن: لقد نقلت قيم الفردوس والجحيم إلى الأرض ولحمت بالتاريخ. ألغيت الأبدية، وتوج المستقبل في مكانها.

وترى الحداثة نفسها محكومة بمبدأ التغيير: النقد. هذا النقد، الذي دعي التغير التاريخي، تبنى شكلين: التطور والثورة. كلاهما امتلك المعنى نفسه: التقدم. كلاهما تاريخ ويمكن التأريخ له.

وشمل السلب النقدي الفن والأدب: نظر إلى القيم الفنية على أنها منفصلة عن القيم الدينية وأعلن الأدب استقلاله: الشعري، الفني، الجميل، أصبحت قيما قائمة بذاتها. وقاد استقلال القيم الفنية إلى مفهوم الفن كشيء object، وقاد هذا بدوره إلى ابتكار مزدوج: النقد الفني والمتاحف. في الحقل الأدبي، أيضا، عبرت الحداثة عن نفسها في عبادة "الشيء": القصيدة، الرواية، المسرحية. بدأ هذا الاتجاه في عصر النهضة واكتسب قوة في القرن السابع عشر، لكن فقط، وبينما نحن نقترب من العصر الحديث، أدرك الشعراء، بشكل كامل، طبيعة هذه الفكرة: تتضمن كتابة قصيدة بناء واقع منفصل، قائم بذاته. بهذه الطريقة تتجسد الروح النقدية داخل العملية الإبداعية. وهذا ليس مفاجئا، على ما يبدو: الأدب الحديث، كما يلائم عصرا نقديا، هو أدب نقدي. لكن حداثة الشعر الحديث تبدو متناقضة ظاهريا حين تفحص عن قرب. في كثير من أعماله الأكثر عنفا وتميزا – فكر بالتراث الذي يمتد من الرومانسيين إلى السورياليين – رفض الأدب الحديث، بهيام، العصر الحديث. إن أدبنا، في أحد أكثر اتجاهاته إلحاحا، والذي يشمل الرواية وكذلك الشعر الغنائي – الذي يصل

إلى ذروته في مالارميه أو جويس - نقد هيامي وشامل لذاته. نقد موضوع الأدب: المجتمع البرجوازي وقيمه، نقد الأدب كموضوع: اللغة ومعانيها. في كل من هاتين الطريقتين أنكر الأدب الحديث نفسه، ومن خلال القيام بذلك، أثبت حداثته وأكدها.

إذا كان الأدب الحديث قد بدأ كنقد للحداثة، فإن الشخص الذي تجسدت فيه هذه المفارقة هو روسو. ففي عمله اكتشف العصر الذي يبدأ - عصر التقدم، الابتكارات، وتطور الاقتصاد الرأسمالي - أحد أسسه، وفي الوقت نفسه، وجد نفسه مهاجما بقسوة. في روايات جان جاك روسو وأتباعه، أصبح التذبذب المستمر بين النثر والشعر أكثر عنفا بالتدريج، ليس لصالح النثر وإنما الشعر. وانضم الشعر والنثر داخل الرواية إلى المعركة وهذه المعركة هي جوهر الرواية. وانتصار النثر حول الرواية إلى وثيقة سيكولوجية، واجتماعية، أو أنتروبولوجية، أما انتصار الشعر فحولها إلى قصيدة. في كلتا الحالتين، توقفت عن كونها رواية. ولكي توجد الرواية يجب أن تكون زواجا بين النثر والشعر، دون أن تكون أحدهما. في هذه الوحدة الصعبة يمثل النثر العنصر الحديث: النقد، التحليل. من ثربانتس فصاعدا، بدا كأن النثر يربح، لكن في نهاية القرن الثامن عشر، مسح زلزال مفاجئ هندسة العقل، وغطى الضباب الزجاج التعبيري. أزعجت قوة، حساسية جديدة، بناءات العقل. ولم تكن قوة جديدة، بل بالأحرى قديمة جدا، سبقت العقل والتاريخ نفسه. ضد الجديد والحديث، ضد التاريخ وتواريخه، عارض روسو الحساسية. كانت عودة إلى أصولنا، إلى بداية البدايات: حساسية تكمن وراء التاريخ والتواريخ.

حول الرومانسيون الحساسية إلى هيام. الحساسية هي انسجام مع العالم الطبيعي، الهيام قفز وراء النظام الاجتماعي. كلاهما طبيعة، طبيعة مؤنسنة، كلاهما من الجسد. وعلى الرغم من أن أهواء الجسد احتلت مكانا محوريا في أدب القرن الثامن عشر، لم ينطق الجسد إلا مع ما قبل الرومانسيين والرومانسيين. نطق لغة مصنوعة من الأحلام، والرموز، والاستعارات، اتفاقية غريبة بين المقدس والتجديفي، الرفيع والفاحش. هذه هي لغة الشعر لا العقل. إنها مختلفة جذريا عن كتابات عصر التنوير. في كتابات المركيز دي ساد، التي هي الأكثر حرية وشجاعة في تلك الفترة، لا يتحدث الجسد، رغم أن الموضوع الوحيد للكاتب هو الجسد وخصائصه وانحرافاته. الفلسفة هي التي تتحدث من خلال هذه الأجساد المشوهة. ليس ساد كاتبا مشبوب العاطفة، نشوته فكرية وولعه الحقيقي هو النقد. لا تثيره وضعيات الأجساد، بل صرامة ديالكتيكها وتألقه. وليست إيروتيكية فلاسفة القرن الثامن عشر الإباحيين الآخرين بلا حدود كإيروتيكية ساد، لكنها ليست أقل برودة وعقلانية. إنها الفلسفة لا الهيام. واستمر الصراع في عصرنا: قاتل د. هـ. لورنس وبرتراند رسل ضد البيوريتانية الأنجلوسكسونية، لكن لورنس وجد، دون شك، موقف رسل من الجسد، متشائما، ووجد رسل موقف لورنس غير عقلاني. وتكرر التناقض نفسه بين السورياليين ومناصري التحرر الجنسي. بالنسبة للسورياليين التحرر الإيروتيكي مترادف مع الخيال والهيام، بينما، بالنسبة للآخرين، ليس إلا حلا عقلانيا لمشكلة العلاقة الجسدية بين الجنسين. اعتقد جورج باتاي Georges Bataille أن الخطيئة هي حال، وجوهر الإيروتيكية، ورأت الأخلاقية الجنسية الجديدة أنه لو أزيلت حالات المنع أو خففت، لاختفت

الخطيئة الإيروتيكية أو خففت. وعبر بليك عن الأمر بهذه الطريقة: "كلانا نقرأ التوراة ليل نهار/ ولكن أنت تقرأ السواد حيث أقرأ البياض".

اضطهدت المسيحية الآلهة القديمة وعبقريات الأرض، الماء، والنار، والهواء. وحولت من لم تستطع أن تدمرهم: رمي البعض في الهاوية حيث منحوا مكانا في بيروقراطية الجحيم، آخرون ذهبوا إلى الفردوس واتخذوا مكانهم في مراتبية الملائكة. أفرغ العقل النقدي السماء والجحيم، لكن الأرواح عادت إلى الأرض، والهواء، والنار، والماء - عادت إلى أجساد الرجال والنساء. ودعيت هذه العودة بالرومانسية. أما الحساسية والهيام فهما اسما الروح المتعددة التي تعيش في الصخور، والغيوم، والأنهار، والأجساد. عبادة الحساسية والهيام جدلية يجري فيها موضوع مزدوج: الإعلاء من الطبيعة هو نقد أخلاقي وسياسي للحضارة مثل إثبات زمن أمام التاريخ. الهيام والحساسية يمثلان الطبيعية: الحقيقي إزاء الزائف، الأصلي الحقيقي إزاء الجديد المزيف. تنتمي الحساسية والهيام إلى عالم الأصول، إلى زمن ما قبل وبعد التاريخ، المتماثل مع نفسه دائما. بدأ النزول بهذا الزمن الأصلي، الحساس، الهيامي، إلى التاريخ، والتقدم، والحضارة، كما يقول روسو، حين حدد الإنسان قطعة أرض، قائلا لنفسه: "هذه لي"، ووجد بشرا سخيفين بما يكفي كي يصدقوه. بدأ التاريخ مع الملكية الخاصة. تمزق الزمن البدائي: بداية التاريخ، بداية تاريخ اللامساواة.

إن الحنين الحديث إلى زمن أصلي وإلى بشرية متصالحة مع الطبيعة هو موقف مختلف جذريا عن المفهومات التي كانت سائدة قبل المسيحية. وعلى الرغم من أن هذا العصر سلم، كمثل العالم الوثني، بوجود عصر ذهبي قبل التاريخ، لم يدخل في رؤية دورية للزمن. ولم تكن العودة إلى العصر

السعيد نتيجة ثورة النجوم، وإنما ثورة يقوم بها البشر. الماضي لا يعود إنما يبتكره البشر، بتدبر وتطوع، ويضعونه داخل التاريخ. إن ماضي الثورات هو شكل واحد يلبسه المستقبل. آمن الوثنيون بقدر لاشخصاني، أما الحديثون فقد آمنوا بالحرية، الوريثة المباشرة للمسيحية. وأقلق اللغز الذي حير القديس أوغسطين - كيفية مصالحة الحرية الإنسانية مع الحضور الكلي الإلهي - البشر منذ القرن الثامن عشر. إلى أي مدى يحددنا التاريخ، وإلى أية نقطة يستطيع الإنسان أن يشق مجراه ويغيره؟ يمكن أن تضاف مفارقة أخرى إلى مفارقة الضرورة والحرية: يتبنى نقد المجتمع الحديث شكل فعل عنف. الثورة هي النقد الذي يحول إلى فعل. في الوقت نفسه الثورة هي تجديد للاتفاقية الأصلية بين المتساوين، استعادة زمن سابق على التاريخ واللامساواة. وتتضمن هذه الاستعادة نفيا للتاريخ، على الرغم من أن نفيا كهذا سيحصل بفضل فعل تاريخي بارز: النقد محولا إلى فعل ثوري. وتمثل العودة إلى الزمن البدائي، قبل التاريخ واللامساواة، انتصار النقد. هكذا نستطيع أن نقول، مهما ظهرت الفرضية مفاجئة، إن العصر الحديث هو العصر الوحيد الذي يستطيع أن ينكر نفسه.

جسد الشعر الحديث، منذ ولادته في نهاية القرن الثامن عشر، هذا النقد للنقد. ولهذا السبب بحث عن أساسه في مبدأ يسبق الحداثة زمنيا ويعاديها. هذا المبدأ، العصي على التغيير والتتابع الزماني هو بداية البداية التي تحدث عنها روسو، وهو أيضا آدم وليم بليك، ورؤيا جان بول Jean Paul وتناظر نوفاليس، وطفولة ووردسورث ومخيلة كوليردج. وأكد الشعر الحديث نفسه كصوت لهذا المبدأ، ورأى نفسه الكلمة الأصلية للأساس. الشعر هو اللغة الأصلية للمجتمع، قبل أي وحي ديني، وهو،

في الوقت نفسه، لغة التاريخ والتغيير: الثورة. ومبدأ الشعر اجتماعي، وبالتالي ثوري: إنه عودة إلى الميثاق الأصلي، قبل اللامساواة. وهو فردي وينتمي إلى كل رجل وكل امرأة، وهو إعادة غزو للبراءة الأصلية. ويعارض كلا من العصر الحديث والمسيحية، لكنه أيضا تأكيد لكل من الزمن التاريخي للعالم الحديث (الثورة) ولزمن المسيحية الأسطوري (البراءة الأصلية). إن موضوع تأسيس مجتمع آخر هو موضوع ثوري يضع في المستقبل زمن البداية، أما استعادة البراءة الأصلية موضوع ديني يضع الماضي قبل السقوط في الحاضر. إن تاريخ الشعر الحديث هو تاريخ التذبذب بين الإغواء الثوري والإغواء الديني.

أطفال الطين

إن نصف تاريخ الشعر الحديث، على الأقل، هو قصة افتتان الشعراء بأنساق صاغها العقل النقدي. في هذا السياق "يفتن" تعني يسحر، يسمر - ويخدع. وكما لدى الرومانسيين الألمان، جاء المقت بعد الانجذاب بشكل محتوم. وغالبا ما نظر إلى هذه الجماعة على أنها كاثوليكية وملكية، ومعادية للثورة الفرنسية. وشعر معظم الرومانسيين الألمان، في البداية، بالحماسة والتعاطف مع الحركة الثورية، وكان ارتدادهم إلى الكاثوليكية والملكية، ناتجا عن غموض الرومانسية - الممزقة دائما بين طرفين - بقدر ما كان ناتجا عن طبيعة المأزق الذي واجهه ذلك الجيل. واتخذت الثورة الفرنسية مظهرين: كحركة ثورية قدمت للأمم الأوروبية رؤيا كونية للإنسان ومفهوما جديدا في المجتمع والدولة، وكحركة قومية قوت التوسع الفرنسي خارج البلاد، وقوت في داخلها سياسة المركزة التي بدأها ريتشليو Richelieu. وقد كانت الحروب ضد حكومة القناصل والإمبراطورية حروب تحرر وطني وحروب دفاع عن الملكية المطلقة في آن. وعلى سبيل المثال، كان الليبراليون الإسبان، الذين تعاونوا مع الفرنسيين، مخلصين لأفكارهم السياسية، لكنهم لم يكونوا مخلصين لبلادهم، بينما كان على إسبان آخرين أن يسلموا أنفسهم إلى مزج قضية الاستقلال الإسباني بقضية ريتشارد السابع البائس والكنيسة.

وبغض النظر عن الظروف السياسية، كان موقف الرومانسيين الألمان بعيدا عن كونه محافظا. والدليل على ذلك هولدرلين (رغم أنه، مثل بليك، ليس رومانسيا بحصر المعنى، وللأسباب نفسها: سبق الاثنان الرومانسية زمنيا وتجاوزاها، ليصلا إلى يومنا هذا).

في أيام الإئتلاف الأول ضد الثورة الفرنسية (حزيران ١٧٩٢)، كتب هولدرلين إلى شقيقته: " صلي كي يهزم الثوريون النمساويين، لأنه إذا لم يحدث هذا فإن الأمراء سيسيئون استعمال سلطتهم بشكل مقيت. صدقيني وصلي للفرنسيين الذين هم المدافعون عن حقوق الإنسان".

بعد وقت قصير، وفي ١٧٧٩ ، كتب هولدرلين أنشودة إلى بونابرت - محرر إيطاليا، وليس لبونابرت الجنرال الذي سيتحول إلى "ديكتاتور ما" والذي هاجمه بازدراء في رسالة أخرى.

إن موضوع رواية هولدرلن هايبريون Hyperion ثنائي: لا ينفصل حب ديوتيما عن تأسيس جماعة من الرجال الأحرار. ونقطة الاتحاد بين حب ديوتيما وحب الحرية هي الشعر، وصراع هايبريون من أجل حرية بلاده هو صراع لتأسيس مجتمع حر كذلك، ويتضمن تأسيس هذه الجماعة الرومانسية عودة إلى اليونان القديمة.

الشعر والتاريخ، اللغة والجماعة، الشعر كحد بين الكلام البشري والكلام الإلهي - أصبحت هذه الأضداد الأفكار المحورية للشعر الحديث.

وأعاد الحلم بجماعة حرة ومتساوية، الموروث من روسو، الظهور بين الرومانسيين الألمان الأوائل، واتصل، مرة أخرى، بالحب، ولكن بشكل أكثر عنفا وحدة.

نظر الرومانسيون إلى الحب كتجاوز للقيود الاجتماعية، ورفعوا من شأن المرأة ليس كموضوع إيروتيكي وحسب وإنما كذات إيروتيكية في الوقت نفسه. وتحدث نوفاليس عن المشاعية الشعرية وتصور مجتمعا يكون فيه استهلاك الشعر وإنتاجه فعلا جماعيا. ودافع فريدريك شلغيل Frederick Schlegel في لوسيندا Lucinda (١٧٩٩) عن الحب الحر. ويمكن أن تبدو روايته ساذجة، لكن نوفاليس أراد أن يمنحها عنوانا فرعيا: *أخيلة شكية أو شيطانية*. ولقد تنبأت هذه العبارة بأحد أقوى تيارات الأدب الحديث وأكثرها استمرارية: ذوق لتدنيس المقدسات، التجديف، الغريب والخيالي، الجمع بين الشائع والفائق للطبيعة، باختصار، حب المفارقة، ذلك الابتكار العظيم للرومانسية. إنها مفارقة بالمعنى الذي استخدمه شليغل: حب التناقض الذي يحيا في كل منا، ووعي هذا التناقض - الذي يغذي ويدمر الرومانسية الألمانية. كانت هذه أول الثورات الشعرية وأكثرها جرأة، وأول من استقصى العوالم السفلية للحلم، واللاوعي، والفكر، والإيروتيكية وحول الحنين إلى الماضي إلى برنامج جمالي وسياسي.

قدم الرومانسيون الإنكليز مثالا مشابها. حين كان ساوثي Southey وكوليردج طالبين في كامبردج تصورا فكرة يوتوبيا Pantisocracy مؤلفة من مجتمع حر، تسوده المساواة، وشيوعي، يجمع بين "براءة الحقبة البطركية" و" إنجازات أوروبا الحديثة". وهكذا تداخل الموضوع الثوري للشيوعية التحررية مع الموضوع الديني لاستعادة البراءة الأصلية. قرر كوليردج وساوثي أن يغادرا إلى أميركا ليؤسسا مجتمعهما اليوتوبي في القارة الجديدة، لكن كوليردج غير رأيه حين اكتشف أن ساوثي أراد أن يصطحب معه خادما! بعد سنوات عديدة، زار شيلي الشاب، وزوجته

الأولى هارييت، ساوثي إلى مأواه في مقاطعة البحيرة. عثر الشاعر العجوز، والجمهوري السابق، على معجبه الشاب، "بالضبط كما كنت في ١٧٩٤". مع ذلك، قال شيلي في رسالة كتبها لصديقته إليزابيث هتشينر عن هذه الزيارة (٧ كانون الثاني ١٨١٢): "ساوثي رجل أفسده العالم ولوثته العادة".

كانت أول زيارة لووردسورث إلى فرنسا في 1790. بعد عام، حين كان في الواحد والعشرين من عمره، لدى خروجه من كمبردج، أعادته حماسته للجمهورية إلى فرنسا، حيث أمضى عامين، أولا في باريس ثم في أورليان. كان متعاطفا مع الجيرونديين. وهذه الحقيقة، بالإضافة إلى اشمئزازه من الإرهاب الثوري، تشرح كراهيته لليعاقبة، الذين سماهم "قبيلة مولوخ". وكما سيفعل كثير من كتاب القرن العشرين مع صراعات الثورة الروسية، وقف ووردسورث إلى جانب إحدى الفرق التي حاولت أن تسيطر على الثورة الفرنسية: الطرف الخاسر. في قصيدته التي تروي سيرته الذاتية، الاستهلال - بذلك الأسلوب المتسم بالغلو والمليء بالأحرف الكبيرة الذي يجعل هذا الشاعر العظيم أحد أكثر الشعراء غلوا في العصر الحديث - يصف إحدى أسعد لحظات حياته. كان يوما في بلدة على الساحل حيث "كل ما رأيته أو شعرت به/ كان الرقة والسكينة". وسمع مسافرا من فرنسا يقول: "مات روبسبير". وشعر بكراهية مساوية لبونابرت. ويقول في القصيدة نفسها، حين علم أن البابا توج نابليون إمبراطورا، إنه شعر بأنه كان: " فعلا مخزيا أخيرا ، حين نرى شعبا/ ...يأخذ درسا من كلب / ويعود إلى قيئه".

بعد أن واجهته مصائب التاريخ و "انحطاط العصر"، عاد ووردسورث إلى طفولته ولحظات شفافيتها. انشق الزمن نصفين، وهكذا، بدلا من أن ننظر إلى الواقع، ننظر عبره. ما رآه ووردسورث، وعلى الأرجح، ما لم يره أحد قبله أو بعده، ليس عالما فنتازيا، وإنما الواقع كما هو: الشجرة، الحجر، الجدول، وكل منها متماسك، يستند إلى واقعه كنوع من الثبات الذي لا ينفي الحركة. إن فراسخ الزمن الحي، والأمكنة التي تتدفق ببطء أمام البصيرة، هما رؤية للزمن الآخر، وهو زمن مختلف عن زمن التاريخ بملوكه وأممه المتحاربة، ومجالسه الثورية، وكهنته المتعطشين للدماء، مقاصله ومشانقه. إن زمن الطفولة هو زمن الخيال، تلك الملكة التي يسميها ووردسورث "روح الطبيعة" ليشير إلى أنها قوة ما وراء بشرية. والخيال لا يسكن في الإنسان، إنه، بالأحرى، روح المكان واللحظة. وهو ليس القوة التي تسمح لنا أن نرى كلا من المظاهر المرئية والخفية للطبيعة وحسب، وإنما الوساطة التي تنظر من خلالها الطبيعة إلى نفسها عبر عيني الشاعر في الوقت نفسه. إن الطبيعة تتحدث معنا ومع نفسها من خلال الخيال.

ويمكن أن تشرح تقلبات هيام ووردسورث السياسي من خلال حياته الخاصة. يمكن أن يقال إن سنوات حماسته للثورة هي سنوات حبه لآنيت (آن ماري فالون)، وهي فتاة فرنسية هجرها حالما بدأ يغير أفكاره السياسية. تزامنت سنوات عدائه المتنامي للحركات الثورية مع قراره بترك العالم والعيش في الريف مع زوجته وشقيقته دوروثي. لكن هذا الشرح التبسيطي يعتمنا نحن، لا ووردسورث، وهناك شرح آخر، وهو شرح فكري وتاريخي يتعلق بصلة ووردسورث مع الجيرونديين Girondins ، ومقته

لروح النظام esprit de systeme لـدى اليعاقبـة ، والقناعـات الأخلاقيـة والفلسفية التي قادته إلى نقل رفضه للخلاصيـة البابويـة إلـى الخلاصيـة الثورية ، ورد فعله كرجل إنكليزي على غزو نابليون الذي حاول القيـام بـه . يمزج هذا الشرح المقت الليبرالي للطغيـان الثوري مـع العـداء الوطنـي لحجـج قوة أجنبية في الهيمنة ، ويمكن أن يطبق أيضا ، مـع بعـض التحفظات ، على الرومانسيين الألمان . إن النظر إلى الصـراع بـين الرومانسيين الأوائل والثـورة الفرنسية كحادثة في الصراع بين الاستبداد والحرية ليس مزيفـا بشـكل كلـي ، وليس صحيحا بشكل كامل .

كلا ، هناك شرح آخر . لقد نظر إلـى الظـاهرة ، مـرة بعـد أخـرى ، فـي ظروف تاريخية مختلفة ، طوال القرن التاسع عشر وفيمـا بعـد ، بتوتـر أكـبر ، إلى الوقت الحاضر . ونادرا ما يكون ضروريا أن نذكر تجارب ماياكوفسـكي ، وباسترناك ، وماندلشتام ، وكثير من الشعراء ، والفنانين ، والكتاب الـروس ، جدل السورياليين العنيف مع الأممية الثالثة ، مرارة قيصر باييخو ، الممـزق بـين الإخلاص للشعر والإخلاص للحزب الشـيوعي ، النزاعـات حـول "الواقعيـة الاشتراكية" و ... ولكـن لمـاذا الاسـتمرار؟ كـان الشـعر الحديـث ، ولا يـزال ، هياما ثوريا ،لكن هذا الهيام كان شـقيا . كـانت هنـاك جاذبيـة ورفـض ، ولـم يكن الفلاسفة هم الذين طردوا الشعراء من جمهوريتـهم وإنمـا الثوريـون هـم الذين فعلوا ذلك . وسبب الرفض هو نفس سبب الجاذبية ، فكل مـن الثـورة والشـعر يحـاولان أن يـهدما الحـاضر ، الزمـن التـاريخي الـذي هـو زمـن اللامساواة ، وأن يستعيدا الزمن *الآخر* . لكن زمن الشعر ليـس زمـن الثـورة ، زمـن العقـل النقـدي العتيـق ، مستقبل اليوتوبيـات . إنـه الزمـن الـذي قبـل

الزمن، زمن الحياة الداخلية La vie anterieure الذي يعيد الظهور في نظرة الطفل اللازمانية.

إن غموض الشعر إزاء العقل النقدي وتجسداته التاريخية في الحركات الثورية، هو أحد وجهي العملة، الوجه الآخر هو غموضه إزاء المسيحية. مرة أخرى: الجاذبية والرفض. كان معظم الرومانسيين العظام، ورثة روسو ومذهب الربوبية في القرن الثامن عشر، متدينين. لكن ما هي المعتقدات الفعلية لهولدرلين، وبليك، وكوليردج، وهوغو، ونرفال؟ يمكن أن يطرح المرء السؤال نفسه على أولئك الذين صرحوا بشكل علني أنهم متدينون. إن إلحاد شيلي هو هيام ديني. لقد كتب في ١٨١٠، وفي رسالة إلى توماس هوغ: "آه! أحترق من فقدان الصبر كي تأتي لحظة انحلال الدين المسيحي، لقد سبب لي الأذى... سأطعن هذا الدين الخسيس في الخفاء". وهذه لغة غريبة لملحد وتنذر بينتشه السنوات القادمة.

رفض الدين وحب الدين: يبتكر كل شاعر أساطيره الخاصة، وكل ميثولوجيا هي مزيج من معتقدات مختلفة، أساطير أعيد اكتشافها، وهواجس شخصية. إن مسيح هولدرلين هو إله للشمس، وفي تلك القصيدة الغامضة التي تدعى "الوحيد"، يتحول المسيح إلى شقيق لهرقل ولذلك الديونيسوس "الذي ربط عربته بمجموعة من النمور وانحدر إلى Indus". وعذراء قصائد نوفاليس هي أم المسيح والليل السابق على المسيحية، خطيبته صوفي، والموت. أوريليا نرفال هي إيزيس، باندورا، والممثلة جيني كولون، حبه الشقي. إن أديان وغراميات الرومانسيين هي هرطقات، جهود توفيقية، ارتدادات، تجديفات، وتحولات. وهناك نمطان

للغموض الرومانسي، بالمعنى الموسيقي للكلمة: المفارقة، التي تدخل نفي الذاتية إلى حقل الموضوعية، والألم، الذي يسقط تلميحة بالعدم في امتلاء الوجود. تكشف المفارقة ثنائية ما بدا كليا، الانشقاق في ما هو متماثل، الجانب الآخر من العقل، تمزق مبدأ الهوية. ويظهر الألم أن الوجود فارغ، والحياة موت، أن السماء صحراء: إنه تفتت الدين.

إن موت الله موضوع رومانسي. وهو ليس فلسفيا وإنما ديني: وبقدر ما يهمنا العقل، إما إن الله يوجد أو إنه لا يوجد. وإذا كان موجودا، فهو لا يمكن أن يموت، وإذا لم يكن موجودا، كيف يمكن لمن لم يوجد مطلقا أن يموت؟ لكن هذا التفكير صالح من وجهة نظر التوحيد وزمن الغرب المستقيم غير القابل للارتداد وحسب.

كان القدماء يعرفون أن الآلهة فانية، وأنها تجليات للزمن الدوري وهكذا ستنبعث وتموت من جديد. سمع بحارة على ساحل المتوسط صوتا في الليل يقول: "مات بان"، وهذا الصوت الذي أعلن موت الإله، أعلن أيضا انبعاثه. وتقول لنا أسطورة نهواتلية Nahuatle إن كويتشالكوتل Quetzalcoatle هجر تولا Tula، ضحى بنفسه، وأصبح الكوكب المزدوج، نجم الصباح والمساء، وسيعود يوما ما ليطالب بميراثه. لكن المسيح لم يأت إلى الأرض إلا مرة واحدة، ذلك أن كل حدث في تاريخ المسيحية المقدس هو فريد ولن يتكرر. إذا قال شخص ما: "مات الله"، فهو يعلن حقيقة غير قابلة للتكرار: لقد مات الله إلى الأبد. ولا يمكن التفكير بموت الله داخل مفهوم الزمن كتعاقب خطي غير قابل للارتداد، ذلك أن موت الله يفتح بوابات المصادفة واللاعقل. ثمة جواب مزدوج على هذا: المفارقة، الفكاهة، وأيضا المفارقة الشعرية، الصورة. وهذه تظهر لدى

جميع الرومانسيين. إن الميل إلى الخيالي، المرعب، الغريب، الرفيع، والعجيب، جمالية التغايرات، الميثاق بين الضحك والدموع، النثر والشعر، اللاأدرية والإيمان، تغيرات المزاج المفاجئة، السلوك الغريب - كل ما يحول الشاعر الرومانسي إلى إيكاروس، وشيطان، ومهرج، هو، جوهريا، المفارقة والألم. وعلى الرغم من أن مصدر كل من هذه المواقف ديني، فهو نوع من الدين غريب ومتناقض بما أنه يتألف من إدراك أن الدين فارغ. إن التدين الرومانسي غير ديني، وساخر، واللاتدين الرومانتيكي ديني ومتألم.

وظهر موضوع موت الله، بهذا المعنى الديني/ اللاديني، للمرة الأولى كما أعتقد، عند جان بول Jean Paul. امتزجت في هذا البشير العظيم جميع الاتجاهات والتيارات التي انتشرت في شعر القرن التاسع عشر والعشرين، وفي كتابة الرواية: الهذيان الحلمي، وحس الفكاهة، والألم، مزج الأنواع، الأدب الفنتازي المتحالف مع الواقعية، والواقعية مجتمعة مع التأمل الفلسفي.

إن حلم جان بول هو حلم بموت الله، عنوانه الكامل *كلام المسيح، من الكون، أنه ليس هناك إله (١٧٩٦)*. وفي نسخة أولى من العمل، ليس المسيح هو الذي يعلن الأنباء وإنما شكسبير الذي كان، بالنسبة إلى الرومانسيين، الشاعر الذي يحمل اللقب، كما كان فرجيل بالنسبة للعصور الوسطى. هكذا، حين ترك جان بول الإعلان يأتي من فم الشاعر الإنكليزي، تنبأ بكل ما قاله الرومانسيون فيما بعد: الشعراء رائون وأنبياء تتحدث الروح من خلالهم. يحل الشاعر مكان الكاهن، ويصبح الشعر وحيا ينافس النصوص المقدسة. وأكدت النسخة الدقيقة لحلم جان بول الصفة الدينية العميقة لذلك النص الجوهري وطبيعته التجديفية الكاملة في

الوقت نفسه. ولـم يفعـل فيلسـوف أو شاعر ذلـك وإنما المسيح نفسـه، ابـن الله، هو الذي أكد أن اللـه غير موجـود. والمكان الـذي أعلـن فيـه هـذا هـو كنيسة في مقبرة. يمكن أن يكون الوقت منتصف الليل، لكـن كيـف يسـتطيع المرء أن يتأكد، بما أن الساعة تخلو من الأرقام أو العقارب، وعلى سـطحها الفارغ عقرب أسود، يتعقب بلا تعب، إشارات تختفي فورا، يحاول الموتـى أن يفكوا شفرتها عبثا. وبعد أن نزل المسيح إلى وسط الظلال الصاخبة قال: "لقد استكشفت العوالم، طرت إلى الشموس، ولم أعثر علـى اللـه. ذهبـت إلى أطراف الكون القصوى، بحثت في الهاوية وصرخت: أين أنت يا أبي؟ لكنني لـم أسمع إلا المطر يتساقط إلـى الأعمـاق والعاصفـة الأبدية التـي لا يحكمها أي نظام". احتشد أطفال موتى حـول المسيح وسـألوا: "يـا يسـوع، ألا نمتلك إلها"؟ أجاب: "نحن يتامى جميعا".

يتشـابك موضوعـان فـي حلـم: مـوت اللـه المسـيحي، الأب الكونـي وخالق العالم، وغياب نظام إلهي أو طبيعي ينظم حركة الكـون. والموضـوع الثاني يناقض بشكل مباشر الأفكار التي نشرتها الفلسفة الجديدة بـين الأرواح المثقفـة للزمـن. ولقـد هـاجم فلاسـفة التنويـر المسيحية وإلههـا الـذي جعـل إنسانا، ولكن القـائلين بمذهـب الربوبيـة، وكذلـك الماديون، سـلموا بوجـود نظام كوني. آمن القرن الثامن عشر - باستثناء قلة - بكون تحكمه قوانـين لـم تختلف جوهريا عن قانون العقل. ثمة ضرورة ذكية، إلهية أو طبيعية، تحـرك العالـم: لقد كان الكون آلية عقلانية.

أظهرت رؤية جان بول النقيض الدقيق: الفوضى، غياب الانسـجام. ليس الكون آلية وإنما لاشكلية شاسعة مثارة بطريقـة يمكـن أن تدعـى، بـدون مبالغة، انفعالية. وذلك المطر الذي يتسـاقط منـذ البدايـة فـي الهاويـة التـي لا

قعر لها، وتلك العاصفة الأبدية التي تهب على المشهد الطبيعي المتشنج، هما الصورة نفسها للمصادفة. في هذا الكون الذي لا يحكمه قانون، يندفع العالم بلا هدف، هذه الصورة الغرائبية للكون، "الأبدية ترقد ثقيلة على العماء وحين تستهلكه، تستهلك نفسها". أمامنا "الطبيعة الساقطة" للمسيحيين، لكن العلاقة بين الطبيعة والله معكوسة. ليس العالم الساقط من يد الله هو الذي يقذف نفسه في العدم، وإنما الله نفسه هو الذي يسقط في حفرة الموت. هذا تجديف كبير، مفارقة وألم في آن. لقد تصورت الفلسفة عالما لا يحركه خالق وإنما نظام ذكي، ذلك أن مصادفة جان بول ناتجة عن موت الله. إن العالم عماء لأنه بلا خالق.

كان إلحاد جان بول متدينا واصطدم مع إلحاد الفلاسفة، ذلك أنه أزاح صورة العالم كآلية ووضع مكانها صورة العالم المتشنج، الذي يعاني من آلام الموت كثيرا، ومع ذلك لا يموت. وفي الحقل الوجودي، دعيت المصادفة الكونية: اليتم. واليتيم الأول، اليتيم العظيم، ليس إلا المسيح. *حلم* يفضح الفيلسوف والكاهن، الملحد والمؤمن كذلك.

لقد حلم حلم جان بول، وفكر به وعاناه كثير من الشعراء والفلاسفة، والروائيين في القرن التاسع عشر: نيتشه، ودوستويفسكي، ومالارميه، وجويس وفاليري. وعرف في فرنسا بفضل كتاب مدام دي ستايل Madame de Stael فيما يخص ألمانيا (١٨١٤).

ثمة قصيدة كتبها نرفال، مؤلفة من خمس سونيتات بعنوان "المسيح على جبل الزيتون" (١٨٤٤)، هي نسخة معدلة من *حلم*. إن نص جان بول متشنج، متقطع، ويتسم بالمبالغة. يتخلص الشاعر الفرنسي من العنصر الاعترافي، السيكولوجي، ولا يقدم قصة حلم وإنما قصة أسطورة، لا

كابوس شاعر في كنيسة مقبرة، وإنما مونولوج المسيح أمام حوارييه النائمين. سطر رائع: "ليس هناك إله على المذبح الذي أنا عليه الضحية"، هذا السطر يوسع في السونيتة الأولى موضوعا غير موجود لدى جان بول والذي تدفعه السونيتات التالية إلى الذروة في السطر الأخير لكل منها. إنه موضوع العود الأبدي، الذي سيعاود الظهور، بتوتر ووضوح، لا مثيل لهما لدى نيتشه، مرتبطا مرة أخرى بموضوع موت الله. وفي قصيدة نرفال، تضحية المسيح في هذا العالم الذي بلا إله تحوله إلى إله جديد - عدا أنه يصبح إلها يمتلك شيئا قليلا مشتركا مع الإله المسيحي. إن مسيح نرفال إيكاروس جديد، Paethon، أتيس Attis جديد تعيده سيبل إلى الحياة. تسكر الأرض من هذا الدم الثمين، ينهار جبل الأوليمب في الهاوية، ويسأل قيصر وسيط الوحي جوبيتر أمون: "من هو هذا الإله الجديد؟" الوسيط صامت، لأن الوحيد الذي يستطيع أن يشرح هذا اللغز للعالم هو (الذي نفخ روحا في أطفال الطين). هذا اللغز غير قابل للحل، لأن الذي ينفخ روحا في آدم الطين هو الأب، الخالق، ذلك الإله نفسه، الغائب عن المذبح، حيث المسيح هو الضحية. بعد قرن ونصف واجه فرناندو بيسوا Fernando Pessoa اللغز نفسه وكان جوابه شبيها بجواب نرفال: ليس هناك إله، لكن هناك آلهة: "الله رجل لإله آخر أكثر عظمة، وذلك الآدم الأعظم سقط كذلك، وعلى الرغم من أنه الخالق فهو مخلوق".

لقد قبل وعي الغرب الشعري موت الله وكأنه كان أسطورة، أو كان هذا الموت أسطورة بالأحرى، لا مجرد حادثة في تاريخ الأفكار الدينية لمجتمعنا.

عبر موضوع اليتم الكوني، كما رمز له المسيح، اليتيم العظيم والأخ الأكبر للأطفال اليتامى الذين هم البشرية كلها، عبر عن تجربة نفسية تستدعي طريق سلب المتصوفين. إنها تلك "الليلة المظلمة" التي نشعر فيها بأنفسنا مندفعين، مهجورين في عالم معاد أو لامبال، مذنب دون خطيئة، وبريء دون براءة. على أي حال، ثمة فرق جوهري: إنه ليل بلا نهاية، دين مسيحي دون إله. في الوقت نفسه، يوقظ موت الله في الخيال الشعري حسا بالقص الأسطوري، وتوضع نظرية عن نشأة الكون يكون فيها كل إله هو مخلوق، وآدم، و إله آخر. إنها عودة إلى الزمن الدوري، تحويل موضوع مسيحي إلى أسطورة وثنية. وثنية ناقصة يتخللها التلهف للسقوط في المصادفة.

كانت التجربتان - المسيحية بدون الله، والوثنية المسيحية - عنصرين أساسيين للشعر والأدب الغربيين منذ العصر الرومانسي. نواجه في كلتيهما قفزا مزدوجا. إذ حول موت الله إلحاد الفلاسفة إلى تجربة دينية وأسطورة، وهكذا أنكرت التجربة، بدورها، أصلها: الأسطورة فارغة، لعبة انعكاسات على الوعي الوحيد للشاعر، ذلك أنه ليس هناك أحد على المذبح، حتى المسيح الضحية. الألم والمفارقة: يواجههما الزمن المستقبلي للعقل النقدي والثورة.

شدد الشعر على زمن الحساسية والخيال غير المتتابع، الزمن الأصلي. وشدد، في وجه الأبدية المسيحية، على موت الله، والسقوط في المصادفة، وتعدد الآلهة والأساطير. لكن كل من حالات السلب هذه تنقلب ضد نفسها: ليس زمن الخيال زمنا أسطوريا وإنما ثوري، وموت الله ليس

موضوعا فلسفيا وإنما ديني، أسطورة. الشعر الرومانسي ثوري، وهو ليس مع ثورات القرن وإنما ضدها، ودينه تجاوز للدين.

كان الشعر، في العصور الوسطى، خادما للدين، وفي العصر الرومانسي كان الدين الحقيقي رأس نبع النصوص المقدسة. أظهر روسو وهيردر أن اللغة لبت حاجات الإنسان العاطفية بدلا من الروحية، ذلك أن ما يجعلنا نتحدث ليس الجوع وإنما الحب، والخوف والتساؤل.

كانت عقائد البشرية الأولى هي القصائد. وسواء كنا نتعامل مع أحجيات سحرية، ابتهالات، أساطير، أو صلوات، فإن الخيال الشعري هو هناك منذ البداية. ودونما خيال شعري لن يكون هناك أساطير أو نصوص مقدسة. في الوقت نفسه، وأيضا منذ البداية، صادر الدين منتجات الخيال الشعري من أجل غاياته الخاصة. ولا تكمن بهجة الأساطير في طبيعتها الدينية - ليست هذه المعتقدات خاصة بنا - ولكن في حقيقة أن السرد الشعري يغير فيها مظهر العالم والواقع. إن إحدى الوظائف الرئيسية للشعر هي أن يظهر الجانب الآخر، عجائب الحياة اليومية: ليس اللاواقعية الشعرية وإنما واقعية العالم غير العادية. هيمن الدين على هذه الرؤى، وحول أعمال الخيال إلى معتقدات، والمعتقدات إلى أنساق. ولكن الشاعر منح الأفكار الدينية، آنذاك، شكلا قابلا للإدراك، وحولها إلى صور وأحياها: إن نظريات نشوء الكون والأنساب هي قصائد، والنصوص المقدسة كتبها شعراء. وفي الحقيقة، الشاعر هو جغرافي ومؤرخ الفردوس والجحيم: وصف دانتي جغرافيا وسكان العالم الآخر، وروى لنا ملتون القصة الحقيقية للسقوط.

أزاح نقد الدين، الذي قامت به فلسفة القرن الثامن عشر، المسيحية كأساس للمجتمع. وتحويل الأبدية إلى زمن تاريخي مكن الشعر من أن يتصور نفسه كأساس حقيقي للمجتمع. وقد اعتقد أن الشعر هو الدين والمعرفة الحقيقيان. وانتقد الفلاسفة التوراة، والإنجيل، والقرآن واعتبروا هذه الكتب صررا من حكايات وأخيلة الزوجات الهرمات. في الوقت نفسه، عرف الماديون أنفسهم أن هذه الحكايات تمتلك حقيقة شعرية. وعثر الشعراء، في بحثهم عن أساس يسبق الدين الموحى أو الطبيعي، على حلفائهم بين الفلاسفة. كان تأثير كانط حاسما في المرحلة الثانية من فكر كوليردج. ولقد أظهر هذا الفيلسوف الألماني أن الخيال المنتج عمل كوسيط بين المدركات الحسية والفهم، وبين الخاص والعام، كوسيط تتجاوز الذات من خلاله نفسها: يعكس الخيال ويقدم موضوعات الادراكات الحسية للفهم. إن الخيال هو وضعية الفكر: بدونه لايمكن أن يكون هناك اتصال بين الإدراك والحكم. ورأى كوليردج أن الخيال ليس الوضعية الضرورية لكل المعرفة وحسب، إنه الملكة التي تحول الأفكار إلى رموز والرموز إلى حضورات في الوقت نفسه. الخيال شكل من "أشكال الوجود": لم يعد مجرد معرفة وإنما حكمة كذلك.

اعتقد كوليردج أنه ليس هناك فرق بين الخيال الشعري والوحي الديني، عدا أن الأخير تاريخي ومتبدل، بينما الشعراء (بقدر ما هم شعراء ومهما كانت معتقداتهم) ليسوا "عبيد أي رأي طائفي." قال أيضا إن الدين كان "شعر البشرية". قبل ذلك بسنوات، كتب نوفاليس أن "الدين شعر عملي". وكان الشعر "دين البشرية الأول". ثمة اقتباسات كثيرة كهذه، وكلها تمتلك المعنى نفسه: كان الشعراء الرومانسيون سباقين إلى تأكيد

الأسبقية التاريخية والروحية للشعر على الدين الرسمي والفلسفة. الكلمة الشعرية، بالنسبة إليهم، هي الكلمة التأسيسية. ويكمن في هذا التأكيد الجسور جذر هرطقة الشعر الحديث في وجه الأديان والإيديولوجيات على السواء.

تركزت في شخصية وليم بليك جميع تناقضات الجيل الأول من الرومانسيين، التي فجرت رومانسية تجاوزية. هل كان بليك رومانسيا ؟ لا تظهر عبادة الطبيعة، التي هي إحدى علائم الشعر الرومانسي، في كتاباته. قال إن عالم الخيال أبدي، وعالم الجيل محدود ومؤقت. كان الأول ذهنيا، والآخر "زجاجا يشوه رؤيتنا. تبدو هذه الأفكار بأنها تصله مع الغنوسطيين - العرفانيين - لكن حبه للجسد وإعلائه من شأن الرغبة الإيروتيكية والمتعة - "عجل واقتل طفلا في مهده بدلا من أن تربي رغبات معطلة" - وضعاه في تعارض مع التراث الأفلاطوني المحدث. هل كان مسيحيا ؟ مسيحه ليس مسيح المسيحيين، وإنما عملاق عار يستحم في البحر المتألق للطاقة الإيروتيكية، قوة خلاقة، بالنسبة له التخيل والفعل، الرغبة وإشباعها، هما الشيء نفسه. يذكرنا مسيحه بالشيطان: جسده الضخم، كسحابة عملاقة يضيئها البرق، مغطى بالأحرف الملتهبة لظروف الجحيم.

اعتاد بليك، في السنوات الأولى للثورة الفرنسية، أن يسير في شوارع لندن معتمرا القبعة الفريجية الدموية اللون. فترت حماسته السياسية في النهاية، لكن توقد خياله، المتحرر والمحرر، لم يفتر:

"إن جميع الكتب المقدسة أو الشيفرات المقدسة كانت سبب الأخطاء التالية: ١-امتلاك الإنسان لمبدأين اثنين حقيقيين: روح وجسد. ٢- الطاقة، التي تدعى الشر، مستقلة عن الجسد، والعقل، الذي يدعى الخير،

هو مستقل عن الروح. ٣- سيعذب الله الإنسان في الأبدية لأنه يتبع طاقاته.

لكن المضادات التالية لهذه صحيحة: ١- لا يمتلك الإنسان جسما متميزا عن الروح، لأن ما يدعى الجسد هو حصة من الروح تتميز بالحواس الخمس، المداخل الرئيسية للروح في هذا العصر. ٢- الطاقة هي الحياة الوحيدة، وهي من الجسم، والعقل هو الحد أو المحيط الخارجي للطاقة. ٣- الطاقة هي المتعة الأبدية".

بشر عنف تأكيدات بليك المضادة للمسيحية بتأكيدات رامبو ونيتشه. هاجم الربوبية العقلانية للفلاسفة بالعنف نفسه: كان فولتير وروسو ضحيتين لغضبه، وفي قصائده النبوية ظهر لوك ونيوتن كعملاء لأوريزن Urizen، طاقة الشر. أوريزن هو سيد العقل المنهجي، واضع الأخلاق التي تسجن البشر في قياساته المنطقية، يقسمهم ضد بعضهم، ويجعل كل شخص ضد نفسه. أوريزن: عقل بلا جسد ودون أجنحة، السجان الكبير. لم يشجب بليك خرافة الفلسفة وأصنام العقل وحسب، ولكن، في قرن الفورة الصناعية الأولى، وفي البلاد التي كانت مهد هذه الثورة، تنبأ بأخطار عبادة التقدم. كان المشهد الطبيعي لإنكلترة قد بدأ بالتغير، وكانت التلال والأودية تتغطى بأعشاب الصناعة: الحديد، الفحم، الغبار، والنفايات. إنه معاصرنا في جميع الأمور.

ثمة تناغم أكبر في تناقضات بليك وشذوذاته لم يوجد في أي من ناقديه. هاجم إليوت أساطيره قائلا إنها لا تهضم، وتوفيقية، ودين خاص مصنوع من شظايا الأساطير والمعتقدات الغريبة.

يستطيع المرء أن يتهم معظم الشعراء الحديثين بالشيء نفسه، من هولدرلين ونرفال إلى ييتس وريلكه: حين واجههم التحلل المطرد للأساطير المسيحية، توجب على الشعراء - دون أن نقصي شاعر *الأرض الخراب* - أن يبتكروا أساطير شخصية، كثيرا أو قليلا، مصنوعة من شظايا الفلسفات والأديان. ورغم تنوع الأنساق الشعرية هذا يمكن تمييز مذهب مشترك، ويمكن تمييزه، بالأحرى، في مركزه. وهذا المذهب هو الدين الحقيقي للشعر الحديث، من الرومانسية إلى السوريالية، وظهر عند جميع الشعراء، أحيانا ضمنيا وفي معظم الأحيان ظاهريا. أنا أتحدث عن التناظر Analogy. إن الإيمان بالتناظرات بين جميع الكائنات والعوالم يسبق المسيحية، ويعبر العصور الوسطى، ويمر في الأفلاطونية المحدثة، والإشراقية، والإيمان بالقوى الخفية، حتى يصل إلى القرن التاسع عشر. مذاك، سريا أو علنيا، لم يفشل أبدا في تغذية الشعراء الغربيين، من غوته إلى بلزاك، ومن بودلير ومالارميه إلى ييتس وبيسوا.

عمر التناظر أكثر من الوثنية وسيعمر، على الأرجح، أكثر من المسيحية والعلمية المعاصرة وامتلك وظيفتين ثنائيتين في تاريخ الشعر الحديث: كان المبدأ الذي جاء قبل جميع المبادئ، قبل عقل الفلسفات ووحي الأديان، وتزامن هذا المبدأ مع الشعر نفسه. فالشعر هو أحد تجليات التناظر. أما القوافي، والجناسات الاستهلالية، والاستعارات، والكنايات، فهي نماذج عملياتية في الفكر التناظري. القصيدة هي تعاقب دائري يدور دون توقف، دون أن تعود، بشكل كامل، إلى بدايتها. إذا حول التناظر الكون إلى قصيدة، إلى نص مصنوع من الأضداد التي تنحل في التواشجات، فهو أيضا يجعل القصيدة كونا. هكذا، نستطيع أن *نقرأ*

الكون، ونعيش القصيدة. في الحالة الأولى الشعر معرفة، في الثانية، فعل. وفي كليهما يتاخم الشعر الفلسفة والدين، ولكن لكي يناقضهما فحسب. تصوغ الصورة الشعرية واقعا ينافس رؤية الثوري والديني. الشعر هو التماسك/الآخر، لا يصنع من الأفكار وإنما من الإيقاعات. وثمة لحظة حيث يكسر التداعي، ثمة تنافر أصوات يدعى في القصيدة "المفارقة"، وفي الحياة "الفناء". إن الشعر الحديث هو وعي هذا التنافر داخل التناظر.

إن الأساطير الشعرية، وبينها أساطير الشعراء المسيحيين، تكتهل وتصبح غبارا كمثل الفلسفات والأديان، لكن الشعر يبقى، وهكذا نستطيع الاستمرار في قراءة كتب الفيدا والتوراة، لا كنصوص دينية وإنما كنصوص شعرية. هنا يحضر بليك مرة أخرى: "*الشاعر العبقري هو الإنسان الحقيقي... جميع طوائف الفلسفة هي وليدة العبقرية الشعرية... إن أديان جميع الأمم مشتقة من تلقي كل أمة المختلف للشاعر العبقري*". ورغم أن الأديان تنتمي إلى التاريخ وتهلك، إلا أنه تبقى في كل منها بذرة لادينية حية: الخيال الشعري. كان هيوم سيبتسم لفكرة غريبة كهذه. من نصدق؟ هيوم ونقده للدين أم بليك وإعلاءه من شأن الخيال؟ إن الشعر، بالنسبة لجميع المؤسسين - وردسورث، كوليردج، هولدرلين، جان بول، نوفاليس - هو عالم الزمن اللاتتابعي، زمن الجسد والرغبة. إنه كلمة بادئة، كلمة تأسيسية. لكنها أيضا كلمة تفكيكية، تمثل التحرر من التناظر من خلال المفارقة والألم، عبر إدراك التاريخ الذي هو فيهما معرفة للموت.

التناظر والمفارقة

كانت الرومانسية، بالإضافة إلى كونها حركة أدبية، مذهبا أخلاقيا جديدا، إيروتيكية جديدة، وسياسة جديدة. ربما لم تكن دينا، لكنها كانت أكثر من فن جمالي وفلسفة: كانت طريقة في التفكير، والشعور، والحب، والقتال، والسفر - طريقة في الحياة وطريقة في الموت. قال فريدريك شليغل في أحد نصوصه التصويرية: لم تقترح الرومانسية حل ومزج الأنواع الأدبية وأفكار الجمال وحسب، وإنما نشدت، في الوقت نفسه، صهر الحياة والشعر بوساطة الأفعال المتناقضة والمتقاربة للخيال والمفارقة. والأكثر من ذلك، هدفت إلى جعل الشعر اجتماعيا.

انتشر الفكر الرومانسي في اتجاهين انتهيا إلى الاندماج: البحث عن ذلك المبدأ السابق الذي جعل الشعر أساس اللغة، وبالتالي، أساس المجتمع، واتحاد هذا المبدأ مع الحياة والمجتمع. وإذا كان الشعر لغة الإنسان الأولى - أو إذا كانت اللغة، بشكل جوهري، عملية شعرية تتألف من رؤية العالم كنسيج من الرموز والعلاقات بين هذه الرموز - عندئذ كل مجتمع يبنى على قصيدة. وإذا كانت ثورة العصر الحديث هي حركة المجتمع نحو أصوله، إلى الميثاق البدئي للمساواة، عندئذ تصبح هذه الثورة متحدة مع الشعر. قال بليك: "جميع البشر متساوون في العبقرية الشعرية".

زعم الشعر الرومانسي أيضا أنه فعل: ليست القصيدة شيئا كلاميا وحسب، وإنما مهنة إيمان وفعل. حتى مذهب "الفن للفن" الذي يبدو أنه

ينكر هذا الموقف، يؤكده ويطيله، لأنه كان أخلاقيا كما كان جماليا، وغالبا ما تضمن موقفا دينيا أو سياسيا.

ولدت الرومانسية في إنكلترا وألمانيا بشكل متزامن تقريبا، وانتشرت في أوروبا كمرض روحي. ولم يأت تفوق الرومانسية الإنكليزية والألمانية من السبق الزمني وحسب، وإنما من مزج البصيرة النقدية والأصالة الشعرية. وتداخل، في كل من اللغتين، الإبداع الشعري مع التأملات النقدية في طبيعة الشعر، التي تميزت بتوتر، وأصالة، واختراق لا نظير له في آداب أوروبية أخرى. وكانت النصوص النقدية للرومانسيين الإنكليز والألمان بيانات شعرية حقيقية أسست تراثا استمر إلى يومنا هذا. وكان الجمع بين النظرية والتطبيق، الشعر والنظرية الشعرية، تجليا آخر للطموح الرومانسي لتوحيد الأطراف: الحياة والفن، العالم القديم اللازمني والتاريخ المعاصر، الخيال والمفارقة. وحاول الرومانسيون، بوساطة الحوار بين النثر والشعر، إعادة إحياء الشعر من خلال غمسه في الكلام اليومي وحاولوا جعل النثر مثاليا من خلال تبديد منطق الخطاب في منطق الصورة. ونتيجة لهذا التأويل، شهدنا، في القرنين التاسع عشر والعشرين، بزوغ قصيدة النثر والتجديد الدوري للغة الشعرية بحقنات قوية متزايدة من الكلام الشعبي. لكن في ١٨٠٠، كما في ١٩٢٠، ما كان جديدا لم يكن يعني أن الشعراء يتأملون الشعر بالنثر، بل أن هذا التأمل، طاف عن حدود الشعرية القديمة، معلنا أن الشعر الجديد كان أيضا طريقة جديدة في الشعور والحياة.

إن توحد الشعر والنثر شيء ثابت عند الرومانسيين الإنكليز والألمان، رغم أنه غير مرئي لدى جميع الشعراء، بالتوتر نفسه، وبالطريقة نفسها. وكان الشعر والنثر، في كتابات كوليردج ونوفاليس، مستقلين بوضوح على

الرغم من اتصالهما. لدينا قصيدة *قبلاي خان* وقصيدة *البحار القديم*، والنصوص النقدية في **Biographia Litraria**، أو *ابتهالات إلى الليل*، وهي نصوص متعارضة مع النثر الفلسفي في *شظايا* **Fragments**. أما عند شعراء آخرين، فقد اختلط الإلهام والتأمل في النثر والشعر بشكل مساو. ولم يكن هولدرلين و ووردسورث، لحسن حظهما، شاعرين فلسفيين، ولكن الفكر، عند كليهما، مال إلى التحول إلى صورة قابلة للإدراك. أما عند شاعر مثل بليك، لم تنفصل الصورة الشعرية عن التفكير التأملي، ولا يمكن تمييز الفاصل بين النثر والشعر.

ومهما كانت تلك الفروقات - وهي عميقة - التي تفصل بين أولئك الشعراء، تصور جميعهم الشعر كتجربة حية تتضمن كلية الكائن البشري. فالقصيدة ليست حقيقة لغوية وحسب، إنها أيضا فعل. الشاعر يتحدث، وبينما يتحدث، يصنع. وهذه الصناعة، صناعة لنفسه، قبل أي شيء آخر: ليس الشعر معرفة للذات وحسب وإنما خلق لها كذلك. يعيد القارئ تجربة الشاعر في عملية خلق الذات، ويصبح الشعر متجسدا في التاريخ. ويعيش، خلف هذه الفكرة، الإيمان القديم بقوة الكلمات: ومن المقدر على الشعر، الذي يفكر به، ويعاش كعملية سحرية، تحويل الواقع. إن التناظر بين السحر والشعر، الموضوع المتكرر طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، يعود بأصوله إلى الرومانسيين الألمان. ويتضمن مفهوم الشعر كسحر جمالية فعل.

توقف الفن عن كونه تمثيلا وتأملا وحسب، وأصبح تدخلا في الواقع في الوقت نفسه. وإذا كان الفن يعكس العالم، فإذن المرآة سحرية، وهي تغير العالم.

أصر علم الجمال الباروكي والكلاسيكي المحدث على فصل صارم بين الفن والحياة. ورغم أن أفكارهما عن الجمال كانت مختلفة جدا، شدد كلاهما على الطبيعة المثالية للعمل الفني. حين شددت الرومانسية على أولية الإلهام، والهيام، والحساسية، محت الحدود بين الفن والحياة. ولقد كانت القصيدة، بالنسبة لكالديرون، تجربة حيوية، واكتسبت الحياة توتر الشعر. إن الحياة وهم وخداع لأنها تمتلك استمرارية وثبات الأحلام، ذلك أن ما يعالج الحياة من رعب رتابتها، بالنسبة إلى الرومانسيين، هو الحلم. ورأى الرومانسيون في الحلم "حياة ثانية"، طريقة لاستعادة الحياة الحقيقية، حياة الزمن الأصلي. إن الشعر هو إعادة غزو البراءة. كيف يمكن أن نفشل في رؤية الجذور الدينية لهذا الموقف وعلاقته الحميمة مع التراث البروتستانتي؟ تأصلت الرومانسية في إنكلترا وألمانيا ليس لأنها أحدثت قطيعة مع الجمالية الإغريقية-الرومانية وحسب، وإنما بسبب اتصالها الروحي مع البروتستانتية في الوقت نفسه. وقدمت الطبيعة الداخلية للتجربة الدينية، التي شددت عليها البروتستانتية، كما هي متعارضة مع طقوسية روما، قدمت التنبؤات النفسية والأخلاقية للثورة الرومانسية. كانت الرومانسية، قبل كل شيء، إدارة للرؤية الشعرية نحو الداخل. أما البروتستانتية فقد جعلت الوعي الفردي لكل مؤمن مسرحا للغز الديني، فيما مزقت الرومانسية الجمالية اللاشخصانية للتراث الإغريقي-الروماني، وسمحت لأنا الشاعر أن تصبح الواقع الرئيسي.

أن نقول إن الجذور الروحية للرومانسية تكمن في التراث البروتستانتي يمكن أن يبدو جريئا أكثر مما ينبغي، خاصة إذا تذكرنا ارتداد كثير من الرومانسيين الألمان إلى الكاثوليكية. لكن المعنى الحقيقي لهذه الارتدادات

يتوضح إذا سلم المرء أن الرومانسية كانت رد فعل على عقلانية القرن الثامن عشر. كانت كاثوليكية الرومانسيين الألمان مضادة للعقلانية، ولم تكن أقل غموضا من إعجابهم بكالديرون. وكانت قراءتهم للمسرحي الإسباني مهنة إيمان أكثر مما هي قراءة حقيقية، ولقد رأى أوغست شلغيل August Schlegel فيه نفيا لراسين، لكنه لم يدرك أن مسرحيات كالديرون تحتوي على نظام عقلاني ليس أقل صرامة من صرامة الشاعر الفرنسي، وربما كان أكثر صرامة على الأرجح. إن موضوع راسين جمالي وسيكولوجي: الأهواء البشرية، أما موضوع كالديرون لاهوتي: الخطيئة الأصلية والحرية البشرية. خلط التأويل الرومانسي لكالديرون الشعر الباروكي والسكولاستية الكاثوليكية المحدثة مع الاتجاه المضاد للكلاسيكية والعقلانية.

إن الحدود الأدبية للرومانسية هي مثل الحدود الدينية للبروتستانتية. ولقد كانت تلك الحدود لغوية بشكل رئيسي. ولدت الرومانسية ووصلت إلى نضجها في بلدان لا تعود لغاتها بأصولها إلى روما. وأخيرا هدم التراث اللاتيني، الذي كان مركزيا في الثقافة الغربية، حتى ذلك الوقت، وظهرت تراثات أخرى: الشعر الشعبي والتقليدي في ألمانيا وإنكلترا، الفن القوطي، أساطير سلتية وجرمانية. وأدى رفض صورة اليونان، التي قدمها التراث اللاتيني، إلى اكتشاف (أو ابتكار) يونان أخرى - يونان هيردر وهولدرلين، التي أصبحت يونان نيتشه ويوناننا. إن دليل دانتي في الجحيم هو فيرجيل، ودليل فاوست هو ميفيستوفيليس. ويقول بليك مشيرا إلى هوميروس وفيرجيل: *الكلاسيكيون! إنهم الكلاسيكيون، لا القوطيون أو الكهنة، هم من يدمر أوروبا بالحروب*". ويضيف: "*اليوناني شكل حسابي أما القوطي فشكل حي*".

وعلق على روما قائلا: *"إن دولة عسكرية لا يمكن أن تنتج الفن مطلقا"*. وتعرف العالم الغربي على نفسه، منذ الرومانسيين فصاعدا، كتراث يختلف عن تراث روما، ولم يكن ذلك التراث مفردا وإنما متعدد.

تكشف التأثير الألسني في مستويات عميقة. لم يغير الشعر الرومانسي الأساليب وحسب، وإنما غير المعتقدات أيضا، وهذا ما ميزه جذريا عن الحركات الأخرى في الماضي. ولم يرفض الفن الباروكي والفن الكلاسيكي المحدث نسق المعتقدات الغربي. ولكي نجد مثيلا للثورة الرومانسية ينبغي أن نعود إلى عصر النهضة، وقبل كل شيء، إلى الشعر البروفانسي. وهذه المقارنة الأخيرة مضيئة بشكل خاص، لأن هناك علاقة في الشعر البروفانسي، كما في الشعر الرومانسي، لا تنكر، ولا تزال غير مفهومة بشكل كامل، بين الثورة العروضية، الحساسية الجديدة، والموقع المحوري الذي شغلته النساء في كلتا الحركتين. وتجلت الثورة العروضية في الرومانسية في بعث الإيقاعات الشعرية لألمانيا وإنكلترا. وثمة علاقة متبادلة بين بعث الإيقاعات والأشكال وعودة ظهور التناظر. ولقد ألهم التناظر الرؤية الرومانسية للعالم والإنسان. وهو تناظر مندمج مع علم نظم الشعر: كانت رؤية شعر بها أكثر مما فكر بها، وسمعت أكثر مما شعر بها. والتناظر يتصور العالم كإيقاع: كل شيء يتواشج لأن كل شيء يتلاءم مع بعضه ويتناغم. وهذا ليس تركيبا كونيا وحسب وإنما علم نظم كوني كذلك. وإذا كان العالم كتابة، نصا، أو شبكة من العلامات، فإن دوران هذه العلامات محكوم بإيقاع. ذلك أن التواشج والتناظر ليسا إلا اسما للإيقاع الكوني.

وعلى الرغم من أن الرؤية التناظرية ألهمت دانتي وكذلك الأفلاطونيين الجدد في عصر النهضة، فإن عودة ظهورها في العصر

الرومانسي تصادفت مع رفض النماذج الأصلية للكلاسيكية المحدثة واكتشاف التراثات الشعرية القومية. فمن خلال الكشف عن إيقاعاتهم الشعرية التقليدية، أحيا الرومانسيون الإنكليز والألمان الرؤية التناظرية للعالم والإنسان. من المستحيل أن نبرهن على علاقة سبب ونتيجة بين نظم الشعر القائم على النبر Accentual Versification والرؤية التناظرية Analogical vision، ومن المستحيل أيضا ألا نرى أن هناك علاقة تاريخية بينهما. ولا ينفصل ظهور الأول، في الفترة الرومانسية، عن الثانية. ولقد حفظت الطوائف المؤمنة بالقوى الخفية، والهرمسية، والخليعة الرؤية التناظرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وحين ترجم الشعراء الإنكليز والألمان فكرة "العالم كإيقاع"، ترجموها حرفيا، وحولوها إلى إيقاع كلامي، إلى قصائد. لقد فكر الفلاسفة بالعالم كإيقاع، أما الشعراء فقد سمعوا الإيقاع. لم تكن لغة الكواكب - رغم أنهم اعتقدوا ذلك - وإنما لغة البشر.

كان تطور الأشكال الشعرية في اللغات الرومانسية دليلا غير مباشر على التواصل بين النظم الشعري القائم على النبر والرؤية التناظرية. وكانت العلاقة بين الأنساق الشعرية للغات الرومانسية والجرمانية علاقة تناسق مقلوب. وكان التوكيد على النبرات ثانويا في البحر المقطعي في الأولى، بينما كان عدد المقاطع ثانويا بالنسبة للتوزيع الإيقاعي للنبرات. إن النظم القائم على النبر أقرب إلى الأغنية منه إلى الخطاب، ولم يكمن خطر الشعر الإنكليزي والألماني في الجفاف الفكري وإنما في التشوش الغنائي. والصفة المميزة لفن النظم الرومانسي - اللغات الرومانسية - هي تماما النقيض. إذ كان الميل إلى الانتظام، المهيمن منذ عصر النهضة، والمحصن بتأثير الكلاسيكية المحدثة، صفة مستمرة في أنساق النظم الشعري حتى الفترة

الرومانسية. وتحول النظم الشعري المقطعي بسهولة إلى قياس تجريدي، وتحول، كما أظهر مثال الشعر الفرنسي في القرن الثامن عشر، إلى خطاب وتفكير في الشعر. إن النثر يستهلك الشعر - ولا أعني هنا النثر الحي، العامي الذي هو أحد مصادر الشعر، وإنما النثر الخطابي والفكري: أي البلاغة بدلا من الأغنية. ومع بداية القرن التاسع عشر، فقدت اللغات اللاتينية قوة السحر ولم تعد قادرة على أن تكون أدوات للفكر، مضادة للاستطراد، وجوهريا، إيقاعية كالتناظر.

وإذا كان بعث التناظر قد تصادف، في ألمانيا، وفي إنكلترة، مع عودة إلى الأشكال الشعرية التقليدية، فقد تزامن في البلدان اللاتينية مع الثورة ضد النظم الشعري المقطعي المتواتر regular syllabic versification. وفي اللغة الفرنسية كانت هذه الثورة أكثر عنفا وكلية منها في اللغة الإيطالية أو الإسبانية لأن النظم الشعري المقطعي هيمن على الشعر الفرنسي أكثر مما هيمن في لغات رومانسية أخرى. ومن المهم أن نشير إلى أن المبشرين العظيمين للحركة الرومانسية في فرنسا كانا ناثرين: روسو وشاتوبريان، ذلك أن الرؤية التناظرية تكشفت، بشكل أكثر جاهزية، في النثر الفرنسي، أكثر مما تكشفت في البحور التجريدية للشعر. وليس أقل أهمية أن نجد بين الأعمال المركزية للرومانسية الفرنسية الحقيقية أوريليا **Aurelia**، رواية نرفال، وحفنة من القصص التي كتبها تشارلز نودييه Charles Nodier. أخيرا، نجد بين الإبداعات العظيمة للشعر الفرنسي في القرن الأخير، قصيدة النثر، الشكل الذي حقق الرغبة الرومانسية في مزج الشعر والنثر. ولا يمكن أن يتطور شكل كهذا إلا في لغة يقيد فيها غياب العلامات النطقية المنبورة المصادر الإيقاعية للشعر الحر.

بالنسبة للنظم: فكك هوغو البحر الاسكندري السداسي التفاعيل وأعاد صناعته، وأدخل بودلير التأمل، والشك، والمفارقة - الوقف Caesura الذهني الذي، بدلا من أن يكسر البحر المتواتر، ينتج شذوذا ذهنيا، واستثناء. ولقد جرب رامبو في الشعر الشعبي، والأغنية والشعر الحر. وانتهى التجديد الشعري إلى طرفين متناقضين: الإيقاعات المحطمة الحية للافورغ وكوربيير Corbiere ومجموعة العلامات الموسيقية *لرمية نرد* Un coup de des. ترك لافورغ وكوربيير تأثيرا عميقا في شعراء الأميركيتين كمثل لوغونيز Lugones، وباوند وإليوت ولوبيث بيلاردي Lopez Velarde. ومع مالارميه ولد شكل لا ينتمي إلى القرن التاسع عشر وإلى النصف الأول من القرن العشرين، وإنما إلى الحاضر. كان لهذا السرد العشوائي هدف واحد فحسب: أن يظهر أن الحركة العامة للشعر الفرنسي في أثناء القرن الأخير يمكن النظر إليها كثورة ضد نظم الشعر التقليدي المقطعي. ولقد تزامنت الثورة مع البحث عن المبدأ الذي يحكم الكون والقصيدة: التناظر.

أشرت سابقا إلى "الرومانسية الفرنسية الحقيقية". وفي الحقيقة هناك اثنتان: واحدة منهما الرومانسية الرسمية للكتب المدرسية وتواريخ الأدب - الفصيحة، والوجدانية، والاستطرادية - التي يمثلها دي موسيه ولامارتين، والأخرى، التي هي الحقيقية بالنسبة إلي، والتي صنعها عدد قليل من الأعمال الأدبية والمؤلفين: نرفال، ونودييه، وهوغو في فترته الأخيرة، وما يدعى بـ "الرومانسيين الثانويين". وفي الحقيقة إن الورثة الفرنسيين الحقيقيين للرومانسية الألمانية والإنكليزية هم الشعراء الذي أتوا بعد الرومانسيين الرسميين، من غوتييه Gautier وبودلير إلى الرمزيين. منحنا

أولئك الشعراء نسخة مختلفة من الرومانسية، مختلفة، ومع ذلك هي نفسها، لأن تاريخ الشعر الحديث هو تأكيد مدهش لمبدأ التناظر: إن كل عمل هو نفي، وبعث، وتحويل للأعمال الأخرى. بهذه الطريقة لا ينفصل الشعر الفرنسي في النصف الثاني من القرن الماضي - إذا سميناه رمزيا سنبتره - عن الرومانسية الألمانية والإنكليزية: إنه امتداد لها، لكنه استعارتها كذلك. إنه ترجمة تلتفت فيها الرومانسية إلى نفسها، تتأمل ذاتها وتلغيها، تطرح الأسئلة على ذاتها وتتجاوزها. هذه هي الرومانسية الأوروبية *الأخرى*.

انفتحت مروحة التواشجات التناظرية وانغلقت عند جميع شعراء فرنسا العظام في تلك الفترة، وبالطريقة ذاتها، إن تاريخ الشعر الفرنسي من أوهام Les Chimeres إلى رمية نرد Un coup de des يمكن أن يرى كتناظر شاسع. كل شاعر هو مقطع شعري في قصيدة القصائد تلك التي هي الشعر الفرنسي، وكل قصيدة هي نسخة، استعارة لهذا النص التعددي. وإذا كانت القصيدة نسقا من التكافؤات، كما قال رومان جاكوبسون -القوافي والجناسات الاستهلالية التي هي أصداء، الإيقاعات التي تلعب بالتأملات، هوية الاستعارات والمقارنات - عندئذ يصبح الشعر الفرنسي ككل نسقا من أنساق التكافؤات، تناظر التناظرات. وبدوره، هذا النسق التناظري هو تناظر للرومانسية الأصلية للألمان والإنكليز. وكي نفهم وحدة الشعر الأوروبي دون أن ننتهك تعدديته يجب أن نتصوره كنسق تناظري. كل عمل واقع فريد وفي الوقت نفسه ترجمة للأعمال الأخرى - استعارتها.

لقد أحس الشعراء الفرنسيون بالتأثير العميق لعابدي القوى الخفية، والغنوسطيين، والقبلانيين، والسيميائيين، والشخصيات الأخرى

الهامشية. وكانوا يشربون من النبع نفسه أحيانا مثل الرومانسيين الألمان (كان جاكوب بوم Jakob Bohme ، على سبيل المثال، معروفا في فرنسا من خلال لويس كلود دي سان مارتن.)

من ناحية أخرى، أصبح تراث عبادة القوى السحرية مرتبطا باتجاهات معينة من التفكير الخليع والثوري. ولقد أنجز شارل فورييه Charles Fourier ، لوحده، التحول من الصوفية الإيروتيكية لريستيف دو لا بريتون Restif de la Bretonne إلى مفهوم مجتمع تحركه شمس الجاذبية العاطفية. وكانت شخصية فورييه محورية في تاريخ الشعر الفرنسي كما هي محورية في تاريخ الحركة الثورية. لم يكن أقل معاصرة من ماركس - وأشك بأنه سيصبح أكثر من هذا. لقد اعتقد فورييه، مثل ماركس، أن المجتمع محكوم بالقوة، والإكراه، والأكاذيب، وعلى عكس ماركس، اعتقد أن ما يوحد بين البشر هو التجاذب العاطفي: الرغبة. أن نغير المجتمع هذا يعني أن نحرره من جميع العوائق التي تكبح اشتغال قوانين الجاذبية العاطفية: "إن العلم الأول الذي اكتشفته هو نظرية الجاذبية العاطفية... عرفت حالا أن قوانين الجاذبية العاطفية تتواشج بشكل كامل مع تلك التي تحكم جاذبية المادة كما شرحها نيوتن وليبنتز، وأن هناك *وحدة في نسق حركة العالمين المادي والروحي*. وخامرني شعور بأن هذا التناظر يمكن أن يمتد من القوانين العامة إلى الخاصة، ومن المحتمل أن جاذبية ومواصفات الحيوانات، والنباتات، والمعادن، ربطت في الخطة نفسها كمواصفات البشرية والنجوم... وبهذه الطريقة اكتشفت تناظر حركاتنا: المادية، والعضوية، والحيوانية، والاجتماعية... وحالما أدركت نظريات جاذبية ووحدة هذه الحركات الأربع، بدأت أقرأ خط الطبيعة اليدوي".

لقد تجاهل النقد الرسمي تأثير فورييه أو قلل من شأنه. الآن، وقبل كل شيء، بفضل أندريه بريتون، الذي كان أول من حدد فورييه كأحد المراكز المغناطيسية لزمننا، عرفنا أن هناك لحظة التقى فيها الفكر الثوري والفكر الشعري في نقطة واحدة: فكرة الجاذبية العاطفية. كان فورييه مؤلفا سريا مثل ساد، رغم أن ذلك لأسباب مختلفة. وحين نتحدث عن بلزاك "الرؤيوي" – مؤلف Louis Lambert, Seraphita, La peau de chagrin, Melmoth reconcilie - نفكر بشكل رئيسي بتأثير سويدنبورغ، وننسى فورييه بشكل كامل. ولقد ارتكبت فلورا تريستان Flora Tristan الرائدة العظيمة للاشتراكية وتحرر المرأة، الظلم نفسه: "كان فورييه تابعا لسويدنبورغ، بكشفه لمذهب التماثلات، وأعلن المتصوف السويدي كونية العلم وأوحى لفورييه بنسق تناظراته الجميل. لقد تصور سويدنبورغ الفردوس والجحيم كنظامين تحركهما الجاذبية والنفور، ورغب فورييه أن يحقق على الأرض حلم سويدنبورغ السماوي فحول المضيفين الملائكة إلى مستعمرات تعاونية". قال ستاندال: " ربما في غضون عشرين عاما سيتم التعرف على عبقرية فورييه". كان عام ١٩٧٣ هو الذكرى المئوية لولادته، ولا نزال نجهل أعماله. وقبل وقت قصير نشر سيمون ديبو Simone Debout مخطوطة كان قد خبأها مريدون مفرطو الاحتشام وهي بعنوان *العالم الجديد للحب* Le nouveau monde amoureux. في هذا العمل أظهر فورييه نفسه مضادا لساد ولفرويد، رغم أن معرفته بالأهواء البشرية لم تكن أقل عمقا من معرفتهما. لقد أكد فورييه، ضد تيار عصره وعصرنا، وضد تراث عمره ألفا عام، أن الرغبة ليست بالضرورة مهلكة، كما رأى ساد، وأن المجتمع ليس قمعيا بطبيعته، كما اعتقد فرويد. ومن المثير للفضيحة في الغرب أن تقول إن المتعة

جيدة، وفورييه هو في الحقيقة مؤلف فضائحي، بينما ساد وفرويد يؤكدان بطريقة أخرى - سلبيا - الرؤية التشاؤمية للمسيحية.

جعل بودلير التناظر مركز شعريته، وهو مركز في تذبذب مستمر، تهزه المفارقة، ووعي الموت، وفكرة الخطيئة - باختصار، المسيحية. وعلى الأرجح، دفعه هذا التناقض (وربما شكه السياسي أيضا) إلى الهجوم على فورييه بقسوة. لكن هذه القسوة تنطوي على هيام، وهي وجه آخر للإعجاب: " في أحد الأيام جاء فورييه ليرينا، بكثير من الوقار، ألغاز التناظر. أنا لا أنكر قيمة بعض اكتشافاته القليلة، رغم أنني أعتقد أن ذهنه كان مشغولا جدا الأمر الذي منعه من أن يصل إلى دقة في التفاصيل بحيث يمكن أن يفهم، بصدق وبشكل كامل، النسق الذي رسمه... فضلا عن ذلك، كان بوسعه أن يمنحنا كشفا ثمينا مساويا لو قدم لنا قراءات شعراء كثيرين ممتازين بدلا من تأمل الطبيعة". ولقد وبخ بودلير فورييه لأنه لم يكتب نسقا من النظريات الشعرية، أي لأنه لم يكن بودلير، لأنه لم يصنع شعرية من التناظر. رأى فورييه أن نظام الكون - التناظر - هو نموذج الخلق الشعري. كان لا يمكن تجنب ذكر سويدنبورغ: "لقد أظهر لنا سويدنبورغ، الذي كان يمتلك روحا أكثر عظمة، أن السماء كائن بشري عملاق، وأن كل شيء - الشكل، اللون، الحركة، العدد، العطر - في الحقل الروحي كما في الحقل المادي - له معنى تبادلي وتواصلي". يظهر هذا النص الذي يثير الإعجاب الطبيعة الإبداعية للنقد الحقيقي: يبدأ بمحفز وينتهي برؤية تناظر كوني. على أي حال، يجب أن نذكر أن نوفاليس قال سابقا: " إن الذي يلمس جسد امرأة يلمس السماء"، وكتب فورييه: "إن الأهواء البشرية رياضيات حية".

ظهرت فكرتان في مفهوم بودلير. ورغم أن الأولى قديمة جدا، فهي فيه هاجس وتتألف من رؤية الكون كلغة، ككتابة. لكنها لغة في حركة وتغير لا ينتهيان: كل جملة تنتج جملة أخرى، كل جملة تقول شيئا مختلفا بشكل دائم وأيضا تقول الشيء نفسه. في مقالته عن فاغنر عاد بودلير إلى هذه الفكرة: "ليس مفاجئا أن الموسيقى الحقيقية توحي بأفكار متشابهة في أذهان مختلفة، سيكون مفاجئا إذا لم توح الأصوات بالألوان، وإذا لم تستطع الأصوات أن تستدعي فكرة الأنغام، وإذا لم تستطع الأصوات والألوان أن تترجم الأفكار. لقد عبرت الأشياء عن نفسها دائما من خلال تشابهات تبادلية، منذ اليوم الذي نطق فيه الله العالم ككلية لا تتجزأ ومعقدة". (لا يكتب بودلير أن "الله خلق العالم"، وإنما "نطقه" - قاله.) ليس العالم مجموعة من الأشياء وإنما من العلامات، أو بالأحرى، ما نسميه أشياء هو في الحقيقة كلمات. الجبل كلمة، النهر كلمة أخرى، المشهد الطبيعي جملة. وجميع هذه الجمل هي في تغير مستمر: يعني التواشج الكوني التحول الدائم. النص الذي هو العالم ليس واحدا بل كثير: كل صفحة هي ترجمة لصفحة أخرى وتحول لها والتي ترتبط هي نفسها بعلاقة مع الأخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية. العالم هو استعارة استعارة. يفقد العالم حقيقته ويصبح أداة تشبيه. وفي قلب التناظر يكمن الفراغ: يتضمن تعدد النصوص أنه ليس هناك نص أصلي. ستندفع، داخل هذا الفراغ، حقيقة العالم ومعنى اللغة، سوية، وبطيش، ويختفيان. لكن مالارميه، وليس بودلير، هو الذي سيتجرأ ويحدق في هذا الفراغ ويحول هذا التأمل إلى جوهر للشعر.

ولم تكن الفكرة الأخرى التي استحوذت على بودلير أقل بعثا للدوار: إذا كان الكون شفرة، لغة مشفرة، "هل الشاعر، بالمعنى الأوسع، إلا مترجم أو مفكك للشفرة؟" كل قصيدة هي قراءة للواقع، وهذه القراءة هي ترجمة، وهذه الترجمة كتابة، شفرة جديدة للواقع الذي تم اكتشافه. إن القصيدة هي صنو الكون: كتابة سرية، فضاء مغطى بالحروف الهيروغليفية. أن تكتب قصيدة هو أن تفك شفرة الكون كي تخلق شفرة جديدة. إن لعب التناظر لانهائي. يكرر القارئ فعل الشاعر: أن تقرأ قصيدة هو أن تترجمها، وتحولها، بشكل حتمي، إلى قصيدة أخرى. تتألف شعرية التناظر، بشكل مطلق، من تصور الإبداع الأدبي كترجمة، وهذه الترجمة متعددة، وتواجهنا بمفارقة: تعدد المؤلفين. إن المؤلف الحقيقي لقصيدة ليس الشاعر أو القارئ، وإنما اللغة. لا أعني أن اللغة تمحو واقعية الشاعر والقارئ، إنما تتضمنهما وتغمرهما. الشاعر والقارئ لحظتان وجوديتان - إذا كان بوسع المرء أن يعبر بهذه الطريقة - للغة. وإذا كان صحيحا أنهما يستخدمان اللغة كي يتحدثا، من الصحيح أيضا أن اللغة تتحدث من خلالهما. إن فكرة العالم كنص متحرك تنتهي، كما قلت من قبل، في تعدد النصوص، وتقود فكرة الشاعر كمترجم أو مفكك للشفرة إلى اختفاء المؤلف. ولم يكن بودلير هو الذي ابتكر طريقة شعرية خارج هذه المفارقة وإنما كان شعراء القرن العشرين هم من فعل ذلك.

إن التناظر هو علم التماثلات، وهو، على أي حال، علم يوجد بفضل الاختلافات فحسب. بالضبط لأن هذا ليس ذاك، من الممكن نصب جسر بين هذا وذاك. الجسر هو كلمة مثل، أوكلمة Is : هذا مثل ذاك، هذا ذاك. لا يلغي الجسر المسافة: إنه وسيط، ولا يلغي الفروقات أيضا: إنه

يؤسس علاقة بين مصطلحات مختلفة. التناظر هو الاستعارة التي تحلم فيها الآخرية بنفسها كوحدة، والاختلاف يبرز نفسه بشكل خادع كهوية. بوساطة التناظر يصبح المشهد التعددي المشوش منظما وجليا. التناظر هو العملية التي نقبل بوساطتها -بفضل لعب التشابهات- الاختلافات. فالتناظر لا يلغي الاختلافات: إنه يخلصها، ويجعل وجودها محتملا. إن كل شاعر وكل قارئ وعي منعزل: التناظر مرآة ينعكسان عليها. وهكذا، لا يتضمن التناظر وحدة العالم، وإنما تعدده، لا تشابه أي إنسان، وإنما انشقاقه المستمر عن نفسه. يقول التناظر إن كل شيء هو استعارة شيء آخر، لكن في حقل الهوية، ليس هناك استعارات. الاختلافات تمحى في الوحدة، والغيرية تختفي. تتلاشى كلمة "مثل": الوجود متماثل مع نفسه. ولا تظهر شعرية التناظر إلا في مجتمع يستند إلى النقد ويؤكل من قبله أيضا. وبالنسبة للعالم الحديث ذي الزمن الخطي المستقيم والانقسامات التي لا تنتهي، ولزمن التغير والتاريخ، لا يعارض التناظر وحدة مستحيلة وإنما وساطة الاستعارة. إن التناظر هو طريقة الشعر في مواجهة الغيرية.

ويظهر الطرفان اللذان يمزقان وعي الشاعر الحديث عند بودلير بالسهولة نفسها - بالوحشية نفسها. قال لنا مرة بعد أخرى إن الشعر الحديث جمال عجيب: فريد، مفرد، شاذ، جديد. إنه ليس انتظاما كلاسيكيا وإنما أصالة رومانسية: إنه لا يكرر وليس أبديا - إنه فان. ينتمي إلى الزمن المستقيم: إنه جدة كل يوم. الشقاء اسمه الآخر، وعي التناهي.

إن الغروتسكي، والغريب، والعجيب، والأصيل، والمفرد، والفريد - جميع هذه الأسماء من علم الجمال الرومانسي والرمزي ليست إلا طرقا مختلفة لقول الكلمة نفسها: الموت. في عالم اختفت فيه الهوية - الأبدية

المسيحية – أصبح الموت الاستثناء العظيم الذي يمتص جميع الاستثناءات ويمحو القوانين والقواعد. إن علاج الاستثناء الكوني مضاعف: المفارقة، علم جمال الغريب، العجيب والفريد، التناظر، علم جمال التماثلات. لا يمكن مصالحة المفارقة والتناظر. الأولى ابنة الزمن الخطي، المتتابع، وغير القابل للتكرار، الثاني هو تجلي الزمن الدوري: المستقبل هو في الماضي وكلاهما في الحاضر. يحول التناظر المفارقة إلى تنوع آخر لمروحة التشابهات، لكن المفارقة تشق المروحة إلى اثنتين. المفارقة هي الجرح الذي ينزف التناظر من خلاله حتى الموت، إنها الاستثناء، الحادث المهلك (بالمعنى المزدوج للكلمة: ضروري ومهلك). تظهر المفارقة أنه إذا كان العالم كتابة، فإن كل ترجمة لهذه الكتابة مختلفة، وأن حفلة التماثلات هي كلام بابل المبلبل. تنتهي الكلمة الشعرية إلى العواء أو الصمت: ليست المفارقة كلمة، أو كلاما، وإنما عكس الكلمة، اللاتواصل. تقول المفارقة إن الكون ليس كتابة، ولو كان، لكانت علاماته غير مفهومة للإنسان، لأن كلمة موت لا تظهر فيه، والإنسان فان.

في سونيتة تقتبس في معظم الأحيان، وهي بعنوان تماثلات، يقول بودلير:

الطبيعة معبد من الأعمدة الحية
حيث غالبا ما تنزغ الكلمات، مشوشة وباهتة،
ويتوغل الإنسان في هذه الغابة، تراقبه دائما أعين مألوفة
من الرموز.

إن الكلمات التـي تتفوه بـها هـذه الأعمـدة – الأشـجار مشوشـة : يمـر الإنسـان عـبر هـذه الغابـات الكلاميـة والتركيبيـة دون أن يفـهم لغــة الأشـياء بشكل كامل. لقد أضعنا سر اللغة الكونية التي هي مفتاح التناظر.

قال فورييـه، ببراءة، أنـه قـرأ فـي "الكتـاب السـحري" للطبيعـة، لكـن بودلير اعترف أنه لـم يفـهم كتابـة هـذا الكتـاب إلا بشـكل مشـوش. إن الاستعارة التي تتألف من رؤية الكون ككتاب هي قديمة جدا وتظهر أيضا فـي النشـيد الأخير مـن *فـردوس* دانتـي . يحـدق الشـاعر إلـى لغـز الثـالوث، أي مفارقة الآخرية، التي هي وحدة وغيرية في آن:

رأيت في تلك الهاوية كيف يقيد الحب،
في مجلد واحد، جميع الأوراق التي تتبعثر
هاربة عبر الكون،
كيف يتوحد الجوهر، والعرض، والطريقة
وتنصهر، معا، في ضوء واحد بسيط وحكيـم، هـذا الـذي أقـول عنـه هكذا؟

إن تعـدد العوالـم – الريـاح الهابـة هنـا وهنـاك – يسـتقر فـي الكتــاب المقدس، وفي النهاية ينضم الجوهر والعرض. وكل شيء هو انعكاس لتلـك الوحدة، دون أن نستثني كلمات الشاعر الذي يسميها. في الترييبت التاليـة، يقدم اتحاد الجوهر والعرض كعقدة، وهذه العقدة هي الشـكل الكونـي الـذي يحيط بكافـة الأشـكال. إن هـذه العقـدة هــي الـرف الـهيروغليفي للحـب الإلـهي. سيقول فورييـه إن هـذا الحـب ليـس إلا الجاذبيــة العاطفيــة. لكــن

فورييه، مثلنا جميعا، لا يعرف ما هو هذا المركز، أو من ماذا هو مصنوع. إن تناظره مثل تناظر بودلير، وتناظر الحديثين، هو عملية ars combinatoria، يستند تناظر دانتي إلى أنطولوجيا. إن قلب التناظر هو مكان فارغ لنا، هذا المركز، بالنسبة لدانتي، عقدة، إنه الثالوث الذي يصالح الواحد مع الكثير، الجوهر والعرض. بالتالي، هو يعرف - أو يعتقد أنه يعرف- سر التناظر، المفتاح الذي يقرأ به كتاب الكون، هذا الكتاب مفتاح آخر: النصوص المقدسة. يعرف الشاعر الحديث - أو يعتقد أنه يعرف - بدقة، العكس: العالم مستغلق، ليس هناك كتاب. النفي، النقد، المفارقة، هذه تؤلف أيضا المعرفة، رغم أنها من النوع المعارض بالنسبة لدانتي، المعرفة التي ليست تأمل الآخرية من موقع الوحدة، وإنما رؤية الانقطاع عن الوحدة. معرفة سحيقة، معرفة ساخرة.

أغلق مالارميه تلك الفترة، وأدى هذا إلى فتح فترتنا. أغلقها باستعارة الكتاب نفسها. في شبابه، في سنوات العزلة في الأقاليم، جاءته رؤية العمل، عمل قارنه بعمل السيميائيين، الذين دعاهم "أجدادنا". في ١٨٦٦ أسر لصديقه كاثاليس Cazalis : "لقد واجهت هاويتين: واحدة هي العدم، الذي وصلت إليه دون أن أعرف البوذية... الأخرى هي العمل". العمل: الشعر الذي يصارع العدم. وأضاف: "ربما سيكون عنوان مجلد شعري الغنائي عظمة الكذبة أو الكذبة العظيمة". العنوان كاشف: أراد مالارميه أن يحل التعارض بين التناظر والمفارقة. قبل حقيقة العدم - عالم الآخرية والمفارقة هو، في النهاية، تجل للعدم - لكنه قبل في الوقت نفسه حقيقة التناظر، حقيقة العمل الشعري، الشعر كقناع للعدم. إن الكون يبدد نفسه في كتاب: قصيدة موضوعية ليست عمل الشاعر مالارميه، الذي

تلاشى في الأزمة الروحية لعام ١٨٦٦ ، وليست عمل أي شخص آخر. إن اللغة هي التي تتحدث عبر الشاعر، الذي ليس هو الآن إلا شيئا شفافا. وهذا بلورة للغة في عمل لاشخصي وليس صنوا للعالم وحسب، كما رغب الرومانسيون والرمزيون، وإنما إلغاء له في الوقت نفسه. والعدم الذي هو العالم يحول نفسه إلى كتاب: "الكتاب". ترك مالارميه مئات الملاحظات التي وصف فيها الكتاب ذا الصفحات الطليقة، والشكل الذي ستوزع به أوراقه وتمزج لدى كل قراءة بحيث أن كل مزيج سينتج نسخة مختلفة من النص نفسه، ووصف طقس كل قراءة وعدد المشاركين وثمن الدخول، وطبعة الكتاب ومبيعاته (وهذه حسابات غريبة تذكرنا ببلزاك وتأملاته المالية). لقد ترك تأملات، أسرارا، شكوكا، شظايا، نثريات - لكن الكتاب غير موجود، لم يكتب أبدا. لقد انتهى التناظر إلى الصمت.

كان هناك أدب رومانسي في فرنسا - أسلوب، إيديولوجيا، بعض الإيماءات - لكن لم تولد روح رومانسية حقيقية إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكانت هذه الحركة تمردا على التراث الشعري الفرنسي الممتد من عصر النهضة فصاعدا، وجماليته بقدر ما كانت تمردا على فن نظمه، بينما كانت الرومانسية الإنكليزية والألمانية إعادة اكتشاف - أو ابتكار - لتراثها الشعري القومي.

ماذا عن إسبانيا ومستعمراتها السابقة؟ كانت الرومانسية الإسبانية سطحية وخطابية، وطنية ووجدانية، محاكاة للنماذج الفرنسية، التي هي نفسها طنانة ومأخوذة عن إنكلترا وألمانيا. تركت الأفكار، وأخذت الموضوعات، هجرت الأسلوب، واستعارت الطريقة، أغفلت رؤية التواشج بين العالم الكبير والعالم الصغير، والوعي بأن "الأنا" خطأ، خطأ في نسق الكون. تركت المفارقة، وأخذت الذاتية الوجدانية وحسب. وكان هناك مواقف رومانتيكية وشعراء لا يفتقرون إلى الموهبة والهيام استولوا على إيماءات بايرون - وليس على اقتصاده في اللغة - وعلى تفخيم هوغو - لا على عبقريته الرؤيوية -. وليس هناك أحد من بين الأسماء الرسمية للرومانسية الإسبانية هو في الصف الأول، ربما عدا ماريانو خوسيه دي لارا Mariano Jose De Larra. لكن لارا الذي ألهب مخيلتنا هو ناقد أزمنته

ونفسه، وأخلاقـي أكثر قربا إلى القرن الثامن عشر منه إلى الرومانسية، ومؤلف قصائد قصيرة مختتمة بفكرة بارعة أو ساخرة: "هنا يرقد نصف إسبانيا، لقد مات نصفها الآخر". وقال الأرجنتيني دومنغو فوستينو سارمينتو Domingo Faustino Sarmiento، الذي زار إسبانيا في ١٨٤٦، للأسبان: "ليس لديكم مؤلفون في هذه الأيام، أو كتاب، أو أي شيء له قيمة... نحن وأنتم نترجم وحسب". في إسبانيا كانوا يحاكون الفرنسيين، وفي أميركا الإسبانية كانوا يحاكون الإسبان.

إن خوسيه ماريو بلانكو وايت Jose Maria Blanco White هو الكاتب الإسباني الوحيد في تلك الفترة الذي يستحق أن يدعى رومانسيا. كانت أسرته من أصل إيرلندي، وأحد أجداده هسبن Hispanized الكنية من خلال ترجمتها: بلانكو تعني الأبيض. ولا أعرف إن كان بلانكو وايت يحسب على الأدب الإسباني نظرا لأن معظم أعماله مكتوبة باللغة الإنكليزية. كان شاعرا ثانويا وشغل مكانا ملائما ومتواضعا في بعض مختارات الشعر الرومانسي الإنكليزي. وكان ناقدا عظيما في حقول التاريخ، والأخلاق، والسياسة، والأدب، ولا تزال تأملاته عن إسبانيا وأميركا الإسبانية صالحة.

مثل بلانكو وايت لحظة مفتاحية في التاريخ الفكري والسياسي للأمم الهسبانية. ولقد عانى كثيرا من كراهية المحافظين والقوميين كما عانى من إهمالنا ولا يزال جزء كبير من أعماله غير مترجم إلى الإسبانية. وكونه كان قريبا من الفكر الإنكليزي، كان الناقد الإسباني الأول الذي نظر إلى تراثنا الشعري من منظور الرومانسية: " منذ أن أدخل بوسكان Boscan، وغارسيلاسكو Garcilasco، الأشكال الشعرية الإيطالية في منتصف القرن السادس عشر، كان أفضل شعرائنا مقلدين مستعبدين لبترارك Petrarch

وكتاب تلك المدرسة ... لقد جردتهم القافية، والبحور الإيطالية، وفكرة معينة مزيفة عن اللغة الشعرية التي لا تسمح لهم إلا أن يتحدثوا عما تحدث عنه الشعراء الآخرون، جردتهم من حرية الفكر والتعبير". لم أجد وصفا أفضل أو أكثر دقة للعلاقة بين الجمالية النهضوية ونظم الشعر المقطعي المتواتر. لم ينقد بلانكو وايت نماذج القرن الثامن عشر الشعرية فحسب - الكلاسيكية الفرنسية - وإنما أشار إلى أصولها كذلك: إدخال نظم الشعر المقطعي المتواتر في القرن السادس عشر، ومعه، فكرة الجمال المستندة إلى التناسق بدلا من الرؤية الشخصية. إن علاجه هو كمثل علاج ووردسورث: شجب "اللغة الشعرية" واستخدام لغة الحياة اليومية، أن "نفكر لأنفسنا في لغتنا الخاصة". وشكا، للأسباب نفسها، من استمرار التأثير الفرنسي: "لسوء الحظ لم يتجه الإسبان، من أجل تعلم اللغة، إلا إلى المؤلفين الفرنسيين وذلك نظرا لصعوبة تعلم اللغة الإنكليزية".

ويبدو أن هناك اسمين أنكرا كل ما قلته: غوستافو أدولفو بكوير Gustavo Adolfo Becuer و روزاليا كاسترو Rosalia Castro. الأول شاعر أعجب به الجميع، أما الثانية فكاتبة ليست أقل توترا من بكوير وربما أكثر مدى منه وطاقة - أتردد في قول أكثر رجولة لأن الطاقة نسائية أيضا - كلاهما رومانسي متأخر، متأخر حتى بالنسبة للرومانسية الإسبانية المتأخرة. ورغم أنهما معاصران لمالارميه وفيرلين، ورامبو، وويتمان، فإن كتاباتهما تظهرهما غير متأثرين بالحركات التي كانت تهز عصرهما وتغيره. إنهما شاعران حقيقيان يغلقان الفترة الثرثارة للرومانسية الإسبانية ويجعلاننا نتوق إلى رومانسية لم نحصل عليها أبدا.

قال خوان رامون خمينيث: إن الشعر الحديث في لغتنا بدأ مع بكوير. إذا كان الأمر هكذا، فالبداية جبانة جدا: يذكرنا الشاعر الأندلسي كثيرا بهوفمان، وبشكل معكوس، بهايني. ولم يحدد بكوير وروزاليا كاسترو نهاية فترة أو فجر أخرى، لقد عاشا في منطقة موغلة في القدم ولم يشكلا حقبة.

وعلى الرغم من أن الرومانسية جاءت متأخرة إلى إسبانيا وأميركا الإسبانية، لم تكن المسألة مسألة ترتيب زمني فحسب. وهذا ليس مثالا جديدا عن "التخلف التاريخي لإسبانيا"، تلك العبارة التي استخدمت لشرح غرابة أممنا، وغرابتنا. هل بؤس رومانسيتنا فصل آخر لأطروحات دكتوراة أو مراث تدعى "الانحطاط الإسباني؟" هذا يعتمد على فكرتنا عن العلاقة بين الفن والتاريخ. من يستطيع أن ينكر أن الشعر هو نتاج التاريخ؟ ونفرط في التبسيط حين نراه مجرد انعكاس للتاريخ. العلاقة بينهما أكثر دقة وتعقيدا. قال بليك: "جميع العصور متساوية لكن العبقري هو دائما فوق العصر". إن وجهة نظر متطرفة كهذه غير مقبولة، ويكفي أن نذكر أن العصور التي نعتبرها تتسم بالانحطاط هي غالبا غنية بالشعراء العظام: تزامن غونغورا Gongora وكيبيدو Quevedo مع فيليب الثالث وفيليب الرابع. وعاش مالارميه في الإمبراطورية الثانية، وشهد لي بو Li Po وتو فو Tu Fu انهيار T' ang. وهكذا سأحاول أن ألخص فرضية ترى حقيقة التاريخ كما ترى حقيقة الشعر، وهي نفسها مستقلة نسبيا.

كانت الرومانسية رد فعل على التنوير، وكانت بالتالي محددة به. كان إحدى نتاجاته المتناقضة. وكونها محاولة الخيال الشعري ليشعل من جديد أرواحا هجرها العقل النقدي، وبحثا عن مبدأ مختلف عن الدين

ونفيا لزمن الثورات المتتابع، فإن الرومانسية هي الوجه الآخر للحداثة: ندمها، هذيانها، حنينها إلى كلمة تجعل لحما.

عظم الغموض الرومانسي قوى وملكات الطفل، والمجنون، والمرأة، والآخر، غير العقلاني، لكنه مجدهم من وجهة نظر العصر الحديث. البدائي لا يتعرف على نفسه هكذا ولا يريد أن يكون بدائيا، وينتشي بودلير من "البدائية الوحشية" عند ديلاكروا باسم "الجمال الحديث".

أما في إسبانيا لم يستطع رد الفعل ضد العصر الحديث أن يظهر، والسبب في ذلك أن إسبانيا لم تمتلك عصرا حديثا: لم تمتلك عقلا نقديا أو ثورة برجوازية، (كانطا) أو (روبسبيرا). وهذه إحدى مفارقات تاريخنا.

ولم يكن اكتشاف وفتح أميركا عاملين أقل تحديدا في تشكيل العصر الحديث من حركة الإصلاح الديني: وإذا كانت هذه الحركة قد قدمت الأسس الأخلاقية والاجتماعية للتطور الرأسمالي، فإن الاكتشاف والفتح فتحا الباب للتوسع الأوروبي وللتراكم الأولي لرأس المال في نسب كانت مجهولة حتى ذلك الوقت. لكن الأمتين اللتين افتتحتا عصر التوسع - إسبانيا وألبرتغال - بقيتا على هامش التطور الرأسمالي ولم تشتركا في التنوير. وبما أن هذا يتجاوز حدود موضوعي لن أناقشه هنا، يكفي أن نذكر أن إسبانيا، من القرن السابع عشر فصاعدا، أصبحت أكثر انغلاقا على نفسها وأدت هذه العزلة تدريجيا إلى التحجر. ولم ينجح عمل نخبة قليلة من المفكرين الذين تغذوا على ثقافة القرن الثامن عشر الفرنسية، ولا الصدمات الثورية للقرن التاسع عشر، في تغييرها. على العكس، قوى الغزو النابليوني الملكية المطلقة والكاثوليكية المؤيدة لسيادة البابا المطلقة.

وتبع عزلة إسبانيا، بفظاظة، وعلى الفور، انحدار سريع للشعر، والأدب، والفن. لماذا؟ أنتجت إسبانيا القرن السابع عشر مسرحيين عظاما، وروائيين، وشعراء غنائيين، وعلماء لاهوت. وسيكون من السخف أن نرجع الانحطاط الناشئ إلى تحولات طارئة على المورثات. لم يصبح الإسبان أغبياء فجأة: ينتج كل جيل، بنسب متفاوتة، العدد نفسه من الأذكياء، ما يتغير هو العلاقة بين ذكاء الجيل الجديد والامكانيات التي تقدمها له الظروف التاريخية والاجتماعية.

لم يستطع الإسبان في القرن السابع عشر أن يغيروا الفرضيات الفكرية، والأخلاقية، والفنية التي استند إليها مجتمعهم، ولم يستطيعوا أن يشاركوا في الحركة العامة للثقافة الأوروبية: في كلتا الحالتين كان الخطر الذي تعرض له المنشقون مهلكا. بالتالي، كان النصف الثاني من القرن السابع عشر وقتا لإعادة دمج العناصر، والأشكال، والأفكار، وعودة مستمرة إلى النقطة نفسها لقول الشيء نفسه. وانتهت جمالية الدهشة إلى ما دعاه كالديرون Calderon "بلاغة الصمت". فراغ مدو. استهلك الإسبان أنفسهم. وكما قالت سور خوانا Sor Juana : " شيدوا من دمارهم تذكارا".

لم يستطع الإسبان، بعد استنفاد احتياطاتهم، أن يختاروا أي ممر سوى المحاكاة. ويمكن أن يقسم تاريخ جميع الآداب والفنون والثقافات إلى محاكاة محظوظة وأخرى سيئة. المحاكاة الأولى منتجة: تغير الشخص الذي يحاكي وتغير ما تتم محاكاته، الثانية عقيمة. وكانت المحاكاة الإسبانية من النوع الثاني.

كان القرن الثامن عشر قرنا نقديا لكن النقد كان ممنوعا في إسبانيا. وكان تبني الجمالية الكلاسيكية الفرنسية المحدثة محاكاة خارجية لم تغير

الحقيقة العميقة لإسبانيا، إذ تركت البنى النفسية والاجتماعية سليمة. كانت الرومانسية رد فعل الوعي البرجوازي على نفسه وضدها - ضد منتجها النقدي الخاص: التنوير. أما في إسبانيا فلم تنتقد الطبقة الوسطى والمثقفون المؤسسات التقليدية أو لم يكن نقدهم كافيا. كيف يستطيعون أن ينتقدوا عصرا حديثا لم يحظوا به بتاتا؟ لم تكن السماء، كما رآها الإسبان، الصحراء التي أرعبت جان-بول ونرفال، وإنما مكان مليء بالعذراوات الجميلات، والملائكة الممتلئين، والحواريين ذوي الحواجب الكثة، وكبار الملائكة المنتقمين - أرض معارض ومحكمة لا تعرف الصفح. نعم، تمرد الرومانسيون الإسبان على هذه السماء، لكن تمردهم المسوغ تاريخيا، كان رومانسيا في المظهر فحسب. وافتقدت الرومانسية الإسبانية، بطريقة أكثر وضوحا من الفرنسية، إلى عنصر الأصالة هذا، الجديد كليا في تاريخ الحساسية الغربية - هذا العنصر المزدوج الذي لا نستطيع تجنب تسميته شيطانيا: رؤية التناظر الكوني ورؤية الإنسان القائمة على المفارقة، التواصل بين جميع العوالم، وفي المركز، شمس الموت المتقدة.

كانت الرومانسية الأميركية الإسبانية أكثر فقرا من الإسبانية: كانت انعكاس الانعكاس. على أي حال، أثر ظرف تاريخي على شعرنا وجعله يغير اتجاهه، رغم أن هذا لم يحدث على الفور. أنا أشير إلى ثورة الاستقلال - في الحقيقة يجب أن أستخدم صيغة الجمع، نظرا لوجود ثورات متنوعة، لم يكن لجميعها المعنى نفسه، ولكي أتجنب تعقيدات لا داعي لها سأنظر إليها وكأنها تشكل حركة موحدة - كانت ثورة الاستقلال في أميركا الإسبانية ثورة لم تحصل في إسبانيا بتاتا، وهي الثورة التي فشلت مرة بعد أخرى في القرن التاسع عشر والعشرين. كانت ثورتنا حركة

ألهمهما النموذجان الأصليان السياسيان العظيمان للعصر الحديث: الثورة الفرنسية والثورة الأميركية. وبوسع المرء أن يقول: حدثت في هذا العصر ثلاث ثورات امتلكت إيديولوجيات متشابهة: الثورة الفرنسية، والثورة الأميركية الشمالية، والثورة الأميركية الإسبانية. وعلى الرغم من نجاح الثورات الثلاث، كانت النتائج مختلفة جدا: خلقت الثورة الأولى والثانية مجتمعات جديدة، بينما افتتحت ثورتنا الخراب الذي وسم تاريخنا من القرن التاسع عشر إلى اليوم. كانت مبادئنا هي مبادئ الفرنسيين والأميركيين الشماليين. هزمت جيوشنا الإسبان الملكيين المطلقين، وحالما تحقق الاستقلال نصبت الحكومات الجمهورية على أراضينا. ومع ذلك فشلت الحركة: لم تغير مجتمعاتنا واستعبدنا محررونا.

وعلى عكس الثورة الأميركية، تزامنت ثورتنا مع انحطاط كبير في مقر الإمبراطورية. وثمة ظاهرتان ملازمتان لكنهما غير متماثلتين: ميل الإمبراطورية الإسبانية إلى بعثرة نفسها - نتيجة انحطاط هسباني بقدر ما هو نتيجة غزو نابليوني - وحركات استقلال الثوريين الأميركيين الإسبان. سرع الاستقلال تجزئة الإمبراطورية ولم يضيع الرجال الذين تزعموا حركات التحرر، باستثناء البعض، الوقت في نحت الأمم لتناسب غاياتهم: وصلت حدود كل بلاد جديدة إلى النقطة التي وصل إليها جيش الزعيم المحلي. فيما بعد، أكملت الأوليغاركيات، والعسكر، المتحالفون مع القوى الأجنبية، وخاصة الإمبريالية الأميركية الشمالية، تفتيت أميركا الإسبانية. واستمرت البلدان الجديدة كأنها المستعمرات القديمة، وبقيت الظروف الاجتماعية دون تغيير، لكن حقيقة جديدة اختبأت تحت طبقات الخطابة الليبرالية

والديموقراطية. وكجبهات مزيفة، خبأت المؤسسات الجمهورية الأهوال والبؤس القديمين.

استخدمت الجماعات التي قاومت القوة الإسبانية أفكار ذلك الزمن الثورية لكنها لم تكن قادرة على تغيير مجتمعنا ولم ترغب بذلك: كانت أميركا الإسبانية إسبانيا دون إسبانيا. وكما قال سارمينتو Sarmiento : "كانت حكومات أميركا الإسبانية جلادي إرادة فيليب الثاني". نظام إقطاعي متنكر بالبرجوازية الليبرالية، استبداد بدون ملك، لكن بملوك تافهين هم الرؤساء. وهكذا ولدت مملكة القناع، إمبراطورية الأكاذيب. ومذاك أصبح فساد اللغة، والتلوث السيمانتي، مرضا مستوطنا، واتخذت الأكاذيب طابعا دستوريا، ومن الجوهر نفسه. من هنا تأتي أهمية النقد في بلداننا. ذلك أن النقد الفلسفي والتاريخي، بالنسبة إلينا، ليس وظيفة فكرية فحسب، إنه مثل التحليل النفسي. إنه النظرية والتطبيق. وإذا كانت هناك مهمة واحدة ملحة في أميركا الإسبانية فهي نقد أساطيرنا التاريخية والسياسية.

لم تكن جميع نتائج ثورة الاستقلال سلبية. لقد حررتنا من إسبانيا، وإذا لم تكن قد غيرت الواقع الاجتماعي، فإنها غيرت وعينا وكذبت إلى الأبد الاستبدادية الملكية والكاثوليكية المؤيدة لسيادة البابا المطلقة. كان الانفصال عن إسبانيا فعل انحلال للأسطورة: كنا مسكونين بكائنات من اللحم والدم، لا بالأشباح التي أبقت الإسبان مستيقظين. أم هل كانت الأشباح نفسها لكن بأسماء مختلفة؟ على أي حال، تغيرت الأسماء ومعها إيديولوجية الأميركيين الإسبان. اتسع الشق مع التراث الإسباني في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وفي النصف الثاني أصبح قطيعة نظيفة.

كانت المدية القاطعة هي الوضعية. وفي أثناء تلك السنوات اكتشفت الطبقات الحاكمة ومجموعات المثقفين في أميركا اللاتينية الفلسفة الوضعية وعانقتها بحماسة. ارتدينا قناعي أوغست كونت وهربرت سبنسر بدلاً من قناعي دانتون وجيفرسون. وعلى المذابح التي بناها الليبراليون للحرية والعقل نصب العلم والتقدم، محاطين بمخلوقيهما الأسطوريين، سكة الحديد والتلغراف. في تلك اللحظة، تباعد طريقا إسبانيا وأميركا الإسبانية. ونمت عبادة الوضعية لتصبح الإيديولوجيا الرسمية - هذا إن لم تكن الديانة - لحكومتي البرازيل والمكسيك، أما في إسبانيا فقد بحث أفضل المنشقين عن جواب على قلقهم في مذاهب مفكر ألماني مثالي غامض هو كارل كرينستيان فريدريك كراوز Karl Christian Friedrich Krause. ليس هناك طلاق يمكن أن يكون أكثر تماماً.

لم تكن الوضعية في أميركا اللاتينية إيديولوجيا برجوازية ليبرالية مهتمة بالتقدم الصناعي والاجتماعي، كما كانت في أوروبا، وإنما كانت أوليغاركية مالكي أرض كبار. كانت تعمية، خداعاً للذات وغشاً أيضاً. وكانت نقداً جذرياً للدين وللإيديولوجيا التقليدية في الوقت نفسه. تخلصت الوضعية من الميثولوجيا المسيحية ومن الفلسفة العقلانية. ويمكن أن تدعى النتيجة تقويض الميتافيزيقيا والدين. كان هذا التطور شبيهاً بتنوير القرن الثامن عشر، إذ عاشت الطبقات الفكرية الأميركية اللاتينية أزمة شبيهة إلى حد ما بتلك التي عذبت الأوروبيين منذ قرن. أصبح الإيمان بالعلم ملوناً بحنين إلى اليقينيات الدينية القديمة، وتلون الإيمان بالتقدم بدوار في موقع العدم. لم تكن حداثة كاملة لكنها تذوق مر مسبق: رؤية السماء غير المسكونة، فزع المصادفة.

حوالي ١٨٨٠ ظهرت الحركة الأدبية التي دعيت Modernismo في أميركا الإسبانية. دعوني أوضح مصطلحاتي: إن الحداثة الأميركية الإسبانية هي، إلى درجة معينة، مرادف للبرناسية والرمزية الفرنسية، ولهذا ليست لها صلة بما يدعى في الإنكليزية بـ "المودرنزم". تشير الحداثة إلى الحركات الأدبية والفنية التي بدأت في العقد الثاني من القرن العشرين، كما استخدمها النقاد الأميركيون الشماليون والإنكليز، إنها ما ندعوه في فرنسا والبلدان الهسبانية بـ "الطليعة" Vanguardia، ولكي أتجنب الخلط سأستخدم كلمة حداثة Modernismo لأشير إلى الحركة الأميركية الإسبانية، وفي الحديث عن الحركات الفنية والشعرية في القرن العشرين سأستخدم الطليعة Avante-garde، Vanguard، وفي الحديث عن الشعر الأنجلو - أميركي سأستخدم كلمة حداثة Modernism.

كانت الحداثة Modernismo جواباً على الوضعية، ونقداً للحساسية - القلب وأيضاً الأعصاب - وعلى التجريبية والعلمية الوضعية. وبهذا المعنى كانت وظيفتها التاريخية مشابهة لوظيفة رد الفعل الرومانسي في الأيام الأولى من القرن التاسع عشر. كانت الحداثة رومانسيتنا الحقيقية، ومثل الرمزية الفرنسية، لم تكن نسختها تكراراً وإنما استعارة: الرومانسية *الأخرى*. إن العلاقة بين الحداثة Modernismo والوضعية تاريخية وسيكولوجية، وسنجازف بعدم فهم طبيعة هذه العلاقة إذا نسينا أن الوضعية الأميركية اللاتينية كانت إيديولوجيا ومعتقداً أكثر من كونها نهجاً علمياً. وكان تأثيرها على تطور العلم أقل بكثير من هيمنتها على أذهان وحساسيات الجماعات الفكرية. وقد افتقد نقادنا ومؤرخونا إلى الحساسية حيال الجدل

التناقضي الذي يوحد الوضعية والحداثة. وأصروا، بالتالي، على رؤية الثانية كاتجاه أدبي فحسب، وفضلا عن ذلك، كأسلوب كزموبوليتاني، وسطحي بالأحرى. كلا، لقد لبت الحداثة حاجات روحية. أو بدقة أكبر، كانت جواب المخيلة والحساسية على قحط الوضعية. ويمكن أن تكون حركة شعرية حقيقية لأنها لبت حاجات الروح وحسب - وهي الحركة الوحيدة، في الحقيقة، بين كل تلك الحركات في لغتنا أثناء القرن التاسع عشر، الجديرة بالاسم. ويمكن أن توجه تهمة السطحية، بعدل أكبر، إلى أولئك النقاد الذين لم يستطيعوا أن يقرأوا داخل خفة الشعراء الحداثيين وروحهم العالمية علامات المنفى الروحي وندوبه.

وللسبب نفسه لم يكن النقاد قادرين على أن يشرحوا، بشكل كامل، أن الحركة الحداثية، التي بدأت كتكييف طوعي للشعر الفرنسي مع لغتنا، كان يجب أن تتأصل في أميركا الإسبانية لا في إسبانيا. وبالتأكيد كان الأميركيون الإسبان، الذين هم أكثر حساسية إزاء ما يحدث في العالم من الإسبان، وأقل خضوعا للتاريخ والتراث. لكن هذا الشرح ضعيف. أكان السبب قلة معلومات لدى الإسبان؟ ربما لم يكونوا بحاجة إلى ذلك. ومنذ الاستقلال فصاعدا، وخاصة منذ تبني الوضعية، اختلفت المعتقدات الثقافية للأميركيين الإسبان عن معتقدات الإسبان. تطلبت تراثات مختلفة استجابات مختلفة. و كانت الحداثة، عندنا، الاستجابة المطلوبة لمعارضة الفراغ الروحي الذي خلقه النقد الوضعي للدين والميتافيزيقيا، ولم يكن هناك شيء أكثر طبيعية من ضرورة انجذاب الشعراء الأميركيين الإسبان إلى الشعر الفرنسي في تلك الفترة. ذلك أنهم لم يكتشفوا فيه جدة اللغة فحسب وإنما أيضا حساسية وجمالية محملة بالرؤية القائمة على تناظر التراثين

الرومانسي وذلك التراث المستند إلى الإيمان بالقوى الخفية. على العكس، لم يكن مذهب الربوبية العقلاني لكراوز Krause يمثل، في إسبانيا، كثيراً من النقد بقدر ما كان بديلاً للدين - دين فلسفي جبان خاص بالليبراليين المنشقين - وبالتالي افتقدت الحداثة الوظيفة التعويضية التي امتلكتها في أميركا الإسبانية. وحين وصلت الحداثة في النهاية إلى إسبانيا، تصورها البعض مجرد مذهب أدبي مستورد من فرنسا. ومن ذلك التأويل الخاطئ لأونامونو Unamuno، انبعثت سطحية شعراء الحداثة في أميركا الاسبانية، وترجمها آخرون مثل خوان رامون خمينيث وأنطونيو ماتشادو إلى مصطلحات التراث الروحي الدارج بين الجماعات الفكرية المنشقة. وفي إسبانيا لم تكن الحداثة رؤية للعالم بل لغة أدخلها وحولها شاعران إسبانيان عظيمان: أنطونيو ماتشادو وخوان رامون خمينيث - انظر الحاشية ٢- مرة أخرى: ترجمة واستعارة.

وبين ١٨٨٠ و ١٨٩٠، بدأت حفنة من الشبان بالتغيير العظيم. كانوا يجهلون بعضهم بعضاً ومبعثرين عبر القارة - في هافانا، ومكسيكو سيتي، وبوغوتا، وسانتياغو دي تشيلي، وبوينس آيرس، ونيويورك - كان مركز تلك الأخوة المبعثرة هو روبن داريو: ضابط ارتباط، وناطق، وصانع الحركة. في ١٨٨٨ اشتق داريو مصطلح حداثة Modernismo ليصف الاتجاهات الجديدة.

الحداثة: أسطورة العصر الحديث، أو سرابه بالأحرى.

ماذا يعني أن تكون حديثاً؟ هذا يعني أن تغادر منزلك، وبلادك، ولغتك بحثاً عن شيء لا يعرف ولا يحظى به، لأنه مختلط بالتغيير. تساءل بودلير: "يجري، يبحث. ما الذي يبحث عنه؟" وأجاب: "إنه يبحث عن

شيء يمكن أن ندعوه *الحداثة*" . لكن بودلير لا يعرف تلك الحداثة الخادعة وهو راض بأن يدعوها "العنصر المتفرد في كل شيء جميل" . وبفضل الحداثة ، الجمال ليس واحداً وإنما متعدد . والحداثة تميز بين أعمال اليوم وأعمال البارحة ، وتجعلها مختلفة : "الجميل هو دائماً غريب" . والحداثة هي ذلك العنصر الذي يمنح الحياة للجمال من خلال جعله فريداً . ولكن عملية منح الحياة هذه هي شجب للعقوبة القصوى : الحداثة هي علامة الموت . وتختلف الحداثة التي أغرت الشعراء الشبان في نهاية القرن عن تلك التي أغرت آباءهم ، إنها لا تدعى التقدم وليست تجلياً خارجياً له : سكة الحديد والتلغراف . إنها تدعى الترف وعلاماتها أشياء جميلة ولا فائدة منها . إن حداثتهم جمالية يتصل فيها اليأس بالنرجسية ، والشكل بالموت .

وأعاد تضارب الرومانسيين والرمزيين إزاء ما العصر الحديث الظهور في الحداثيين الأميركيين الإسبان . وكان حبهم للترف والموضوع ، الذي لا فائدة منه ، نقداً للعالم الذي قُدِّرَ عليهم أن يعيشوا فيه ، لكن هذا النقد هو إجلال أيضاً . برغم ذلك ، ثمة فرق جذري بين الأوروبيين والأميركيين الإسبان : حين اتهم بودلير التقدم بأنه "فكرة غروتسكية" ، أو حين شجب رامبو الصناعة ، كانت تجربتهما مع التقدم والصناعة حقيقية ، ومباشرة ، بينما كانت تجارب الأميركيين الأسبان اشتقاقية .

كانت التجربة الوحيدة للعصر الحديث التي كان بوسع أميركي إسباني أن يعيشها في تلك الأيام هي تجربة الإمبريالية . لم تكن حقيقة أممنا حقيقة حديثة : لم تكن هناك صناعة ، أو ديموقراطية ، أو برجوازية ، وإنما أوليغاركيات إقطاعية وعسكرية فحسب . ولقد اعتمد الحداثيون على الشيء نفسه الذي مقتوه ، وتأرجحوا بين التمرد والقنوط . كان بعضهم ، مثل مارتي

Marti` ، غير قابلين للفساد وضحي بهم ، وكتب آخرون ، مثل المسكين داريو ، أناشيد وسونيتات للنمور والتماسيح التي ترتدي الكتافيات . ولكن نحن الذين رأينا وسمعنا كثيراً من الشعراء العظام يمجدون في قصائدهم الأعمال الرفيعة لستالين بالفرنسية ، والألمانية ، والإسبانية ، نستطيع أن نسامح داريو لأنه كتب بعض المقاطع الشعرية في مدح ثيلايا Zelaya وإسترادا كابريرا Estrada Cabrera ، الحاكمين المستبدين في أميركا الوسطى .

كونها حداثة مضادة للحداثة ، وتمرداً غامضاً ، فقد كانت الحداثة فعلاً يعارض التراث ، وجسّدت في مرحلتها الأولى ، رفضاً لتراث إسباني محدد . وأقول تراثاً محدداً نظراً لأن الحداثيين اكتشفوا ، في مرحلة ثانية ، التراث الإسباني الآخر ، الحقيقي . كان ولعهم الغالي Gallic شكلاً من الكوزموبوليتانية وكانت باريس مركز جمالية ، بدلاً من كونها عاصمة أمة . قادتهم نزعتهم العالمية إلى اكتشاف آداب أخرى وإلى إعادة تقييم ماضينا الهندي . وكان الرفع من شأن العالم السابق على الهسباني ، الذي هو جمالية في المقام الأول ، كان ، في الوقت نفسه ، نقداً للعصر الحديث ، وخاصة التقدم الأميركي الشمالي : الأمير Netzahualcoyotle يواجه أديسون . وكانوا ، يتبعون في هذا بودلير ، الذي وصف المؤمن بالتقدم بأنه : "بائس مسكين أمركه فلاسفة صناعيون" . ووازنت استعادة العالم الهندي ، وفيما بعد ، الماضي الإسباني ، الإعجاب ، والخوف والغضب الذي أثارته الولايات المتحدة وسياسة الهيمنة التي اتبعتها في أميركا اللاتينية . وتنافس الإعجاب بأصالة وقوة الثقافة الأميركية الشمالية مع الخوف والغضب من تدخل الولايات المتحدة ، المتكرر ، في حياة أممنا . ولقد أشرت إلى هذه الظاهرة في مكان آخر ، أما هنا فسأشدد فقط على أن عداء الحداثيين

للإمبريالية لم يستند، حصراً، إلى أرضيات سياسية واقتصادية، وإنما إلى فكرة أن أميركا اللاتينية، وأميركا الأنجلوسكسونية، تمثلان نسختين من الحضارة الغربية، مختلفتين، ولا تلتقيان على الأرجح. ولم يكن الصراع صراعاً بين الطبقات والأنظمة الاقتصادية والإجتماعية وحسب وإنما بين رؤيتين للعالم والإنسان في الوقت نفسه.

حاولت الرومانسية القيام بإصلاح جبان لأشكال الشعر الإسباني، لكن الحداثيين هم الذين نجحوا أخيراً من خلال دفعها إلى أطرافها القصوى. ولم تكن ثورة الحداثيين العروضية أقل جذرية وحسماً من ثورة غارسيلاسو Garcilaso ومطليني Italianizers القرن السادس عشر، ولو بشكل معكوس. النتائج المعاكسة والتي لا يمكن التنبؤ بها للتأثيرات الأجنبية، الإيطالية في القرن السادس عشر، والفرنسية في القرن التاسع عشر: من ناحية انتصر النظم الشعري المقطعي المتواتر، بينما من ناحية أخرى، حرض التجريب الإيقاعي المستمر عودة ظهور البحور التقليدية، وفضلاً عن ذلك، سبب انبعاث النظم الشعري القائم على النبر. وفي بداية القرن التاسع عشر، وضد المذهب المنتشر في إسبانيا، أظهر أندريه بيلو Andre's Bello أن الشعر الإسباني لم يعتمد على التواتر المقطعي بقدر ما اعتمد على لعب النبرات القوية. (يجب أن أشير هنا أن بدرو إنركويث أورينا Pedro Henri'quiz Urena، الأميركي الإسباني الأول الذي شغل كرسي تشارلز إليوت نورتون Charles Eliot Norton، هو الذي صنَّف ونظم هذا المذهب بشكل يثير الإعجاب. وعلى الرغم من أن الحداثيين خصصوا أيضاً دراسات نظرية لهذه المسألة، فإن ممارستهم، لا أفكارهم، هي التي غيرت شعرنا. ونتج عن الثورة الحداثية اكتشاف إيقاعات شعرنا. وكانت نزعته العالمية، في

الحقيقة، عودة إلى التراث الإسباني الحقيقي، الذي أنكر أو نسي في إسبانيا.

ولقد أشرت سابقا إلى العلاقة بين النظم الشعري القائم على النبر والرؤية التناظرية للعالم. ولقد نتجت إيقاعات الشعراء الحداثيين الجديدة عن عودة ظهور المبدأ الإيقاعي الأصلي للغة، وتزامن انبعاث البحور هذا مع ظهور حساسية جديدة، برهنت في النهاية على أنها عودة إلى الدين الآخر: التناظر. وليس الإيقاع الشعري إلا تجليا للإيقاع الكوني. إن التناظر هو رؤية إيقاعية للكون، وقبل أن يصبح فكرة، هو تجربة لفظية. إذا سمع الشاعر الكون كلغة، فهو أيضا ينطقه. وكما يقول بودلير: نطقه الله. عودة إلى الزمن الدوري: كلمات الشاعر، حتى ولو لم تنكر المسيحية بوضوح، فإنها تذيبها في معتقدات أشمل وأكثر قدما. لم تعد المسيحية أكثر من أحد تمازجات الإيقاع الكوني. إن هيام المسيح، كما تقول بعض قصائد داريو بوضوح، ليس أكثر من صورة مؤقتة في دوران العصور والميثولوجيات. يستريح التناظر في التوفيقية. وكانت هذه الملاحظة غير المسيحية جديدة تماما في الشعر الهسباني.

ولم يكن تأثير تراث عبادة القوى الخفية بين الحداثيين الأميركيين الإسبان أقل عمقا منه بين الرومانسيين والرمزيين الأوروبيين. وعلى الرغم من أن نقادنا أدركوا هذه الحقيقة، إلا أنهم تجنبوها وكأنها معيبة. وعلى الرغم من أنها مثيرة للفضائح إلا أنها حقيقية: كان تاريخ الشعر الغربي الحديث، من بليك إلى ييتس وبيسوا Pessoa، مرتبطا بتاريخ العقائد السحرية والمتعلقة بعبادة القوى الخفية، من سويدنبورغ Swedenborg إلى المدام بلافاتسكي Madame Blavatsky. وكان تأثير الأب كونستانت Abbe'

Constant وألياس إليفاس ليفي alias Eliphas Levi ، حاسما ليس في هوغو فحسب وإنما في رامبو كذلك. والصلات الملحوظة بين فورييه Fourier وليفي ، كما رأى أندريه بريتون ، يجب أن تشرح لأن كليهما " يخدمان تيارا فكريا واسعا يمكن أن نتعقبه إلى Zohar ويشتت نفسه في المدارس الإشراقية للقرنين الثامن والتاسع عشر. إنه تيار فكر عثر عليه في الأنساق المثالية ، عند غوته ، وعند جميع الذين رفضوا أن يضعوا الهوية الرياضية كمثال موحد للعالم" (Arcane 17). نعرف أن الشعراء الحداثيين الأميركيين الإسبان - داريو ، ولوغونيس Lugones ، ونيربو Nervo ، وتابلادا Tablada - كانوا مهتمين بكتابات المؤمنين بالقوى الخفية. لماذا لم يشر نقدنا مطلقا إلى العلاقة بين الإشراقية Illuminism والرؤية التناظرية ، وإلى العلاقة بين هذه والإصلاح العروضي؟ شكوك عقلانية ، أم شكوك مسيحية؟ على أي حال ، العلاقة واضحة. بدأت الحداثة كبحث عن الإيقاع اللفظي وانتهت إلى رؤية الكون كإيقاع.

تذبذبت معتقدات روبن داريو ، كما نرى في سطر غالبا ما تم اقتباسه من إحدى قصائده : "بين الكاتدرائية والأطلال الوثنية". أغامر وأعدله : بين أطلال الكاتدرائية والوثنية. كانت معتقدات درايو ، ومعظم الشعراء الحداثيين ، بحثا عن عقيدة أكثر من كونها عقائد ، ودارت وسط مشهد طبيعي جعله خرابا كل من العقل النقدي والوضعية. في هذا السياق ، لا تعني الوثنية العالم الإغريقي اليوناني وأطلاله وحسب وإنما وثنية حية كذلك : من ناحية الجسد ، ومن ناحية أخرى الطبيعة. التناظر والجسد هما طرفا الإيمان بالطبيعة. ويعارض هذا التأكيد المادية الوضعية والعلمية بقدر ما يعارض الروحانية المسيحية. أطلال الكاتدرائية : فكرة الخطيئة ، وعي

الموت، معرفة أن الإنسان ساقط ومنفي في هذا العالم وفي العالم التالي، رؤية الذات ككائن عرضي في عالم قائم على المصادفة. لا نسق معتقدات وإنما حفنة من الشظايا والهواجس.

واتصفت الدراما التراجيدية الكوميدية الحداثية بحوار بين الجسد والموت، التناظر والمفارقة. وإذا ترجمت المصطلحات السيكولوجية والميتافيزيقية لهذه الدراما التراجيدية الكوميدية إلى لغة، نكتشف، لا التعارض بين النظم الشعري المقطعي المتواتر والنظم الشعري القائم على النبر، وإنما التناقض، الأكثر وضوحا وجذرية، بين الشعر والنثر.

دائما تخترق المفارقة التناظر ويخترق النثر الشعر. وظهرت من جديد المفارقة التي أحبها بودلير: خلف مساحيق الموضة، كشرة الجمجمة. وعرف الفن الحديث نفسه بأنه فان، وهنا تكمن حداثته. تصبح الحداثة حديثة حين تكتسب وعيا بفنائها، أي حين تتوقف عن التعامل مع نفسها جديا، حين تحقن الشعر بالنثر وتصنع الشعر من نقد الشعر. إن هذه الملاحظة الساخرة، المضادة للشعر، وبالتالي الأكثر توترا على الصعيد الشعري، ظهرت بدقة في أوج الحداثة (روبن داريو Cantos de Vida y esperanza، ١٩٠٥) وهي غالبا ما تكون مرتبطة بصورة الموت. لكن ليوبولدو لوغونيس، لا روبن داريو، هو الذي استهل الثورة الحداثية الثانية. مع لوغونيس وكتابه Lunario Sentimental (١٩٠٩)، اخترق لافورغ الشعر الهسباني: الرمزية في لحظتها المضادة للرمزية.

سمى نقدنا الاتجاه الجديد ما بعد الحداثة، وهذا ليس صحيحا. لم تكن ما بعد الحداثة هي التي تلت الحداثة - التي كانت في الحقيقة الطليعة Vanguardismo- وإنما نقد الحداثة داخل الحركة نفسها. كان رد فعل فرديا من

قبل شعراء متنوعين. لم تبدأ حركة أخرى بهم، وإنما انتهت الحداثة بهم. كانوا وعيها النقدي، وعي نهايتها. فضلا عن ذلك، الصفات المميزة لهؤلاء الشعراء - المفارقة، اللغة المحكية - ظهرت مسبقا في شعراء الحداثة الطليعيين. أخيرا، ليس هناك حرفيا مكان، بمعنى كرونولوجي، لهذه الحركة الزائفة: إذا كانت الحداثة قد ماتت حوالي ١٩١٨ وبدأت الطليعة Vangurdia في حوالي ذلك الوقت، أين نستطيع أن نضع ما بعد الحداثيين؟ ومع ذلك كان التغيير ملحوظا. ولم يكن تغييرا للقيم، وإنما للمواقف. وملأت الحداثة العالم بالتريتونات وحوريات الماء، وسافر الشعراء الجدد على متن سفن تجارية ونزلوا في ليفربول، لا في Cytherea، لم تعد قصائدهم أغاني لروما قديمة أو جديدة وإنما وصف مر وصموت لمقاطعات الطبقة الوسطى، والطبيعة لم تكن الدغل أو الصحراء وإنما القرية ببساتينها، وكاهنها و"ابنة أخته"، وفتياتها "الطازجات والمتواضعات كالملفوف". المفارقة والنثرية: غزو شعر الحياة اليومية. بالنسبة إلى داريو الشعراء "أبراج الله"، ورأى لوبيث بيلاردي Lopez Velarde نفسه يسير في زقاق ويتحدث مع نفسه، الشاعر بائس غروتسكي رفيع، نوع من شارلي شابلن "Avant la letter". علم جمال المحدود، الذي بمتناول اليد، المألوف. الاكتشاف الكبير: القوة السرية للمحكية. خدم هذا الاكتشاف، بشكل يثير الإعجاب، غاية لوغونيس ولوبيث بيلاردي: جعلا القصيدة معادلة سيكولوجية، مونولوجا تسكعيا، ينصهر فيها وينفصل التأمل والغنائية، الأغنية والمفارقة، النثر والشعر، وتحدق هذه الأنواع إلى بعضها بعضا وتنصهر مرة أخرى، تحطم الأغنية وتصبح القصيدة اعترافا مقاطعا، يفصل

الإيقاع بحالات صمت وثغرات. ولقد عبر لوبيث بيلاردي عن ذلك بإيجاز: "تحول النسق الشعري إلى نسق نقدي".

ولأسباب ذكرتها سابقا، لم يستطع الشعراء الإسبان - عدا رامون دل بابيه إنكلان Ramon del Valle Incla'n، الفريد في هذا وفي أمور أخرى - لم يستطيعوا أن يستخدموا ما شكل السر الحقيقي لأصالة الحداثة: الرؤية التناظرية الموروثة عن الرومانسيين والرمزيين. على أي حال، تبنوا على الفور اللغة الجديدة، والإيقاعات، والأشكال العروضية. مثلا تجاهل أونومانو هذه الابتكارات البراقة التي حكم عليها بأنها تافهة. أغمض عينيه لكنه لم يغلق أذنيه، ذلك أن البحور التي أعاد الحداثيون اكتشافها غالبا ما عاودت الظهور في أشعاره. إن رفض أونومانو هو جزء من Moderniso، إنه ليس ما ذهب وراء داريو ولوغونيس ولكن ما واجههما. عثر أونومانو في رفضه على نبرة صوته الشعري، وعثرت إسبانيا في هذا الصوت على الشاعر الرومانسي العظيم الذي افتقرت إليه في القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أنه كان يجب أن يكون سلف الحداثيين، كان أونومانو معاصرا لهم وخصمهم المكمل. ولولا الحداثيين، لما كان بوسع أونومانو أن يكون الشاعر الذي نعرفه.

العدالة الشعرية.

الحداثة الإسبانية

أفكر بشكل رئيسي بابيه إنكلان، وأنطونيو ماتشادو، وخوان رامون خمينيث -إنهم يمتلكون أكثر من نقطة اتصال مع ما بعد! 'حداثة الأميركية الاسبانية: نقد المواقف المنمطة والكليشيهات الثمينة، مقت اللغة المصقولة بشكل زائف، التكتم تجاه الرمزية القديمة، البحث عن شعر *خالص*

(خمينيث)، أو شعر جوهري (ماتشادو). وثمة تشابه مدهش بين المحكية الطوعية للوغونيس، ولوبيث بيلاردي، وبعض قصائد المجلد الأول لأنطونيو ماتشادو (Soledades، الطبعة الثانية، ١٩٠٧). لكن حالا تشعبت الممرات: كان الشعراء الإسبان أقل اهتماما باستكشاف الطاقة الشعرية للكلام المحكي - موسيقى المحادثة، كما دعاها إليوت - من اهتمامهم بتجديد إيقاعات الشعر التقليدي. وغالبا ما خلط شاعرا أسبانيا الكبيران في تلك الفترة بين اللغة المحكية والشعر الشعبي. كان الشعر الشعبي تخييلا رومانسيا (أغنية الشعب لهيردر) أو إحياء أدبيا، بينما كانت اللغة المحكية حقيقية، لغة المدن الحية، ببربريتها، وكلماتها الأجنبية، تعبيراتها التقنية، وألفاظها الجديدة. وتزامنت الحداثة الإسبانية في مراحلها الأولى مع رد فعل ما بعد الحداثة ضد اللغة الأدبية لحداثة أميركا الإسبانية الأولى، وتطور هذا التعارض فيما بعد إلى عودة إلى التراث الشعري الإسباني: الأغنية، الأغنية الشعبية، الكوبلا Copla. هكذا، أكد الإسبان الطبيعة الرومانسية للحداثة، ولكن في الوقت نفسه فصلوا أنفسهم عن شعر الحياة الحديثة. في أثناء تلك السنوات كتب فرناندو بيسوا، من خلال صوته، ألبارو دي كامبوس Alvaro de Campos :

" لا تقل لي ليس هناك شعر في أماكن العمل، وفي المكاتب! لماذا، إنه ينز عبر كل خلية وأتنفسه في هواء البحر، لأنه كله يتعلق بالسفن والملاحة الحديثة، لأن الفواتير والرسائل التجارية هي بدايات التاريخ..."

إذا كانت البداية تحتوي النهاية، فإن قصيدة كتبها أحد مستهلي الحداثة، خوسيه مارتي، تلخص هذه الحركة وتعلن الشعر المعاصر. القصيدة هاجس بموته في معركة (في ١٨٩٥)، وتذكره كتضحية، وبطريقة ما، كتضحية مرغوب بها.

بلدان

لي بلدان: كوبا والليل.
أم هل هما واحد؟ فيما تتلاشى عظمة الشمس
من السماء، أرى كوبا
ترتدي الحجب، تحمل قرنفلا،
كأرملة، هادئة، وحزينة.
كم أعرف جيدا تلك الزهرة النازفة
التي ترتجف في يدها! صدري
فارغ، مدمر وفارغ
حيث كان قلبي. حان الآن
وقت الموت. الليل جيد للتلفظ بكلمة وداع. الضوء
يعيق، والكلمات البشرية كذلك. الكون أكثر
فصاحة من الإنسان.
كمثل راية
تدعو إلى المعركة،
يتماوج لهب الشمعة الأحمر.

غامرا نفسي،
أفتح النوافذ. تويجات قرنفل ملتوية وصامتة، كمثل سحابة
تعتم السماء، تعبر الأرملة كوبا...

قصيدة دون قافية، تقاطعها وتكسرها وقفات للتأمل، صمت، تنفس بشري، وتنفس الليل. قصيدة - مونولوج تنجو من الأغنية، تدفق متقطع، تأويل مستمر للشعر والنثر. تظهر جميع الموضوعات الرومانسية في هذه السطور القليلة: البلاد والليل كامرأتين، الموت كامرأة وحيدة، الهاوية الوحيدة. الموت، الإيروتيكية، الهيام الثوري، الشعر: الليل، الأم الكبرى، تحويها جميعا. أم الأرض وأيضا الجنس والكلام الشائع. لا يرفع الشاعر صوته، يتحدث إلى نفسه حين يتحدث إلى الليل والثورة. لا الشفقة على الذات ولا الفصاحة. "حان الوقت الآن/ للبدء بالموت. الليل جيد / للتلفظ بكلمة وداع". تحولت المفارقة إلى قبول للموت. وفي مركز القصيدة، تدلت عبارة بين سطرين، معزولة في وقفة لتؤكد وزنها - عبارة لم يكن بوسع أي شاعر في لغتنا أن يكتبها قبله (لا غارسيلاسو، ولا سان خوان دي لا كروث، لا غونغورا، ولا كيبيدو، ولا لوبي دي بيغا) - لأنهم كانوا جميعا مهووسين بشبح الإله المسيحي ولأنهم جميعا واجهوا العالم كطبيعة ساقطة - عبارة تحتوي كل ما حاولت قوله: "الكون / يتحدث بشكل أفضل من الإنسان".

إغلاق الدائرة

أشير إلى التشابهات بين الرومانسية وطليعة القرن العشرين أكثر من مرة . كلاهما حركة للشبان ، تمردت ضد العقل ، وبناه وقيمه ، ومنحت مكانا رئيسيا لأهواء ورؤى الجسد : الإيروتيكية ، الحلم ، الإلهام ، وحاولت ، كل منهما ، أن تهدم الواقع المرئي كي تعثر على واقع آخر ، أو تبتكر واقعا آخر ، سحريا ، فائقا للطبيعة وأكثر من واقعي . سحرهما تطوران تاريخيان عظيمان ومزقهما بالتناوب : بالنسبة إلى الرومانسية ، الثورة الفرنسية ، الإرهاب اليعقوبي ، والامبراطورية النابليونية ، بالنسبة إلى الرواد ، الثورة الروسية ، عمليات التطهير ، وبيروقراطية ستالين الاستبدادية . ودافعت "الأنا" في الرومانسية كما في الطليعة ، عن نفسها من ضغط العالم ووجدت سلاحها الانتقامي في المفارقة أو في الفكاهة ، السلاحين اللذين يدمران المهاجم وكذلك المهاجم . ولقد أنكر العصر الحديث نفسه وأكدها في كلا الحركتين . وكان الفنانون والنقاد مدركين لهذه الروابط . وعرف المستقبليون ، والدادائيون ، والتطرفيون Ultraists والسورياليون أن رفضهم للرومانسية كان فعلا رومانتيكيا ، في التراث الذي دشنته السوريالية نفسها ، ذلك التراث الذي نشد الاستمرارية من خلال الرفض . لكن لم يدرك أحد منهم العلاقة الخاصة والفريدة بين الطليعة

والحركات الشعرية الأولى. كان الجميع مدركين للطبيعة التناقضية لرفضهم، أي حين ينكرون الماضي، فهم يطيلونه، وحين يفعلون ذلك يؤكدونه. ولم يلاحظ أحد منهم، أنه على عكس الرومانسية، التي افتتح رفضها هذا التراث، أنهى رفضهم تراثا. كانت الطليعة هي الخرق العظيم، ومعها انتهى "تراث ضد نفسه."

الثورة / إيروس / الميتا - مفارقة Meta - Irony

إن التشابه الأكثر لفتا للنظر بين الرومانسية والطليعة - ونقطة التشابه الحاسمة - هي محاولة توحيد الحياة مع الفن. لم تكن الطليعة، مثل الرومانسية، جمالية ولغة فحسب، وإنما إطار مرجعي إيروتيكي وسياسي، ورؤية، وفعل في الوقت نفسه: كانت أسلوب حياة. وظهر الإلحاح على تغيير الواقع عند الرومانسيين تماما كما ظهر عند الطليعة، وفي كلتا الحالتين، تفرع في اتجاهات متعارضة لكنها لا تنفصل: السحر والسياسة، الإغواء الديني والإغواء الثوري. لقد أحب تروتسكي الفن والشعر الطليعي ولكنه لم يستطع أن يفهم انجذاب أندريه بريتون إلى التراث القائم على عبادة القوى الخفية. ولم تكن معتقدات بريتون أقل غرابة ومعاداة للعقلانية من معتقدات يسينين Esenin . حين انتحر هذا الأخير، كتب تروتسكي في مقالة متألقة ومتعاطفة: "*عصرنا قاس، ربما كان الأقسى في تاريخ ما يدعى بالإنسانية المتحضرة. إن الثوري مسكون، بشكل وحشي، بإخلاص وطني لهذا العصر، وطنه الحقيقي الوحيد... كان شاعرا غنائيا يحدق إلى الداخل. عصرنا. من ناحية أخرى، ليس غنائيا. هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل سرجيو يسينين Sergio Esenin يرحل، بملء إرادته، وقبل الأوان، بعيدا عنا وعن هذا العصر*. (البرافدا، ١٩ كانون الثاني ١٩٢٦). بعد أربع سنوات، حدق ماياكوفسكي، الذي لم يكن شاعرا غنائيا، إلى الداخل وسكنته حماسة العصر الثورية، انتحر أيضا، وتوجب على تروتسكي أن يكتب

مقالة أخرى - هذه المرة في مجلة المعارضة الروسية (أيار ١٩٣٠). وكان التناقض بين العصر وشعره، بين الروح الثورية والروح الشعرية، أعمق وأكثر اتساعا مما ظن تروتسكي. وقدمت روسيا حالة مبالغا بها، وليست استثنائية، أخذ التناقض فيها شكلا وحشيا: الشعراء الذين لم يقتلوا أو الذين لم ينتحروا، أسكتوا بطرق أخرى. ويمكن اشتقاق سبب تلك المجزرة من التاريخ الروسي - ذلك الماضي البربري الذي أشار إليه تروتسكي ولينين أكثر من مرة - ومن قسوة ستالين القائمة على جنون الاضطهاد. ولكن الروح البلشفية، وريثة اليعقوبية وادعاءاتها المفرطة بخصوص المجتمع والطبيعة الإنسانية، تتحمل كذلك قدرا مساويا من المسؤولية.

ولقد عبر الشعراء عن رد فعل ضد هجوم الفلسفة النقدية على المسيحية من خلال تحولهم إلى القنوات التي بث من خلالها الروح الدينية القديمة، المسيحية، والسابقة على المسيحية.

التناظر، السيمياء، السحر، التوفيقية الشخصية، والميثولوجيات. وعبر الشعراء، في الوقت نفسه، وبقدر ما تأثروا بالحديث، عن ردْ فعل ضد الدين (وأنفسهم) من خلال سلاح المفارقة. وأشار تروتسكي أكثر من مرة - باهتياج ولكن ليس بدون بصيرة حقيقية - إلى عناصر دينية في أعمال أغلبية الكتاب والشعراء الروس في العشرينيات - ما يدعون بـ "الأصدقاء المسافرين". قال تروتسكي: قبل جميعهم ثورة أوكتوبر كحقيقة *روسية* بدلا من أن يقبلوها كحقيقة *ثورية*. ما هو روسي هو العالم التقليدي والديني للفلاحين وميثولوجياتهم القديمة، "الساحرات وأحجياتهن"، بينما الثورة هي العصر الحديث: العلم، التكنولوجيا، الثقافة المدينية. ولكي يدعم نقده اقتبس من *السنة العارية* لبيلنياك Pilniak : " تقول الساحرة

إيغوركا: روسيا حكيمة. الألماني ذكي، ولكنه أحمق. وماذا عن كارل ماركس؟ تسأل واحدة. أقول لك إنه ألماني، وبالتالي أحمق. ولينين؟ لينين فلاح، أعني بلشفي، وبالتالي يجب أن تكن شيوعيات... اختتم تروتسكي قائلا: "من المزعج جدا أن بيلينياك يختبئ وراء الساحرة إيغوركا ويستخدم لغتها الغبية، حتى ولو لصالح الشيوعيين". وتأصل التعاطف المبكر لأولئك الكتاب مع الثورة - كما هو صحيح بالنسبة للشيوعية المسيحية التي ينطوي عليها كتاب بلوك الاثنا عشر - "في مفهوم للعالم هو أقل ثورية، وأكثر آسيوية وإذعانا، وتلونا بالاستقالة المسيحية يمكن أن يتخيله المرء". ما الذي سيقوله تروتسكي لو قرأ شعراء وروائيي روسيا اليوم، المهووسين أيضا بمفهوم العالم، والخالين من الأوهام الثورية؟

ولم ير تروتسكي مجموعة دعمت الثورة بشكل علني على أنها ثورية، وهي فرع من المستقبلية التي تعود إلى ما قبل الثورة، ترأسها مایاكوفسكي، وأسست LEF. "إن المستقبلية تناقض الصوفية، والتأليه السلبي للطبيعة... وتفضل التكنولوجيا، والتنظيم العلمي، والآلات، والتخطيط الاجتماعي... وثمة علاقة مباشرة بين هذا "التمرد" الجمالي والتحريض على الفتنة الاجتماعية والأخلاقية". لكن التمرد المستقبلي أرسى جذوره في الفردية: "لم يأت رفض المستقبليين المبالغ به للماضي من البروليتاريا الثورية وإنما من البوهيمية العدمية". لهذا السبب رأى تروتسكي أن هيام مایاكوفسكي بالثورة، رغم إخلاصه، هو خطأ تجريدي: "إن مشاعره اللاواعية نحو المدينة، الطبيعة، العالم كله، ليست مشاعر عامل، وإنما مشاعر بوهيمي. و "عمود المصباح الأصلع الذي ينزع جوارب الشارع"، صورة عظيمة، تكشف الجوهر البوهيمي للشاعر أكثر من أي

شيء آخر". وشدد تروتسكي على "النبرة الشكية والمخزية لصور كثيرة" لماياكوفسكي، وبحدة ذهن تثير الإعجاب، أزاح الغطاء عن أصلها الرومانسي. "*أولئك المفكرون الذين، يحددون الصفة الاجتماعية للمستقبلية في أصولها* (يشير هنا إلى الفترة ما قبل الثورية التي كانت الجزء الأكثر إنتاجا في الحركة) *يضفون أهمية حاسمة على احتجاجاتها العنيفة ضد الحياة والفن البرجوازيين، ويكشفون براعتهم وجهلهم*..."

ولقد تحدث كل من الرومانسيين الفرنسيين والألمان دائما، وبسخرية لاذعة، عن الأخلاق البرجوازية وحياتها المحافظة بعناد. أطالوا شعرهم، وارتدى تيوفيل غوتييه Theophile Gautier صدرة حمراء. وقد انحدرت قمصان المستقبليين الصفراء، دون شك، من الصدرة الرومانسية التي أثارت رعب الآباء والأمهات. كيف نفشل في التعرف على المفارقة الرومانسية في "تشكيك ماياكوفسكي وأصدقائه وتمردهم الفردي"؟ وتمزق الأدب الروسي في تلك الحقبة بين "أحجيات الساحرات" وهجاء المستقبليين. تحولات، استعارات التناظر والتهكم.

وانتقل نقد تروتسكي إلى شجب الشعر، ليس باسم الثورة الروسية فحسب، وإنما باسم الروح الحديثة بعامة. لقد تحدث كثوري تبنى التراث الفكري للعصر الحديث "من ماركس إلى هيغل وآدم سميث وديفد ريكاردو". وتعود جذور هذا التراث إلى الثورة الفرنسية والتنوير. وهكذا اتخذ نقده للشعر - دون أن يعي ذلك بشكل كامل - شكل النقد الذي صبته الفلسفة والعلم، منذ القرن الثامن عشر، على الدين، والأساطير، ومعتقدات الماضي الأخرى. ولم يقدر الفلاسفة والثوريون أن يسمحوا بتناقض الشعراء الذين رأوا في السحر والثورة طريقتين متوازيتين، لكن غير

حاسمتين، لتغيير العالم. ورددت نصوص بلينياك، التي اقتبسها تروتسكي، ما قاله سابقا نوفاليس ورامبو: يعمل السحر بطريقة لا تختلف، بشكل جوهري، عن طريقة عمل الثورة. والمهمة السحرية للشعر الحديث، من بليك إلى زمننا الحاضر، هي الجانب الآخر وحسب، الجانب المظلم من مهمته الثورية. هنا يكمن أساس سوء الفهم بين الثوريين والشعراء، الذي لم يقدر أحد على حله. إذا تخلى الشاعر عن جانبه السحري، يتخلى عن الشعر ويصبح وظيفيا ودعائيا. لكن السحر يلتهم محبيه، والاستسلام الكامل لقواه يمكن أن يقود إلى الانتحار. ولقد سمى ماياكوفسكي إغراء الموت *ثورة*، ودعاه نرفال *سحرا*. لا ينجو الشاعر أبدا من الانسحار ذي الحدين، واهتمامه مثل اهتمام "السائر على حبل البهلوان عند هاري مارتينسون، هو "أن يبتسم فوق الهاوية".

ويذكرنا الهجوم على الشعر بشجب آخر: بالحماسة نفسها التي اعتادت الكنيسة في القرنين السادس والسابع عشر أن تعاقب بها المتصوفين، والطبقة المستنيرة، و المسالمين، اضطهدت الدولة الحديثة الشعراء. إذا كان الشعر هو الدين السري للعصر الحديث، فإن السياسة هي دينه العلني. وهو دين متنكر ومتعطش للدماء. كان اتهام الشعر اتهاما دينيا: حكمت الثورة على الشعر بأنه هرطقة. والنتيجة المضاعفة لغروب الدين التقليدي: إذا تجلت في الشعر رؤية دينية شخصية للإنسان وللعالم، يظهر، عندئذ، في السياسة الثورية، طموح ديني مضاعف لتغيير الطبيعة البشرية وتأسيس كنيسة كونية تستند إلى عقيدة كونية. من ناحية لدينا التناظر والمفارقة، ومن ناحية أخرى ينقل اللاهوت العقائدي والإيمان بالأخرويات إلى حقل التاريخ والمجتمع. وتعود أصول الدين السياسي الجديد - الدين الذي لا يعي نفسه -

إلى القرن الثامن عشر وكان ديفد هيوم هو أول من لاحظها وبين أن فلسفة معاصريه، وخاصة نقدهم للدين المسيحي، تحتوي مسبقا بذور دين آخر: إن عزو نظام إلى الكون واكتشاف إرادة وغائية في هذا النظام، يعني استحضار الوهم الديني مرة أخرى. ولكن على الرغم من أن هيوم تنبأ بذلك إلا أنه لم يعش ليشهد انحدار الفلسفة إلى سياسة وتجسدها في المعنى الديني للعالم، في الثورة. ولقد تبنى عيد ظهور الكونية الفلسفية الشكل الدوغمائي والدموي لليعقوبية وعبادتها للإلاهة: التي هي العقل.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن تترافق الحركات الثورية في القرن التاسع عشر والعشرين مع الدوغمائية والطائفية، وليس من قبيل المصادفة كذلك أن تتحول هذه الحركات، حالما استلمت السلطة، إلى محاكم تفتيش أدت، بشكل دوري، طقوسا تذكر بتضحيات الآزتيكيين، وإحراق المهرطقين.

بدأت الماركسية "كنقد للسماء"، أي لإيديولوجيات الطبقات الحاكمة، لكن اللينينية المنتصرة حولت هذا النقد إلى لاهوت إرهابي. هبط الفردوس الإيديولوجي إلى الأرض متنكرا بقناع اللجنة المركزية. وأعاد التوتر الدرامي المسيحي بين الإرادة الحرة والقضاء والقدر ظهوره في الجدل بين الحرية والحتمية الاجتماعية. وكمثل العناية الإلهية المسيحية، كشف التاريخ عن نفسه من خلال العلامات: "الظروف الموضوعية"، و"الموقف التاريخي" ومن خلال بعض النذر

والبشائر التي ينبغي على الثوري أن يؤولها. وهذا التأويل، مثله مثل التأويل المسيحي، متحرر وتحدده في آن القوى الاجتماعية التي تحل مكان العناية الإلهية. وانطوت ممارسة هذه الحرية الغامضة على مجازفات مهلكة:

أن تكون مخطئا، أن تخلط صوت الله بصوت الشيطان، يعني للمسيحي فقدان روحه، وللثوري، الشجب التاريخي. ومن هذا المنظور لا شيء أكثر طبيعية من تأليه القادة: وتبع تقديس النصوص بشكل حتمي تقديس مؤوليها ومنفذيها. وبهذه الطريقة لبيت الحاجة القديمة جدا إلى العبادة وإلى أن تعبد. والمعاناة من أجل الثورة تعادل عمليات التعذيب التي قبلها الشهداء المسيحيون بفرح. إن مبدأ - حكمة - بودلير، إذا ما عدل قليلا، يناسب القرن العشرين بشكل كامل: لقد حقن الثوريون السياسة بالوحشية الطبيعية للدين (انظر الحاشية ٣).

والتعارض بين الروح الثورية والروح الشعرية هو جزء من تناقض أكبر، هو تعارض الزمن الخطي للعصر الحديث مع الزمن الإيقاعي للقصيدة. التاريخ والصورة: يمكن أن يرى عمل جويس كلحظة في تاريخ الأدب الحديث، وبهذا المعنى هو تاريخ، ولكن الحقيقة هي أن مؤلفه تصوره كصورة - بدقة كصورة انحلال التسلسل الزمني للتاريخ في زمن القصيدة الإيقاعي. إلغاء الأمس، واليوم، وغدا في تمفصلات ومزاوجات اللغة. إن الأدب الحديث رفض هيامي للعصر الحديث ولا يقل هذا الرفض عنفا عند شعراء الحداثة الأنجلو - أميركية منه عند أعضاء الطليعة الأوروبية والأميركية اللاتينية. وعلى الرغم من أن السابقين كانوا رجعيين واللاحقين ثوريين، فقد وقفوا ضد الرأسمالية. وتعود مواقفهم المختلفة إلى مقت شديد مشترك لعالم البرجوازية. كان الرفض كليا أحيانا، كما في حالة هنري ميشو (مقطر السم / ترياق ضد زمننا - ضد الزمن). وكمثل أسلافهم الرومانسيين والرمزيين، وضع شعراء القرن العشرين، ضد الزمن الخطي للتقدم والتاريخ، الزمن اللحظي للإيروتيكية، أو الزمن الدوري

للتناظر، أو الزمن المجوف للوعي القائم على المفارقة. الصورة والمفارقة: رفض الزمن المتسلسل للعقل النقدي وتأليهه للمستقبل. لقد تكررت تمردات ومصائب الشعراء الرومانسيين والمنحدرين منهم في القرن التاسع عشر في زمننا. ذلك أننا عاصرنا الثورة الروسية، والديكتاتوريات البيروقراطية للشيوعية، وهتلر، والباكس أميركانا Pax Americana، كما عاصر الرومانسيون الثورة الفرنسية، ونابليون، والتحالف المقدس، وأهوال الثورة الصناعية الأولى.

إن تاريخ الشعر في القرن العشرين هو، كما كان في القرن التاسع عشر، تاريخ انهدامات، وتحولات، وارتدادات، وهرطقات، وضلالات. وتجد هذه الكلمات نظائرها في كلمات أخرى: الاضطهاد، المنفى، المصح، الانتحار، السجن، الذل، العزلة.

إن ثنائية السحر والسياسة هي إحدى الأضداد التي يحملها الشعر الحديث. الحب والمفارقة تعارض آخر. وتدور جميع أعمال مارسيل دو شامب Marcel Duchamp على محور التأكيد الإيروتيكي والنفي القائم على المفارقة. والنتيجة هي ميتا- مفارقة Meta-irony، نوع من التأجيل الحي، منطقة وراء التأكيد والنفي. تتمسك المرأة العارية، المنفرجة الساقين، في متحف فيلادلفيا، بمصباح غازي بإحدى يديها (كتمثال حرية ساقط)، تتكئ إلى الخلف على حزم من الأماليد وكأنها خشب محرقة، إزاء خلفية شلال (صورة مزدوجة للماء الأسطوري والكهرباء الصناعية) - وهذه هي أرتميس، فتاة الجدار التي شاهدتها أكتيون، مختلسة النظر، من خلال شق الباب. وتعمل الميتا-مفارقة بطريقة دائرية: إن فعل رؤية عمل فني يتحول إلى نوع من اختلاس النظر. والنظر إلى شيء ما ليس تجربة حيادية، إنما

اعتراف بالاشتراك في جريمة. تشعل نظرتنا النار في الشيء، وإذا حدقنا فإننا نحدق بنظرة غرامية. يظهر دوشامب القوة الإبداعية لنظرتنا، وفي الوقت نفسه جانبها الباعث على السخرية. أن تنظر يعني أن تنتهك - تتخطى - لكن الانتهاك لعبة إبداعية. حين ننظر من شق باب النقد الاجتماعي والجمالي نلمح العلاقة الغامضة بين التأمل الفني والإيروتيكية، بين المشاهدة والاشتهاء. نرى صورة رغبتنا وتحجرها في شيء - دمية عارية. قدم دوشامب في *الكأس الكبيرة* الأنثى الأبدية كمحرك احتراق وأسطورة الإلاهة الكبرى ودائرتها من الضحايا العابدين كدارة كهربائية: ولقد عولج فن العالم الغربي وصوره الإيروتيكية - الدينية، من العذراء مريم إلى ميلوسينا Melusina، - بالطريقة اللاشخصية لتلك النشرات الصناعية التي تظهر لنا كيف يعمل جهاز. وتعيد مجموعة فيلادلفيا انتاج الموضوعات نفسها، ولكن من منظور مختلف: ليس تحول الطبيعة (فتاة، شلال) إلى جهاز صناعي، وإنما تحول الغاز والماء إلى صورة ومشهد طبيعي إيروتيكي. إنه العكس، الصورة المرآة *للعروس التي عراها العزاب* - مسترقو النظر. والآخر: الشيء نفسه.

تقلل المفارقة من الشيء، أما الميتا- مفارقة فليست مهتمة بقيمة الأشياء وإنما بكيفية عملها. والطريقة التي تعمل بها رمزية: \ amor \ umor hamor ... تظهر الميتا- مفارقة كيف تكون الأشياء التي ندعوها "متفوقة" و"متدنية"، مستقلة بشكل متبادل وتجبرنا على سحب الحكم. ليست قلبا للقيم وإنما تحرير أخلاقي وجمالي يولد الاتصال بين الأضداد. يغلق دوشامب الفترة التي فتحتها المفارقة الرومانسية، وبهذا، يتماثل عمله مع

عمل جيمس جويس، ذلك الشاعر الآخر لنظريات نشأة الكون الكوميدية والإيروتيكية.

دوشامب: ناقد الذات التي تنظر والشيء الذي ينظر إليه. جويس: ناقد اللغة وما يتحدث من خلال اللغة - أساطير الإنسان وطقوسه. أصبح النقد عند كليهما خلقا، كما أراد مالارميه: فعل خلق يهدم العصر الحديث بوساطة أسلحته: النقد والمفارقة. أما الصناعة، الأكثر حداثة بين الحداثات، هي أيضا الأكثر قدما، الجانب الآخر من أسطورة الإيروتيكية. إنها نهاية الزمن المستقيم، أو بدقة أكبر، تقديم الزمن الخطي كإحدى تجليات الزمن. إن العملين الأكثر تطرفا و"حداثة" في التراث الحديث يحددان أيضا حده، نهايته. بهما وفيهما ينغلق العصر الحديث في لحظة تحققه.

الحب/ الفكاهة والسحر/ السياسة هما الشكل المختلف للتعارض المركزي: الفن / الحياة. واجه الشعراء الحديثون، من نوفاليس إلى السورياليين، هذا التعارض وفشلوا في تبديده أو إلغائه. واتخذت الثنائية أشكالا أخرى: العداء بين المطلق والنسبي، أو بين الكلمة والتاريخ. متحررا من وهم التاريخ، غير غونغورا الشعر *لأنه* لا يستطيع أن يغير الحياة، أما رامبو فقد أراد أن يغير الشعر *من أجل أن* يغير الحياة. ودائما ما ينسى أن Soledades، القصيدة التي حققت ثورة غونغورا الجمالية، انطوت على نقد ساخر وعنيف للتجارة، والصناعة، وخاصة اكتشاف وفتح أميركا، العمل البطولي الفذ والتاريخي العظيم الذي قامت به إسبانيا. وعلى العكس، مال شعر رامبو إلى أن ينسفح في العمل. وكانت *سيمياء الكلمة* طريقة شعرية لتغيير الطبيعة الإنسانية، والكلمة الشعرية تسبق الحدث التاريخي لأنها تنتج، أو كما يقول، "تجعل المستقبل متعددا". لا يثير الشعر حالات

سيكولوجية جديدة فحسب (كما تفعل الأديان والمخدرات) ويحرر الأمم (كما تفعل الثورات) ، إنما تقع على عاتقه أيضا مهمة ابتكار إيروتيكية جديدة وتحويل العلاقات العاطفية بين الرجال والنساء . أعلن رامبو الحاجة إلى " إعادة ابتكار الحب" ، وهي محاولة تذكرنا بفورييه Fourier . الشعر هو الجسر بين الفكر اليوتوبي والواقع ، اللحظة التي تصبح فيها الفكرة متجسدة . الشعر هو الثورة الحقيقية التي ستنهي التنافر بين التاريخ والفكرة . لكن رامبو ترك شهادة غريبة : *فصل في الجحيم*. بعد ذلك لجأ إلى الصمت .

في الطرف الآخر ، منكبا على المغامرة نفسها ، وفي إطار السعي المشترك ، بحث مالارميه عن تلك اللحظة التقاربية لجميع اللحظات التي يمكن أن يكشف فيها فعل نقي - القصيدة - نفسه . ذلك الفعل ، "النرد الذي يرمى في ظروف أبدية" ، هو واقع متناقض ، لأنه ، على الرغم من كونه فعلا ، هو أيضا قصيدة ، وليس فعلا . والمكان الذي تنكشف فيه القصيدة - الفعل هو اللامكان : ظروف أبدية ، أي غياب الظروف . يندمج المطلق والنسبي دون أن يختفيا . لحظة القصيدة هي انحلال جميع اللحظات ، ومع ذلك ، اللحظة الأبدية للقصيدة هي هذه اللحظة : زمن تاريخي فريد ، لا يكرر . ليست القصيدة فعلا خالصا ، إنها مصادفة - احتمال حدوث - انتهاك للمطلق . وليست عودة ظهور المصادفة ، بدورها ، إلا لحظة واحدة في دوران النرد ، بعد أن يصبح مؤتلفا مع دوران العوالم . يمتص المطلق المصادفة ، وتنحل فرادة هذه اللحظة في " كمية كلية في حالة تشكل" لا نهائي . وبالإضافة إلى كونها انتهاكا للكون القصيدة هي أيضا صنو الكون ، وكصنو للكون ، القصيدة هي الاستثناء .

إن تعارض الفن / الحياة، في أي من تجلياته، غير قابل للحل. والحل الوحيد هو علاج دوشامب وجويس البطولي والقائم على المفارقة. إن حلا كهذا ليس حلا: يصبح الأدب رفعا من شأن اللغة إلى نقطة الدمار، الرسم هو نقد للشيء المرسوم وللعين التي تنظر إليه. تحرر الميتا-مفارقة الأشياء من عبئها الزمني والعلامات من معانيها، تضع المتضادات في دوران، إنها رسوم متحركة كونية يتحول فيها كل شيء إلى نقيضه. وليس هذا عدمية وإنما فقدان للإتجاه، الجانب الذي يواجهنا هو الجانب البعيد عنا. تنحل لعبة الأضداد، دون أن تلغي التضاد بين الرؤية والاشتهاء، الإيروتيكية والتأمل، الفن والحياة. هذا هو جواب مالارميه الأساسي: إن لحظة القصيدة هي التقاطع بين المطلق والنسبي، جواب فوري يبطل نفسه دون توقف. ويعاود التضاد ظهوره دائما، كنفي للمطلق بالمصادفة، و كتبديد للمصادفة في المطلق، الذي، بدوره، يتلاشى. ووفقا لمنطق الميتا-مفارقة، اللاحل الذي هو نفسه حل، ليس حلا.

النموذج معكوسا

انفصلت الطليعة عن التراث القريب - الرمزية والمذهب الطبيعي في الأدب، والانطباعية في الفن التشكيلي - وهذه القطيعة هي استمرار للتراث الذي بدأته الرومانسية والذي كانت فيه الرمزية، والمذهب الطبيعي، والانطباعية لحظات انقطاع واستمرارية في الوقت نفسه. ولكن شيئا ما ميز الحركات الطليعية عن الحركات الأولى: عنف المواقف والبرامج، جذرية الأعمال. وعبرت الطليعة عن غضب ومبالغة جميع الاتجاهات التي سبقتها. ووضع العنف.والتطرف الفنان، على الفور، وجها لوجه مع حدود فنه أو موهبته: استكشف بيكاسو وبراك Braque امكانيات التكعيبية واستنفداها في غضون بضع سنوات، وترك باوند بعد بضع سنوات أخرى التصويرية، وانتقل تشيريكو Chirico من "الفن التشكيلي الميتافيزيقي" إلى الكليشة الأكاديمية بالسرعة نفسها التي انتقل بها غارسيا لوركا من الشعر التقليدي إلى الغونغورية الباروكية الجديدة، ومن هذه إلى السوريالية. وعلى الرغم من أن الطليعة شقت طرقا جديدة، تحرك الشعراء والفنانون عليها بسرعة وهكذا، بمجاورة لغياب الزمن، وصلوا إلى النهاية وارتطموا بحائط. كان العلاج الوحيد انتهاكا جديدا: افتح ثغرة في الحائط، اقفز فوق الهاوية. وتبع كل انتهاك عائق جديد، وكل عائق قفزة أخرى. وكانت الطليعة، المعتقلة دائما بين طرفين، توتر جمالية التحول التي استهلتها الرومانسية. التسريع والتكثير: تتوقف جمالية التحول عن التزامن مع حركة

الأجيال، وتحدث في حياة الفنان الفرد. بيكاسو مثال جيد: إن التعاقب المدوخ والمتناقض للقطيعة والاكتشافات، التي هي عمله، يؤكد الاتجاه العام للعصر بدلا من أن ينكره. وبينما ليس مؤكدا أن القرن العشرين أكثر غنى في الأعمال الشعرية والفنية من القرن التاسع عشر، فقد كان أكثر تنوعا وعشوائية بشكل لا ينكر. ولكن تسارع التغيير وانتشار المدارس والاتجاهات أدى إلى نتيجتين غير متوقعتين: إحداهما قوضت تراث التحول والقطيعة نفسه، والأخرى هي فكرة "العمل الفني". سأناقش الاثنتين فيما بعد.

التوتر والاتساع. رافق خطوة التغيير المتسارعة اتساع الفضاء الأدبي. وظهرت في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعض الآداب العظيمة خارج المجال الأوروبي المحصور: أولا الأدب الأميركي الشمالي، ثم السلافي، وخاصة الروسي، وفيما بعد آداب أميركا اللاتينية، الأمم الناطقة بالإسبانية والبرازيل. واكتشف شاتوبريان *الآخر* في الهند الأميركية الفلسفية والمحاربة، فيما اكتشف بودلير في إدغار آلن بو صورته العاكسة. كان بو هو الأسطورة الأدبية الأولى للأوروبيين، وأعني أنه الكاتب الأميركي الأول الذي حول إلى أسطورة. لكنها ليست في الحقيقة أسطورة أميركية. كان بو، بالنسبة لبودلير، الذي ابتكر الأسطورة، شاعرا أوروبيا ضل في البربرية الديموقراطية الصناعية للولايات المتحدة. كان بو، أكثر من ابتكار، كان ترجمة بودليرية. وفيما كان بودلير يترجم قصصه، كان يترجم نفسه: بو هو بودلير وديموقراطية اليانكي هي العالم الحديث، عالم " لا يقاس التقدم فيه باستخدام مصباح البنزين في الشوارع بل باختفاء آثار الخطيئة الأصلية". (ينكر هذا الرأي الغريب مقدما فكرة ماكس فيبر: ليست الرأسمالية نتاج الأخلاق البروتستانتية وإنما نتاج ما هو مضاد للدين

المسيحي. محاولة لكنس الأثر الأصلي) وستكون رؤية بودلير هي رؤية مالارميه والمنحدرين منه: بو هو أسطورة الأخ الضائع، لا في أرض غريبة ومعادية، وإنما في التاريخ الحديث. ولم ينظر هؤلاء الشعراء إلى الولايات المتحدة على أنها بلاد، لقد نظروا إليها على أنها العصر الحديث.

كانت الأسطورة الثانية هي وولت ويتمان، السراب المختلف. كانت عبادة الشاعر عبادة تشابهات، وكان الولع بويتمان اكتشافا مضاعفا: كان شاعر قارة أخرى وكان شعره قارة أخرى. مجد ويتمان الديموقراطية، والتقدم، والمستقبل. وإذا حكمنا على شعره من المظاهر، فإنه ينتمي إلى تراث يتعارض مع تراث الشعر الحديث: إذن كيف أحدث تأثيرا قويا جدا في عالم الشعر؟ احتوت بعض قصائد فيكتور هوغو على عنصر رؤيوي، ليلي أحيانا، عالجه من خلال فصاحته وتفاؤله السطحي. وويتمان؟ لقد دعي شاعر المكان – شاعر المكان المتحرك، كما ينبغي أن يضيف المرء. الأمكنة التي هي بدوية، مستقبل وشيك: اليوتوبيا والأميركية Americanism. ولكن أيضا، وبشكل أساسي، اللغة، الحقيقة المادية للكلمات، والصور، والإيقاعات. إن لغة ويتمان هي جسد، حضور متعدد جبار. بدونها سيبقى شعره خطابيا، ووعظيا، افتتاحية صحفية، وتصريحا. إنه شعر مليء بالأفكار والأفكار الزائفة، الأمكنة العامة والاستقصاءات الأصيلة، كتلة ضخمة مزبدة تتجسد فجأة في جسد لغوي نستطيع أن نراه، ونشمه، ونلمسه، وفضلا عن ذلك، نسمعه. يختفي المستقبل ويبقى الحاضر، حضور الجسد. كان تأثير ويتمان شاسعا واشتغل في جميع الجهات، وأثر في أمزجة متعارضة: كلوديل، وغارسيا لوركا.

غطى ظـل ويتمـان القـارة الأوروبيـة مـن لشبونة بيسـوا إلـى موسـكو المستقبليين الروس. وكان جد الطليعة الأوروبية والأميركيـة اللاتينيـة. ولقـد ظهر بيننا باكرا: قدمه خوسـيه مـارتي إلـى الجمهور الأميركي الإسباني فـي مقالة كتبت في ١٨٨٧ . ولقد أغري روبن داريو علـى الفـور كـي يحاكيـه - وكان ذلك إغراء مهلكا. ومنذ ذلك الوقـت، تـابع إثـارة كثير مـن شـعرائنا: المحاكاة، الإعجاب، الحماسة، القعقعة الفارغة.

كانت التجليات الأولى للطليعـة ذات نزعـة عالميـة ومتعـددة اللغـات. كتب مارينيتي Marinetti بياناته بالفرنسية وتجادل مـع المستقبليين - التكعيبيـين الـروس فـي موسـكو وسـينت بطرسـبورغ، وابتكـر خليبنيكـوف Khlibnikov ورفاقه زوم Zaum ، اللغة العابرة للعقـل، وعـرض دو شـامب فـي نيويـورك ولعـب الشـطرنج فـي بوينـس آيـرس، اشـتغل بكابيـا Picabia -وصـدم- فـي نيويـورك، وبرشـلونة، وبـاريس، لكنـه لعـب الملاكمـة فـي مدريـد مـع بطـل أسود، هو جاك جونسون، ودخل المكسيك في أثناء الثورة وأبحر علـى متن مركـب لنقـل البضـائع، واختفـى مثـل كويتشـالكوتل، فـي خليـج المكسـيك، وتحدثت قصائد سندرارس Cendrars الأولـى عـن عيـد الميـلاد فـي نيويـورك ورحلة لا متناهية على الترانس-سيبريان ، قـابل دييغـو ريبـيرا إليـا إهرنبـورغ Ilya Ehrenburg فـي مونتبارنـاس وعـاود الظـهور بعـد بضـع سـنوات علـى صفحـات خوليـو خورينتـو Julio Jurentio، وصـل بيثنتــي ويدبـرو Vicente Huidobro إلى باريس من تشـيلي، وتعـاون مـع الشـعراء الـذي كـانوا يسـمون أنفسـهم آنـذاك التكعيبيـين، وأسـس مـع بيـير ريفـردي ***Nord-Sud*** . وشـيد انفجـار الدادائيـة بـابل: آرب Arp ، فرنسـي - ألزاسـي Alsatian ، بـال Ball وهويلسنبيك Huelsenbeck ألمانيان، تزارا Tzara، روماني، وبيكابيا فرنسي -

كوبي . سادت الكتابة بلغتين - كتب آرب بالألمانية والفرنسية ، وأونغاريتي بالإيطالية والفرنسية ، وويدبرو بالإسبانية والفرنسية . وكشف ولعهم بالفرنسية الدور المركزي الذي لعبته الطليعة الفرنسية في تطور الشعر الحديث . وأذكر هذه الحقيقة المعروفة جيدا لأن بعض النقاد الإنكليز والأميركيين الشماليين يميلون إلى تجاهلها . وحتى الشعراء يفعلون ذلك . في مقابلة نشرت في ١٩٦١ قام باوند بهذا التأكيد المتطرف : "لو كانت باريس مثيرة للإهتمام كإيطاليا في ١٩٢٤ لكنت بقيت فيها" .

بدأت حركة الطليعة في اللغة الإنكليزية بعد وقت قليل من ظهورها في القارة وفي أميركا اللاتينية . كانت الكتب الأولى لباوند وإليوت حبلى بلافورغ وكوربيير Gorbiere ، وحتى غوتييه Gautier ، وبينما تريث شعراء اللغة الإنكليزية في التصويرية ، رد الفعل الجبان على الرمزية ، كان أبولينير ينشر *كحول Alcools* ، وماكس جاكوب يحول قصيدة النثر . وبدأت الفترة الإبداعية العظيمة للطليعة الأنجلو -أميركية مع النسخة النهائية من The Cantos (١٩٢٤) الأولى ، الأرض الخراب (١٩٢٢) ، وكتاب صغير ، غير معروف بشكل جيد ، لوليم كارلوس وليامز : كورا في الجحيم : ارتجالات . وتزامن كل هذا مع بداية المرحلة الثانية من الطليعة الأوروبية : السوريالية . نسختان متعارضتان من الحركة الحديثة ، واحدة حمراء والأخرى بيضاء .

كان هدفي هو أن أظهر ، أولا ، الطبيعة العالمية للطليعة ، وثانيا ، أن الشعر المكتوب باللغة الإنكليزية هو جزء من اتجاه عام . وتشير التواريخ كم هي غير محبذة التأكيدات بأن إليوت وباوند لم يعرفا إلا التراث الرمزي وانزلقا فوق أبولينير ، وريفردي ، والدادائية ، والسوريالية . وبين *هاري ليفن لي* تأثير أبولينير على إي*. إي .* كمنجز (الذي كان فضلا عن ذلك صديق

ومترجم أراغون)، وكانت العلاقة بين كورا في الجحيم وقصيدة أندريه بريتون وفيليب سوبو النثرية Le Champs magnetiques ، هي علاقة مباشرة، ولقد تعرف والاس ستيفنز، بشكل يثير الإعجاب، على الشعر الفرنسي المعاصر- لكننا نحب أن نعرف أكثر عن تلك الأعوام حين كان التغيير الكبير يحدث. كانت باريس باوند وإليوت هي باريس العالمية في الثلث الأول من القرن، التي كانت مسرحا لكثير من الثورات الفنية والأدبية. ولقد كررت قصة تأثير لافورغ في إليوت إلى حد التخمة. من ناحية أخرى لم يستكشف أحد التشابهات بين *الكولاج* الشعري لباوند وإليوت والبنية التوافقية لـ___ Merry–Zone,le musicien de Saint وقصائد أخرى لأبولينير. لا أحاول أن أنكر أصالة الشعراء الأنجلو-أميركيين، ولكنني أشير فحسب إلى أن حركة الشعر في الإنكليزية لا يمكن أن تفهم بشكل كامل إلا في سياق الشعر الغربي. وينطبق الأمر نفسه على الاتجاهات الأخرى: بدون الدادائية، التي ولدت في زوريخ - والرومانسية الألمانية كذلك - وترجمها تزارا إلى الفرنسية، سيكون من الصعب شرح السوريالية. وبدورهم، لا يمكن أن يشرح التطرفيون Ultraismo الإسبان والأرجنتينيون بدون ويدوبرو الذي لا يمكن أن يفهم دون ريفردي.

قدمت هذه الأمثلة لا لكي أقترح فكرة خطية عن التاريخ الأدبي وإنما لأؤكد تعقيده وصفته العابرة للقومية. الأدب لغة لا توجد معزولة وإنما في علاقة مستمرة بلغات وآداب أخرى. ولقد وجد إليوت أن اتحاد التجارب المتناقضة أو المنفصلة هو من خواص الشعراء الإنكليز الميتافيزيقيين. والخاصية ليست علامة حصرية: ظهر اتحاد الأضداد - المفارقة والاستعارة - في الشعر الأوروبي كله في ذلك الوقت. كان تفكك الحساسية والخيال

الناتج - الذكاء الكلاسيكي المحدث والفصاحة الميلتونية الرومانسية - ظاهرة أوروبية عامة أيضا. لهذا السبب استطاع إليوت أن يقول إن "جول لافورغ Jules Laforgue وتريستان كوربيير Tristan Corbiere في كثير من قصائده، هما أكثر قربا إلى مدرسة دون Donne من أي شاعر إنكليزي حديث". كان بوسعه أن يقول الشيء نفسه عن لوبيث بيلاردي، لو كان قادرا على قراءته. إن الشعر الغربي هو تناسج علاقات، نسيج مصنوع من النقوش التي يعقبها نسج الحركات في الداخل والخارج، الشخصيات - والمصادفة. وكررت اتجاهات الشعر الحديث في القرن العشرين نماذج - نقوشا - رسمت خطوطها الكبرى الرومانسية، ولكن، وكما سأحاول أن أظهر، بشكل معكوس إنه النقش نفسه - مقلوبا. وعاودت علاقة التضاد بين اللغات الجرمانية والرومانسية الظهور في القرن العشرين ومالت إلى التبلور في طرفين: الشعر المكتوب بالإنكليزية والشعر الفرنسي. سأشير إلى الشعر المكتوب باللغة الإسبانية، ليس لأنه تراثي الخاص فحسب، إنما أيضا لأن الفترة الحديثة، في إسبانيا كما هو الأمر في أميركا، هي من الفترات الأكثر غنى في تاريخنا. أدرك أنني أهمل حركات مهمة وشخصيات عظيمة: المستقبلية الإيطالية والروسية، التعبيرية الألمانية، ريلكه، بين Benn، بيسوا، مونتالي Montales، أونغاريتي، اليونانيين، البرازيليين، البولونيين... وستكون نظرة شاعر ألماني أو إيطالي مختلفة دون شك، أما وجهة نظري فهي منحازة، وهي وجهة نظر أميركي إسباني.

لم تكن الرومانسية رد الفعل الوحيد ضد الجمالية الكلاسيكية المحدثة فحسب إنما أيضا ضد التراث الإغريقي - اللاتيني، كما شكلته النهضة والأسلوب الباروكي. ولم تكن الكلاسيكية المحدثة، في النهاية، إلا تجليا

أخيرا وأكثر جذرية للتراث. وكانت العودة إلى التراثات الشعرية القومية – أو ابتكار هذه التراثات – تمثل رفضا للتراث المركزي للعالم الغربي. ولم يكن من قبيل المصادفة أن التعبيرات الأولى للرومانسية، سوية مع الرواية القوطية، والقروسطية، كانت استشراق Wathek والاتساع الأميركي /ــــــ Natchez . إن الكاتدرائيات، والأديرة، و mezquitas، والمعابد الهندية، والصحارى، والغابات الأميركية هي علامات رفض أكثر مما هي صور. وسواء كان حقيقيا أم متخيلا فإن كل صرح ومشهد طبيعي كان فرضية جدلية ضد طغيان روما وتراثها. وخصص بلانك في مقالاته في نقد الشعر وقتا قصيرا لتأثير الكلاسيكية الفرنسية المحدثة لأنه ذهب مباشرة إلى قلب المسألة: يكمن مصدر الشر الذي حل بالشعر الإسباني في القرن السادس عشر، واسمه النهضة الإيطالية. وكانت الفصاحة، والانتظام، والبتراركية تناسقا شوه الشعر الإسباني، وهندسة خنقته ومنعته من أن يكون نفسه. وكان ينبغي على الشعراء الإسبان أن يحرروا أنفسهم من الميراث ويعودوا إلى تراثهم الحقيقي لكي يستعيدوا وجودهم. لم يقل بلانكو وايت ما هو ذلك التراث، عدا أنه آخر. تراث مختلف عن ذلك الذي عبده بنفس القدر كل من غارسيلاسو Garcilaso، وغونغورا Gongora، وشعراء الكلاسيكية المحدثة. لقد حول التراث الرئيسي لأوروبا إلى إنحراف، إلى عبء غريب. كان العنصر الموحد – الجسر بين اللغات، الأرواح، والأمم: والآن هو غريب. وأطاعت الرومانسية النبض نفسه المبتعد عن المركز كما فعلت البروتستانتية. وهذا ليس انشقاقا، إنما انفصال، وخرق.

سبب كسر التراث الغربي الرئيسي ظهور كثير من التراثات، وقاد هذا التعدد في التراثات إلى قبول أفكار مختلفة عن الجمال، وأصبحت الجمالية

النسبية تبريرا لجمالية التحول - التراث النقدي الذي يؤكد نفسه من خلال إنكاره لذاته. وشكلت الحداثة الأنجلو - أميركية، في داخل هذا التراث، تحولا عظيما، وجدة عظيمة. ويتألف الخرق في أنه، بعيدا عن كونه رفضا للتراث الرئيسي، فهو بحث عنه. ليس ثورة وإنما إحياء. تغيير للاتجاه: إعادة اتحاد، وليس انفصالا. وعلى الرغم من أن إليوت وباوند اعتنقا أفكارا مختلفة حول ما كانه ذلك التراث في الحقيقة، كانت نقطة بدايتهما نفسها: وعي الانشقاق، الشعور بالقطيعة ومعرفتها. انشقاق مضاعف، شخصي وتاريخي. ذهبا إلى أوروبا لا كمغتربين وإنما بحثا عن أصولهما، ولم تكن رحلتهما ناجمة عن نفي وإنما عودة إلى المصدر، حركة في الاتجاه المضاد لويتمان: لا استكشاف أمكنة مجهولة، الماوراء الأميركي، وإنما العودة إلى إنكلترا. على أي حال، كانت إنكلترا، المنفصلة عن أوروبا منذ حركة الإصلاح، حلقة في سلسلة محطمة وحسب. وكانت أنجليكانية إليوت ميزة أوروبية، لكن باوند، الذي كان أكثر تطرفا، قفز من من إنكلترا إلى فرنسا ومن فرنسا إلى إيطاليا.

وتكرر ظهور كلمة "مركز" في كتابات كل من الشاعرين، وارتبطت بكلمة "نظام". أصبح التراث محددا بفكرة مركز نقطة التقاء كونية، نظام أرضي وسماوي. والشعر هو البحث عن هذا النظام وأحيانا رؤيته. ورأى إليوت أن الصورة التاريخية للنظام الروحي هي المجتمع المسيحي القروسطي. وظهرت فكرة العالم الحديث كتفكك للنظام المسيحي في العصور الوسطى عند كثير من كتاب تلك الفترة، لكنها أكثر من فكرة عند إليوت، إنها قدر رؤية. أحيانا يفكر بها وتعاش - شيء ما منطوق، لغة. وإذا كان العصر الحديث، كما يرى إليوت، تفككا للنظام المسيحي فإن مكان مصيره الفردي

كشاعر ورجل حديث هو بالضبط في هذا السياق التاريخي. وبدوره، يستدير التاريخ نحو الحقل الروحي. التاريخ الحديث هو سقوط، انفصال، تفكك، إنه أيضا طريقة التطهر والمصالحة. المنفى ليس منفى: إنه عودة إلى الزمن اللازماني. ويأخذ الدين المسيحي الزمن على عاتقه ليحوله. وهكذا تحولت شعرية إليوت إلى رؤية دينية للتاريخ الغربي الحديث.

كانت فكرة التراث، عند باوند، أكثر تشوشا وقابلية للتبديل. وهو مشوش لأنه مثل Griffin الذي شاهده دانتي في المطهر، يتغير بلا نهاية بينما يبقى دائما نفسه. وهنا ربما تكمن نزعته الأميركية العميقه: إن بحثه عن التراث المركزي هو شكل واحد، لتراث البحث والاستقصاء وحسب. إن تشابهه غير الطوعي مع ويتمان مدهش. ذهب كل منهما إلى ما وراء حدود الغرب، لكن أحدهما بحث عن دفق صوفي ووحدة وجود؟ (الهند) وبحث الآخر عن الحكمة التي ستجعل النظام السماوي ينسجم مع نظام الأرض (الصين). إن انسحار باوند بنظام كونفوشيوس هو مثل ذلك الانسحار الخاص بيسوعيي القرن الثامن عشر، وكمثل انسحارهم، هو هيام سياسي. اعتقد اليسوعيون أن صينا مسيحية ستكون نموذجا عالميا، أما باوند فقد حلم بولايات متحدة مكنفشة Confucianized .

إن الغنى والتعقيد الفائقين للعادة في المراجع، والإحالات، وأصداء حقب وحضارات أخرى يجعلان **The Cantos** نصا عالميا، بابلا شعرية حقيقية (لا شيء ازدرائيا في هذه التسمية). مع ذلك، ***The cantos***، هو، بشكل رئيسي، قصيدة أميركية شمالية مكتوبة للأميركيين الشماليين – وهذا لا يمنع أن تسحر الجميع. إن الحوادث المتنوعة، والشخصيات، والنصوص الحاضرة في القصيدة، هي نماذج يقترحها الشاعر لمواطنيه. وتهدف كلها

إلى تصنيع معيار كوني أو، بشكل أكثر دقة، إمبريالي. وفي هذا يختلف باوند عن ويتمان. أحدهما غنى مجتمعا قوميا، واسعا كعالم، سيحضر في النهاية الديموقراطية، وغنى الآخر أمة كونية، وريثة جميع الحضارات والإمبراطوريات. تحدث باوند عن العالم لكنه فكر دائما ببلاده، ببلاد باتساع العالم. كانت قومية ويتمان كونية أما كونية باوند فقد كانت قومية. هذا هو سبب عبادة باوند للنظام الأخلاقي والسياسي للكونفوشيوسية: رأى في الإمبراطورية الصينية نموذجا للولايات المتحدة. ومن هنا ينبع أيضا إعجابه بموسوليني. إن شبح جستينيان Justinian في ***The Cantos*** النهائية يتواشج أيضا مع هذه الرؤية الإمبريالية.

ليس مركز العالم هو المكان الذي تتجلى فيه الكلمة الدينية، كما عند إليوت، إنه مصدر الطاقة التي تحرك البشر وتجمعهم في قضية مشتركة. كان نظام باوند تراتبيا على الرغم من أن تراتبيته ليست مستندة إلى المال. ولم يكن هيامه هياما بالحرية أو المساواة بل بالعظمة والعدالة بين غير المتساوين. ولم يكن حنينه إلى المجتمع الزراعي حنينا إلى القرية الديموقراطية وإنما إلى المجتمعات الإمبراطورية القديمة كالصين وبيزنطة، الإمبراطوريتين البيروقراطيتين العظيمتين. ولم يتألف خطأه من رؤيته لهاتين الإمبراطوريتين وإنما بالأحرى من عدم معرفة الوزن الضخم للدولة الذي يسحق الفلاحين والصناع والتجار. وعبرت معاداته للإمبريالية كما في الكانتو الشهير ضد الربا، عن رعب مشروع من العالم الحديث، لكن شجبه للشراهة في تحصيل المال هو شجب الكنيسة الكاثوليكية القروسطية. لم يعرف باوند أن الرأسمالية ليست الربا، وليست خزنا للذهب البرازي، بل بالأحرى، هي السمو به وتحويله من خلال الجهد البشري إلى منتجات اجتماعية. إن خزن

المرابي يكبح الثروة، يقيلها من التداول، بينما منتجات الرأسمالية هي منتجة بدورها: تنتشر وتتكاثر. لقد تجاهل باوند آدم سميث، وريكاردو وماركس – ألف باء الاقتصاد وعالمنا.

وارتبط هوس باوند البرازي بكراهيته للربا وبمعاداته السامية، الوجه الآخر لهوسه هو عبادته الشمسية. البراز شيطاني ودنيوي، صورته، التي هي الذهب، مختبئة في أحشاء الأرض وفي الصناديق، الأحشاء الرمزية، للمرابي. لكن هناك صورة أخرى للبراز والتي هي تغيير المظهر: الشمس. إن الذهب البرازي للمرابي مخبأ في الأعماق، الشمس تضيء الأعالي للجميع. حركتان تضاديتان: البراز يعود إلى الأرض، الشمس تمتد فوقه. ولقد أدرك باوند، بشكل يثير الإعجاب، التضاد بين هاتين الصورتين لكنه لم ير العلاقة، العلاقة المتناقضة التي توحدهما. تحتل الشمس أو ما يرمز إليها –الطائر الشمسي، النسر– الموقع المركزي في جميع الرموز والرؤى الإمبراطورية. الإمبراطور هو الشمس. في النظام الإلهي– دوران الكواكب والفصول حول محور مضيء – هذه هي الطريقة لحكم الأرض. النظام، الإيقاع، الرقص: الانسجام الاجتماعي، العدالة التي من أولئك الذين في الأعلى، الولاء من الذين في الأدنى. إن حلم باوند، مثل حلم فورييه، ولو بمعنى متعارض، تناظر للنظام الشمسي.

رأى إليوت أن الشعر هو رؤية النظام الإلهي مرئيا من هنا، في عالم مطرود من التاريخ ودون هدف.

أما باوند فيرى أن الشعر هو الإدراك الفوري لانصهار النظام الطبيعي (الإلهي) بالنظام الإنساني. تصبح الحالات الفورية – اللحظات – متعلقة بالنموذج الأصلي: الأعمال العظيمة للبطل، قوانين المشرع، دروع

الإمبراطور، خلق الفنان، وقبل كل شيء، ظهور- شبح - الإلاهة "بحجاب غيمة باهتة أمامها/ كورقة محمولة في التيار". التاريخ هو الجحيم، المطهر، الفردوس، موطن الأرواح - اليمبوس - والشعر هو الحكاية، قصة رحلة الإنسان عبر عوالم التاريخ هذه. ليس القصة فحسب، إنه تقديم للحظات النظام والفوضى كذلك. الشعر هو paideia. إن تلك الرؤى الفورية التي تمزق ظلال التاريخ كما تمزق ديانا السحب، ليست أفكارا أو أشياء - إنها ضوء. "جميع الأشياء الموجودة هي أضواء". لكن باوند ليس مولعا بالتأمل، هذه الأضواء أفعال وتوحي بطريقة عمل.

كان البحث عن التراث المحوري بعثة استطلاعية، بالمعنى العسكري للكلمة. كان اكتشافا وجدلا عنيفا لأنه رأى تاريخ الشعر الإنكليزي انفصالا تدريجيا عن التراث المحوري. ويقول باوند في *ألف باء القراءة* إن تشوسر Chaucer يشارك في الحياة الفكرية للقارة وهو أوروبي، لكن شكسبير "هو مسبقا ينظر إلى الوراء، إلى أوروبا، من الخارج". وكان البحث اكتشافا لأنه وجد تلك الأعمال التي تنتمي بالفعل إلى التراث المحوري وكشف الروابط التي توحدها. إن الشعر الأوروبي هو كل متناسق وحي. تساءل باوند: "هل يستطيع أي شخص أن يتذوق أفضل قصائد دون إلا من خلال العلاقة مع كافالكانتي Cavalcanti ؟" وبدوره كشف إليوت عن أواصر قربى بين الشعراء الميتافيزيقين وبعض الرمزيين الفرنسيين، وبينهم وبين الشعراء الفلورنسيين في القرن الثالث عشر. ولم تكن إعادة بناء تراث يمتد من الشعراء البروفانسيين إلى بودلير مجلس أشباح وإنما كانت أعمالا حية. في المركز دانتي، المعيار، المحك. قرأ إليوت بودلير من منظور دانتي، وتحول ديوان *أزهار الشر* إلى تعليق حديث على *الجحيم* و*المطهر*. محشورا بين

الأوديسة و*الكوميديا الإلهية*، كتب باوند قصيدة ملحمية هي أيضا جحيم، مطهر، وفردوس. إن *الكوميديا الإلهية* هي قصيدة مجازية أكثر مما هي ملحمية، ورحلة الشاعر في العوالم الثلاثة هي أمثولة سفر *الخروج* وبدورها أمثولة لتاريخ السلالة البشرية من السقوط إلى يوم الحساب، التي هي فقط أمثولة لتجوالات الروح البشرية، وقد خلصها، في النهاية، الحب الإلهي. وموضوعها هو عودة الروح إلى الله، وموضوع ***The Cantos*** هو أيضا عودة، لكن إلى أين؟ ذلك أن الشاعر نسي في مسار الرحلة وجهته. إن مادة ***The Cantos*** ملحمية، والتقسيم الثلاثي لاهوتي. لاهوت دنيوي، سياسة فاشستية. إن فاشية باوند، قبل أن تكون خطأ أخلاقيا، كانت خطأ أدبيا، تشوش أنواع.

لم يكن جمع الشظايا عملا يتعلق بدراسة الآثار، وإنما شعيرة تكفير ومصالحة: تطهير ذنوب البروتستانتية والرومانسية. كانت النتائج متناقضة. في حملته لإعادة فتح التراث المحوري، ذهب باوند إلى ماوراء روما - إلى الصين ستة قرون قبل المسيح - بينما بقي إليوت في نقطة منتصف الطريق: الكنيسة الأنجليكانية. لم يكتشف باوند تراثا واحدا فحسب وإنما عدة تراثات وعانقها كلها، واختار مع التعدد التجاور والتوفيق. اختار إليوت تراثا واحدا فحسب، لكن رؤيته لم تكن أقل شذوذا. ولم يكن الشذوذ خطأ عند الشاعرين، وإنما كان مجسدا في أصل الحركة نفسها وفي طبيعتها المتناقضة. إذ تصورت "الحداثة" الأنجلو-أميركية نفسها "كإحياء كلاسيكي". وبهذا التعبير بالضبط افتتح هيوم مقالته "الرومانسية والكلاسيكية". ولقد عثر الناقد والشاعر الإنكليزي الشاب على جمالية وعلى عقيدة سياسية في أفكار تشارلز موراس Charles Maurass وحركته التي دعيت الفعل الفرنسي

L'Action Francaise . وأوضح هيوم الصلة بين الرومانسية والثورة : "كانت الرومانسية هي التي قامت بالثورة" . وهذا تبسيط مفرط : ذلك أن العلاقة الابتدائية بين الرومانسية والثورة بددت نفسها ، كما رأينا ، في المعارضة . كانت الرومانسية مضادة للعقلانية ، وفضح الإرهاب الثوري الرومانسيين بسبب طبيعته المنظمة وذرائعه العقلانية . وفي جوابه على كتاب المدام دي ستايل Madame de Stael ، " فيما يخص ألمانيا" أوضح هايني Heine أن روبسبير قطع رؤوس النبلاء بالمنطق نفسه الذي قطع به كانط أفكار الميتافيزيقيا القديمة . وعلى الرغم من أن هيوم انتقد الأفكار الجمالية للرومانسيين الألمان ، استرد موقفه وموقف دائرته روح الرومانسيين . وفي كليهما أصبحت كراهية الثورة حنينا إلى العالم المسيحي القروسطي . وهذه فكرة ظهرت عند جميع الرومانسيين الألمان وقد صاغها نوفاليس في مقالته "أوروبا والمسيحية" . وفي النهاية سيدرك المجتمع المسيحي الجديد ، الذي ولد من أنقاض أوروبا العقلانية والثورية ، الاتحاد الذي بشرت به الإمبراطورية الرومانية المقدسة . لقد كانت كلاسيكية هيوم ، وإليوت ، وباوند رومانسية لم تتعرف على نفسها هكذا .

ادعت حركة موراس أنها وريثة التراث الروماني - اليوناني والقروسطي : الكلاسيكية ، العقلانية ، الملكية ، الكاثوليكية . ونادرا ما يستحق أن يلاحظ أن هذا التراث ثنائي ومتناقض من أصوله : هيراقليطوس / بارمنيدس ، الملكية / الديموقراطية . فضلا عن ذلك ، أصبحت حركة الإصلاح الديني ، والرومانسية ، والثورة ، الجدول المركزي ، وذلك الذي رغب إليوت وأصدقاؤه أن يستعيدوه صار هامشيا . وكانت حركة موراس ، في تاريخ فرنسا الحديثة ، حركة فئة سياسية . ولم تكن هامشية

بالمعنى التاريخي فحسب ، وإنما كانت هرطوقية بالمعنى الديني في الوقت نفسه : شجبتها روما . ولـم تقص عقلانية موراس عبادة السلطة ولا قمع النقد بالعنف ومعاداة السامية . كانت كلاسيكيته الشعرية أسلوبا مهجورا . وفي أفكاره السياسية كان المفهوم الرئيسي هو مفهوم الأمة : وهذه فكرة رومانسية .

وفي بحثه عن التراث المحوري ، اتبع إليوت طائفة كانت انشقاقية في الدين وهامشية في علم الجمال . من الذي يقرأ قصائد موراس اليوم؟ لحسن الحظ ، كانت معاداة هيوم ، وإليوت ، وباوند للرومانسية أقل صرامة وتماسكا من معاداة موراس . ابتكروا تراثا شعريا أظهر الأسماء نفسها التي ادعى الرومانسيون أنها لهم . . كان الأكثر بروزا دانتي وشكسبير . استخدم كلاهما كسلاح ضد جمالية الكلاسيكية المحدثة وهيمنة راسين . ولـم يتلاءم إدخال الشعراء الميتافيزيقيين - التعبير الأوروبي عن الشعر الباروكي و المفهومي - مع ما فهم عادة من قبل الكلاسيكية . وبرر هيوم ، بتهذيب ، هذه الانتهاكات للأرثوذكسية الكلاسيكية : " أوافق أن راسين في الطرف الكلاسيكي الأقصى ، ... لكن شكسبير هو كلاسيكي الحركة" . وهذا ذكي لكنه غير مقنع .

وبينما كانت الحداثة الأنجلو-أميركية تعثر عل إلهام في موراس ، كان الشعراء الفرنسيون الشبان يكتشفون لوتريامون وساد . لـم يكن هناك فرق كبير . واصطبغت الحركات الطليعية الأوروبية بلون رومانسي قوي - من الأكثر جبنا ، مثل التعبيرية الألمانية ، إلى الأكثر رفعة ، كالحركتين المستقبليتين في إيطاليا وروسيا . كانت الدادائية والسوريالية رومانسية متطرفة ، على الرغم من أنه من الإطناب أن نقول هـذا . وبدت الشكلانية المتطرفة لبعض

هذه الاتجاهات - التكعيبية، البنائية Constructivism، التجريدية - أنها تكذب ادعائي. لكنها لم تفعل ذلك: ذلك أن شكلانية الفن الحديث هي رفض طبيعية وإنسانوية التراث الإغريقي- الروماني وأصولها التاريخية هي خارج تراث الغرب الكلاسيكي: الفن الأسود، الفن الذي يعود إلى ما قبل كولومبس، فن Oceania. وهي امتداد للشكلانية وأبرزت الاتجاه الذي بدأته الرومانسية: معارضة التراثات الأخرى مع التراث الإغريقي - الروماني. ودمرت الشكلانية الحديثة فكرة التمثيل - بمعنى الخداعية الإغريقية - الرومانية والنهضوية - وأخضعت الشكل البشري إلى أسلبة هندسة عقلانية أو عاطفية - حين لم تطرده من اللوحة. ولقد قيل إن التكعيبية رد فعل على رومانسية الإنطباعيين والفوفيين[1] Fauves. هذا صحيح، لكن التكعيبية واضحة في السياق المتناقض للطليعة فحسب، وبالطريقة نفسها Ingres مرئي حين يواجه مع ديلاكروا فحسب. إن التكعيبية هي، في تاريخ الطليعة، لحظة العقل لا الكلاسيكية. عقل هذياني، يتدلى فوق الهاوية، بين الفوفيين Fauves والسورياليين. أما بالنسبة لهندسات كاندينسكي وموندريان فقد كانت حبلى بعبادة القوى الخفية والهرمسية، وهكذا أطالت تيار التراث الرومانسي الأعمق والأكثر إلحاحا. وواصلت الطليعة الأوروبية، حتى في أكثر تجلياتها صرامة وعقلانية - التكعيبية والتجريدية - واصلت وفاقمت التراث الرومانسي. كانت رومانسيتها متناقضة، هياما نقديا ينكر نفسه، باستمرار، كي يبعث نفسه.

(١) - الفوفية مذهب في الرسم متحرر من قيود التقليد.

تكررت الأضـداد المتعلقـة بالفترة الرومانسية ولـو بشـكل معكـوس : شـجب بـاوند غونغـورا حـين أعلنـه الشعراء الإسبان الشبان معلما لـهم ، وبالنسبة لبريتون ، شـهدت الأساطير السـلتية ، وأسـطورة الكـأس المقدسـة ، على التراث الآخر - التراث الذي أنكر روما والذي لم تكن مسـيحيته كاملـة بتاتا - أما بالنسبة إلى إليوت لا تكتسـب تلـك الأسـاطير معنـى روحيـا إلا إذا اتصلـت بالمسيحية الرومانيـة فحسـب ، ورأى بـاوند فـي الشـعر البروفانســي نظريـة شـعرية وبدايـة تراثـا ، أمـا السـورياليون فقـد رأوا فيـه تراثـا إيروتيكيـا مدمرا - مدمـرا للأخـلاق البرجوازيـة بسـبب رفعـه مـن شـأن الزنـا ، ومدمـرا للجنس الحديـث غير الشرعي بسـبب احتفائـه بـالحب المحصـور بجماعـة محددة .

ورفعت الطليعة الأوروبية من شأن جمالية الاستثناء ، وأراد إليـوت أن يعيـد دمـج الاسـتثناء الدينـي -الانفصـال البروتسـتانتي - فـي نظـام رومـا المسيحي ، وحاول باوند أن يدخل فـي النظام الكونـي الخصوصيـة التاريخيـة التي هي الولايات المتحـدة ، أمـا الدادائيـة والسـوريالية فقـد دمرتـا القوانـين ، وكومتـا السـخرية والبصـاق على المذابـح والمؤسسـات ، ولقـد آمـن إليـوت بالكنيسة والملكية ، واقترح باوند للولايات المتحدة صورة القائد - الفيلسـوف - المخلـص ، مزيجـا مـن كونفوشـيوس ، مالاتيسـتا ، وموسـوليني . ورأت الطليعة الأوروبية أن المجتمع المثالي هو خارج التاريخ - إنه عـالم البدائيين أو اليوتوبيا المتحررة - بينما كانت النمـاذج الأصليـة التي قدمـها بـاوند وإليـوت هي الإمبراطوريات والكنائس ، النماذج التاريخية . أنكـرت الدادائيـة أعمـال الماضي والحاضر أيضا ، وأصر الشـعراء الأنجلـو-أميركيون على إعـادة بنـاء تراث ، ورأت السوريالية أن الشاعر يكتب ما يمليـه لاوعيـه ، وأن الشعر هـو

نسخة *الصوت الآخر* الذي يتحدث في كل منا حين نخمد صوت اليقظة، لكن الأنجلو-أميركيين رأوا أن الشعر تقنية، وسيطرة، وإتقان، ووعي، ووضوح في الفكر والأسلوب. ولقد كان بريتون صديقا لتروتسكي أما إليوت فقد كان ملكيا. إن قائمة التعارضات لا تنتهي. وظهر تناسق التعارضات حتى في "الأخطاء" السياسية والأخلاقية: توازنت فاشية باوند بستالينية أراغون ونيرودا.

آمن السورياليون بالقوة التدميرية للرغبة وبالوظيفة الثورية للإيروتيكية. ولم ير الإسباني ثيرنودا Cernuda في المتعة انفجارا جسديا فحسب بل نقدا أخلاقيا وسياسيا للمجتمع البرجوازي والمسيحي في الوقت نفسه:

فلتسقط التماثيل الغفل
أحكام الضباب
شرارة من تلك المتع الممنوعة
تتلألأ في ساعة الانتقام
وميضها يستطيع أن يدمر عالمكم.

ولم تكن التقييمات المختلفة للأحلام والرؤى أقل لفتا للنظر من تقييمات الإيروتيكية. ولاحظ إليوت أن دانتي "عاش في عصر كان البشر فيه لا يزالون يرون الرؤى... لا نملك شيئا سوى الأحلام ولقد نسينا أن رؤية الرؤى كانت مرة نوعا من الحلم أكثر أهمية وإثارة وتنظيما. نسلم أن أحلامنا تنبع من الأسفل: وربما نوعية أحلامنا تعاني جراء ذلك". رفع السورياليون من شأن الأحلام والرؤى لكنهم رفضوا أن يميزوا بينهما:

كلاهما ينبع من الأسفل، كلاهما وحي الهاوية - "الجهة الأخرى" للبشر والواقع.

ويمكن امتصاص جميع هذه الأضداد في واحد: أحدثت الطليعة الأوروبية قطيعة مع جميع التراثات وبهذا تابعت التراث الرومانسي، وأحدثت الحركة الأنجلو - أميركية قطيعة مع التراث الرومانسي. وعلى عكس السوريالية، كانت محاولة للإحياء أكثر مما هي ثورة. لقد فصلت الرومانسية والبروتستانتية العالم الأنجلوسكسوني عن التراث الديني والجمالي لأوروبا: كانت الحداثة "الأنجلو-أميركية" عودة إلى ذلك التراث. عودة؟ لقد أشرت سابقا إلى تشابهها غير المقصود مع الرومانسية الألمانية. وكان إنكارها للرومانسية رومانسيا كذلك: ولم تكن إعادة تأويل إليوت وباوند لدانتي والشعراء البروفانسيين أقل غرابة من قراءة الرومانسيين الألمان لكالديرون منذ قرن. لقد قلب موقع المصطلحات لكن المصطلحات لم تختف ولا العلاقة فيما بينها. كانت "الحداثة" الأنجلو-أميركية نسخة أخرى عن الطليعة الأوروبية كما كانت الرمزية الفرنسية والحداثة الأميركية الإسبانية نسختين عن الرومانسية. نسخ: استعارات - تحويلات.

لم يكن "الإحياء" الأنجلو-أميركي تغييرا أقل عمقا وجذرية من "الثورة" السوريالية. ولا تنطبق هذه الملاحظة على ***The Cantos*** *والأرض الخراب* فحسب وإنما أيضا على شعر والاس ستيفنز وإي. إي. كمنجز وويليم كارلوس وليامز. ولقد أشرت إلى إليوت وباوند، بشكل خاص، لأن هناك في كل منهما مظهرا نقديا ومبرمجا لا يظهر عند شعراء آخرين من ذلك الجيل. وبغض النظر عن هذا، لا أعتقد أن أولئك الشعراء أقل أهمية من باوند وإليوت. لكن كلمة "أهمية" غبية: كل شاعر هو مختلف، وفريد،

ولا يمكن استبداله. ولا يمكن أن يقاس الشعر، وهو ليس صغيرا أو كبيرا - إنه شعر ببساطة. ولولا الانفجارات اللفظية لكمنجز، الناجمة عن تركيزه الشعري المتطرف والمثير للإعجاب، ولولا شفافية وكثافة Esthetique du mal وقصيدة "ملاحظات حول تخييل مطلق" Notes Towards supreme Fiction لوالاس ستيفنز، التي نرى فيها، كما نرى في "المقدمة" ، أن تحديقة الشاعر (الذي هو الآن متحرر من الوهم ومتحرر من السرابات الطليعية والرومانسية) تتعقب جسرا بين "الذهن والسماء"، ولولا قصائد وليامز الذي، كما قال ستيفنز: منحنا "معرفة جديدة بالواقع"- لكان الشعر الأنجلو - أميركي الحديث بائسا جدا. ولكنا بائسين نحن أيضا.

بدأت العالمية الأنجلوأميركية كشكلانية جذرية - كولاجات شعرية عند باوند وإليوت، اختراقات لفظية وتمازجات عند كمنجز وستيفنز - ربطت الحداثة الأنجلوسكسونية بالطليعة الأوروبية واللاتينية الأميركية. وعلى الرغم من إعلانه بأنها رد فعل مضاد للرومانسية لم تكن الحداثة الأنجلو - أميركية إلا تجليا آخر للثنائية التي كانت حاضرة في الشعر الحديث منذ ابتدائها: التناظر والمفارقة. وتألف نسق باوند الشعري من تقديم الصور كعناقيد علامات على الصفحة: صور كتابية، ليست ثابتة بل متحركة، كمشهد طبيعي يرى من سفينة، بالأحرى، كمجموعة من النجوم تتحرك نحو أو بعيداً عن بعضها بعضاً على سطح السماء. وتستدعي كلمة "مجموعة" فكرة الموسيقى، وتستحضر كلمة "موسيقى"، بتداعياتها التي لا تحصى من التناسق الإيروتيكي للأجساد والتناسق السياسي بين البشر، اسم مالارميه. وهنا قلب التناظر. ولم يكن باوند مريداً لمالارميه، لكن الجزء الأفضل من أعماله ينتمي إلى التراث الذي استهل بـــ "*رمية نرد*" Un Coup de

de des . في *The Cantos* وفي *الأرض الخراب* يمزق النقد، والوعي القائم على المفارقة، التناظر باستمرار. مالاراميه ودوشامب: يتوقف التناظر عن كونه رؤية ويتحول إلى نسق من التغييرات الأساسية. وكمثل الثنائية الإيروتيكية - الصناعية، التهكمية -الأسطورية ل*الكأس الضخمة* جميع الشخصيات في *الأرض الخراب* هي حقيقية وأسطورية. إن قابلية عكس العلامات والدلالات: لدى دوشامب، أرتميس هي "صورة جدارية"، وتتحول صورة السماء و كواكبها الدائرة، عند إليوت، إلى مجموعة من أوراق اللعب نشرها على الطاولة قارئ بخت. وتقود صورة أوراق اللعب إلى صورة النرد، وهذه تقود مرة أخرى إلى صورة الكواكب. في مرآة الغرفة الفارغة الموصوفة في Sonnet en x يرى مالارميه النجوم السبع للدب الأكبر معكوسة كعلامات موسيقية سبع (مرة أخرى تاروت Tarot وسحر أوراق اللعب)، ينظر أندريه بريتون من نافذة غرفته ويرى الليل ليلا مضاعفا، ليلا أرضيا يرجع صداه ليل تاريخ القرن العشرين، إلى أن يضاء مربع النافذة تدريجيا، كمرآة مالارميه، وترتسم ملامح صورة: "سبع أزهار تتحول إلى سبع نجوم". إن دوران العلامات هو في الحقيقة حلزوني، يظهر في منحنياته التناظر والمفارقة، ويختفيان، ويعاودان الظهور، متنكرين وعاريين بالتناوب. إنها قصيدة جمعية غفل من الاسم كل منا يشكل مقطعا فيها، حفنة من المقاطع، بدلا من مؤلف أو قارئ.

ثمة تشابه مثير للفضول بين تاريخ الشعر الحديث في الإسبانية وفي الإنكليزية. غادر الشعراء الأنجلو - أميركيون والأميركيون الإسبان بلدانهم الأصلية في الوقت نفسه تقريبا، امتصوا اتجاهات جديدة في أوروبا،

حولوها وغيروها، وقفزوا فوق عائقين مرعبين (البيرينيه والقناة الإنكليزية)، اندفعوا إلى المشهد في مدريد ولندن، أوقظوا الشعراء الإنكليز والإسبان النائمين، واتهم المجددان (باوند ويدبرو) بهرطقات غالية - غاليكانية - وكزموبوليتانية، وقاد الاتصال مع تيارين شاعرين عظيمين من الجيل السابق (ييتس وخمينيث) إلى نزع أرديتهما الرمزية وكتابة أفضل قصائدهما في نهاية حياتيهما، وحالا أنتجت الكوزموبوليتانية الأولية السلب: أميركية وليامز وباييخو. التذبذبات بين العالمية والأميركية يعرض إغراءنا الثنائي، سرابنا المشترك، الأرض التي تركناها خلفنا، أوروبا، والأرض التي ننشدها، أميركا.

لقد نتج التشابه بين تطور الأدب الأنجلو - أميركي والأميركي الإسباني من حقيقة أن كليهما كتب في لغات مستنبتة. انفتح بيننا وبين التربة الأميركية فراغ كان علينا أن نملأه بكلمات غريبة. إن لغتنا ولغة الهنود والخلاسيين هي أوروبية وتاريخ آدابنا هو تاريخ علاقاتنا مع المكان الذي هو أميركا، ومع المكان الذي ولدت فيه الكلمات التي ننطقها وبلغت سن الرشد كذلك. كانت آدابنا، في البداية، إنعكاسا للآداب الأوروبية. على أي حال، ولد تنوع مفرد من الشعر الباروكي في أميركا الأسبانية في القرن السابع عشر لم يكن محاكاة مفرطة للنموذج الإسباني فحسب وإنما كان خرقا له في الوقت نفسه. كان الشاعر الأميركي الأول العظيم امرأة: سور خوانا أنيس دي لا كروث. كانت قصيدتها الحلم El Sueno (١٦٩٢) نصنا العالمي الأول، وكمثل باوند، وبورخس فيما بعد، بنت الراهبة المكسيكية نصا كبرج - مرة أخرى، برج بابل. وكمثال آخر على عالميتها، تظهر في قصائدها الأخرى الحاشية المكسيكية مع مزيج من اللغات: اللاتينية،

والقشتالية، والنهواتلية Nahuatle، والبرتغالية، والهندية، ولهجات الهجن والخلاسيين. إن أميركية سور خوانا، مثلها مثل أميركية بورخس، هي عالمية، وعبر ذلك النسل من العالمية عن نمط وجود مكسيكي وأرجنتيني كذلك. وإذا خطر لسور خوانا أن تتحدث عن الأهرامات، فهي تتذكر أهرامات مصر لا أهرامات تيوتيهواكان Teotihuacan، وإذا كتبت شيئا يتعلق بالأسرار الدينية مثل *نرسيس المقدس* El Divino Narciso، لا يشخص العالم الوثني بإله يوناني أو لاتيني وإنما بإله الحصاد الذي يعود إلى ما قبل كولومبس.

استمرت العلاقة بين العالمية والأميركية، بين اللغة المثقفة والمحكية، في الشعر الأميركي الإسباني منذ فترة سور خوانا أنيس دي لا كروث. وكانت العالمية بين الحداثيين الأميركيين الإسبان في نهاية القرن الأخير، الاتجاه السائد في المرحلة الأولى من الحركة، لكن، وكما أظهرت، قفز رد الفعل النقدي القائم على المفارقة - ما يدعى بما بعد الحداثة - على المحكية من قلب الحركة نفسها.

اتصف الشعر الأميركي الإسباني في حوالي ١٩١٥ بالإقليمية وحب الكلام التحادثي، ووجهة النظر المفارقة في العالم والإنسان. حين تحدث لوغونيس Lugones عن حلاق الزاوية، لم يكن ذلك الحلاق رمزا وإنما كائن مدهش لمجرد أنه حلاق الزاوية. ولقد مجد لوبيث بيلاردي Lopez Velarde قوة بذرة الخردل، مؤكدا أن صوته هو توأم القرفة. وتحول الأسلوب العامي في إسبانيا إلى إعادة غزو لشريان الشعر التقليدي الغني، القروسطي والحديث. وكذلك هيمنت لدى أنطونيو ماتشادو وخوان رامون خمينيث جمالية وأخلاقية الصغر الضخم: دخلت الأكوان في دوبيتات. واتبع بعض

الشبان مرات أخرى: رمزية منحت وعيا كلاسيكيا (ألهمه فاليري قليلا أو كثيرا)، مثل ألفونسو رييس Alfonso Reyes في *Ifegenia cruel* (١٩٢٤)، أو كتبوا شعرا مجردا من أي شيء صوري كما لدى خورخي غيين Gorge Guillen، لكن البديل المتطرف كان ظهور عالمية جديدة، لم تعد مقيدة بالرمزية، وإنما بالطليعة الفرنسية التي مثلها أبولينير وريفيردي. وكما في ١٨٨٥ كان البادئ أميركي إسباني: في نهاية ١٩١٦ وصل الشاعر التشيلي الشاب بيثنتي ويدوبرو Vicente Huidobro إلى باريس، وحالا فيما بعد، في ١٩١٨ في مدريد، نشر *Ecuatorial* و *Poemas Articos* وبهما ابتدأت الطليعة الإسبانية.

لقد عبد ويدوبرو وشتم. ألهم شعره وأفكاره كثيرا من الشعراء الشبان، وولدت حركتان من مثاله: التطرفية الإسبانية والأرجنتينية - اللتان رفضهما الشاعر بغضب واتهمهما بأنهما محاكاة لإبداعيته وكانت أفكار ويدوبرو شبيهة، بشكل واضح، بتلك الأفكار التي كان يطرحها ريفردي في تلك الأثناء: الشاعر لا ينسخ الواقع وإنما ينتجه. أكد ويدوبرو أن الشاعر لا يحاكي الطبيعة وإنما طريقة عملها: يصنع الشعر كما يصنع التراب والمطر والشجر. وقد قال وليامز شيئا مشابها في القطع النثرية الموزعة في الطبعة الأولى من الربيع وكل شيء (١٩٢٣) Spring And All : ينتج الشاعر موضوعات شعرية كما تنتج الكهرباء الضوء. لكن ويدوبرو يشبه كمنجز لا وليامز. كلاهما منحدر من أبولينير، غنائي وإيروتيكي، وكلاهما فضحته ابتكاراته التركيبية والطباعية. كمنجز أكثر تركيزا وكمالا، وويدوبرو أكثر شمولا. كانت لغته عالمية (وهذا أحد قيوده)، وأكثر بصرية من كونها منطوقة. ليست لغة أرض وإنما مكان خيالي. لغة طيار: الكلمات مظلات

تنفتح في منتصف الجو. قبل أن تلمس الأرض تنفجر وتنحل في انفجارات ملونة. قصيدة ويدوبرو العظيمة هي Altazor (١٩٣١) : النسر يهاجم المرتفعات ويختفي، وقد حرقته الشمس. تفقد الكلمات ثقلها الدلالي ولا تصير علامات وإنما آثار كارثة نجمية. وتعاود أسطورة لوسيفر الرومانسية الظهور في شكل الشاعر - الطيار.

كانت الطليعة الأميركية الإسبانية والحداثة الأنجلو - أميركية انتهاكاً لمعايير لندن ومدريد بقدر ما كانت هرباً من الإقليمية الأميركية. ولقد أحدث الشعر الشرقي، وخاصة الهايكو، تأثيراً مفيداً في الحركتين. وكان الشاعر الذي أدخل الهايكو إلى القشتالية هو خوسيه خوان تابلادا Jose Juan Tablada، الذي كتب أيضاً قصائد إيديوغرامية وتوافقية Simultaneist. لكن ثمة تشابهات شكلية. عالميات متضادة: ما بحث عنه باوند وإليوت في أوروبا كان العكس الدقيق لما بحث عنه ويدوبرو، وأوليبريو أوغوندو وبورخس تلك الأعوام. عادت الحداثة الأنجلو - أميركية إلى دانتي وإلى بروفانس Provence، بينما اقترح الأميركيون الإسبان أن يدفعوا بثورتهم ضد ذلك التراث إلى أقصاها. بالتالي، لم ينكر ويديبرو داريو مطلقاً: لم تكن إبداعيته رفضاً للحداثة وإنما لارتباكها المتطرّف.

اعتمدت الطليعة الأميركية الإسبانية في البداية على الفرنسية، كما اتبع الحداثيون الأوائل سابقاً البرناسيين والرمزيين. ومرة أخرى اتخذت الثورة ضد العالمية الجديدة شكل الأهلانية أو الأميركية. ومد كتاب قيصر باييخو الأول *رسل سود Los heraldos negros* (١٩١٨) خط لوغونيس الشعري. وتشرب ذلك الشاعر البيروفي في كتابه الثاني ***Trilce*** (١٩٢٢) الأشكال العالمية للطليعة وأضفى عليها صفة ذاتية. قام بترجمة حقيقية،

أوبتحويل بالأحرى. عدد ويدوبرو المضاد: شعر الأرض لا شعر الهواء، ليس عن أية أرض: تاريخ واحد، لسان واحد. البيرو: الرجال/ الأحجار / التواريخ. علامات هندية وإسبانية. لا يمكن أن تكون لغة ***trilce*** إلا لغة بيروفي، لكنه بيروفي شاعر رأى الإنسان داخل كل بيروفي، والشاهد والضحية داخل كل إنسان. كان باييخو شاعراً دينياً عظيماً. ولم تكن خلفية رؤية ذلك الشيوعي المحارب للعالم ومعتقداته فلسفة الماركسية النقدية وإنما الألغاز الأساسية لمسيحية طفولته وسلالته: العشاء الرباني، استحالة خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه، التوق إلى الخلود. وتؤثر بنا ابتكاراته اللفظية ليس بسبب تركيزها الفائق للعادة فحسب وإنما بسبب أصالتها في الوقت نفسه. أحيانا نتعثر بإخفاقاته في التعبير، وسماجته، وتلعثماته. وهذا لا يهم لأن أقل قصائده نجاحاً تنبض بالحياة.

وظهرت الأهلانية والأميركية عند كثير من شعراء تلك الفترة، كما في كتاب بورخس Fervor de Buenos Aires (١٩٢٣)، الذي يحتوي على سلسلة من القصائد المثيرة للإعجاب مكرسة للموت وللموتى. وظهر في الولايات المتحدة أيضاً رد فعل ضد عالمية إليوت، وهو رد فعل أعاد تمثيله بشكل رئيسي وليامز و"موضوعيون" مثل لويس زوكوفسكي Louis Zukofsky وجورج أوبن George Oppen. وكان التشابه، مرة أخرى، شكلياً. لقد اهتم الأنجلو-أميركيون، الذين واجههم مشهد العصر الصناعي، قبل كل شيء، بالشيء - هندسته، علاقاته الداخلية والخارجية، ومعناه - ونادراً ما شعروا بحنين إلى العالم ما قبل الصناعي. أما عند الشعراء الأميركيين الإسبان فقد كان ذلك الحنين عنصراً جوهرياً. ولم تظهر الصناعة عند الأنجلو-أميركيين كموضوع وإنما كسياق. ولم تكمن حداثة Propertius في موضوع المدينة

الكبيرة ولكن في حقيقة أن المدينة الكبيرة تظهر في قصائده دون أن يكون الشاعر قد تقصد التعبير عن ذلك: والأمر نفسه ينطبق على وليامز. من ناحية أخرى، استخدم بعض الشعراء الأميركيين الإسبان، مثل كارلوس بيثير Carlos Pellicer وخورخ أندرادي Gorge Andrade، مصطلحات واستعارات العالم الحديث ليرصدوا المشهد الطبيعي الأميركي: الطيران وفرجيل. ويوضح ذلك أن الأطلال التي تعود إلى ما قبل كولومبس احتلت المكان المفضل نفسه في شعر كارلوس بيثير مثل سحر الشيء الصناعي في قصيدة لزوكوفسكي.

تلخيص وقائع الحداثة: لقد تم تحويل الأسلوب العامي والأهلانية الأميركية في إسبانيا إلى تقليد -أناشيد وأغاني فيديريكو غارسيا لوركا ورافايل ألبيرتي. كان تأثير خوان رامون خمينيث حاسماً في توجيه الشعر الإسباني الشاب. على أية حال، في ١٩٢٧، الذكرى الثلاثمائة لوفاة غونغورا، تغير الاتجاه. ولقد أعاد داريو الاعتبار إلى غونغورا، وتبع ذلك دراسات قام بها نقاد متنوعون بارزون. لكن انبعاث الشاعر الأندلسي العظيم نتج عن ظرفين: الأول هو أنه بين النقاد كان شاعر هو ديامسو ألونسو Dianso Alonso، الثاني، عامل حاسم هو التزامن الذي لاحظه الشبان الإسبان بين جمالية غونغورا وجمالية الطليعة. في مختاراته الشعرية قصائد على شرف غونغورا (مدريد ١٩٢٧)، أكد الشاعر جيراردو دييغو أن الشيء المهم هو خلق أشياء لفظية (قصائد) "مصنوعة من الكلمات فحسب"، كلمات "ينبغي أن تكون مثل الرقى أكثر مما تكون مثل الأشعار". جمالية ريفردي وويدوبرو. وفيما بعد نشر جيراردو دييغو قصيدة بارزة Fabula de Equis y Zeda (١٩٣٢) مزجت فيها عناصر باروكية وإبداعية.

وارتبطت في أذهان الشعراء الإسبان شكلانية الطليعة مع شكلانية غونغورا. وليس غريباً أن ينشر خوسيه أورتيغا ي غاسيت في أثناء تلك السنوات ***La dehumanization del arte***.

قاوم الشاعران بدرو ساليناس وخورخي غيين كلاً من التقليدية والغونغورية المحدثة neo-Gongorism : ألف الأول نوعاً من المونولوج الغنائي الذي تنعكس فيه أشياء الحياة الحديثة- الأفلام، السيارات، التلفونات، المشعاعات - في المياه الصافية لإيروتيكية تنبعث من بروفانس.

كانت أعمال غيين، كما كتبت مرة، "جزيرة وجسراً". جزيرة، لأن غيين امتلك في وجه جيشان الطليعة عجرفة لا تصدق حين قال إن الكمال هو ثوري أيضاً، وهو جسر، لأن، " غيين كان من البداية معلماً لمعاصريه (غارسيا لوركا) بقدر ما كان معلماً لنا نحن الذين جئنا فيما بعد".

خرق جديد: الانفجار السريالي غير السوي. كان تأثير السريالية في البلدان الناطقة بالإنكليزية متأخراً وسطحياً (إلى أن ظهر فرانك أوهارا وجون آشبري في الخمسينات). على العكس، كان مبكراً وعميقاً جداً في إسانيا وأميركا الإسبانية. أقول "تأثيراً" لأنه، على الرغم من أنه كان هناك فنانون وشعراء شاركوا فردياً في فترات مختلفة من السريالية -بكابيا، بونويل، دالي، ميرو، ماتا، لام، سيزار مورو، وأنا - لم يكن هناك في أميركا أو إسبانيا نشاط سريالي بالمعنى الدقيق. (عدا المجموعة التشيلية ماندراغورا Mandragora ، التي أسسها في ١٩٦٣ بروليو أريناس، وغونزالو روخاس، وإنريك غوميز - كوريا وآخرون). وتبنى كثير من شعراء تلك الفترة الهذيان الحلمي وطرقاً سريالية أخرى، ولكن لا يمكن ادعاء أن نيرودا، وألبيرتي، أو أليكشاندره كانوا سرياليين، رغم حقيقة أن بحوثهم

واكتشافاتهم تزامنت، في لحظات معينة من نشاطهم الأدبي، مع أبحاث واكتشافات السريالية. وظهر في ١٩٣٣ كتاب لبابلو نيرودا هو الإقامة على الأرض في مدريد. كان كتابا جوهريا.

أثار شعر ويدبرو عنصر الهواء، وشعر باييخو عنصر التراب، وشعر نيرودا عنصر الماء. المحيط أكثر من البحيرة. كان تأثير نيرودا كطوفان انتشر وغطى أميالا وأميالا - مياه مضطربة، جبارة، ومسرنمة، وبلا حجم. وشهدت تلك الأعوام ثروة انتاج: شاعر في نيويورك (١٩٢٩)، الذي هو على الأرجح أفضل كتاب لغارسيا لوركا، احتوى على القصائد الأكثر توترا في هذا القرن، مثل "أنشودة إلى وولت ويتمان"، كتاب بيثنتي أليكثاندره خراب الحب (١٩٣٥)، الذي هو رؤية للهيام الإيروتيكي مظلمة ومترفة في آن، *Sermones y moradas* (١٩٣٠) لرافايل أليبرتي - يهدم لغة الدين ويهذي ويضع قنابل على المذابح وفي أماكنة الاعتراف، *ليليات Nocturnos* (١٩٣٣) لخابيير بياروتيا Xavier Villaurrutia الذي يحتوي على ست أو سبع من أفضل قصائد العقد - شعر رنان، متألق، مصاب بكرب، صوت الرغبة والقحط الثنائي، ريكاردو موليناري، الذي احتوت ظهيرته العليا الغريبة على أشجار دون ظل؛ لويس ثيرنودا، الذي قبل، بتألق وشجاعة كبيرة، ثنائية كلمة متعة - النقد الفعال للأخلاق الإجتماعية والباب الذي يقود إلى الموت. ولقد أنهت الحرب الأهلية الإسبانية والحرب العالمية الثانية تلك الفترة، وتبعثر الشعراء الإسبان وانعزل الشعراء الأميركيون الإسبان.

انتقل كثير من أولئك الشعراء من الثورة الفردية إلى الثورة الإجتماعية. انضم البعض إلى الحزب الشيوعي، وانضم آخرون إلى المنظمات الثقافية التي أسسها الستالينيون في ظل الجبهات الشعبية. كانت

النتيجة تلاعب البيروقراطيات الشيوعية بكثير من الدوافع الكريمة - رغم أن المرء لا يستطيع أن يتغاضى عن الانتهازية الجديرة بالاحتقار - واكتسب الشعراء "واقعية اشتراكية" ومارسوا شعر الدعاية السياسية والإجتماعية. وضحي بالبحث اللغوي والمغامرة الشعرية على مذابح الوضوح والفعالية. ولقد اختفى جزء كبير من تلك القصائد كما اختفت الأعمدة والإفتتاحيات الصحفية. لقد حاولت أن تشهد على التاريخ، لكن التاريخ محاها. ولم يكن الأمر الأكثر جدية هو فقدان التوتر الشعري وإنما الأخلاقي: الابتهالات والأناشيد لستالين، ومولوتوف، وماو - والإهانات المقفاة قليلا أو كثيرا ضد تروتسكي، تيتو، وبعض المنشقين الآخرين. واقعية مثيرة للفضول أجبرت مؤلفيها على أنفسهم بعد إلهامات خروتشوف. حقائق الأمس هي أكاذيب اليوم: أين الواقع؟ كانت تلك أزمنة "غياب الأمانة عند الشعراء"، كما دعاها بنجامين بيريت Benjamin Pe'ret.

حتى أولئك الذين رفضوا وضع الفن في خدمة حزب شجبوا التجريب والتجديد الشعريين بشكل كامل. ظهر توجه عام نحو النظام - التعليمية السياسية وبلاغة الكلاسيكية المحدثة. أما الطليعيون القدماء - بورخس وبياوروتيا - فقد كرسوا أنفسهم لكتابة سونيتات و قصائد من عشرة أبيات.

وثمة كتابان مثلا أفضل وأسوأ ما في تلك الفترة هما النشيد الشامل (١٩٥٠) لبابلو نيرودا، وكتاب خوسيه غوروستيثا الموت اللانهائي (١٩٣٩). الأول ضخم، مفكك، مشوش، رغم أنه موشى هنا وهناك بمقاطع من الشعر المادي العظيم: لغة مد ولغة ماغما. الآخر قصيدة تتألف من بضع مئات من الأشعار المرسلة، خطاب يقيد فيه الوعي الفكري تدفق اللغة إلى

أن يجمدها في شفافية صلبة: بلاغة وشعر عظيم. نقيضان: نعم العاطفية ولا التأملية. نصب تذكاري للهذر، ونصب تذكاري لقلة الكلام.

وفي حوالي ١٩٤٥ انقسم الشعر في لغتنا إلى أكاديميتين: أكاديمية "الواقعية الإشتراكية" وأكاديمية الطليعة التائبة. واستهلت التغيير بضعة كتب ألفها عدد متناثر من الشعراء. هنا ينتهي كل إدعاء بالموضوعية: حتى لو أردت، لا أستطيع أن أفصل نفسي عن تلك الفترة. سأحاول بالتالي أن أعيدها إلى بضع نقاط جوهرية. بدأت كلها بكتاب لخوسيه ليثاما ليما يقين (١٩٤٤). ثم في !١٩٤٩ (لا أستطيع تجنب ذكر ذلك) وفي ١٩٥١ نشرت *الحرية تحت الكلمة* و *النسر أو الشمس* وتقريبا في الوقت نفسه، ظهر في بوينس آيرس، كتاب إنريكي مولينا *العادات الجوالة على امتداد العالم* (١٩٥١). بعد ذلك بوقت قليل، نيكانور بارا، ألبيرتو غيري، خايمه سابينيس، ثنتيو بييتير Cintio Vitier، روبرتو خواروث... هذه الأسماء والكتب ليست كلها من الشعر الأميركي الإسباني المعاصر، إنها بدايته. أن نتحدث عن ما تبع ذلك، على الرغم من أهميته، يعني كتابة تاريخ.

البداية: عمل سري، غير مرئي تقريبا. في البداية لم ينتبه إليه أحد. لقد حدد، بحصر المعنى، عودة الطليعة. لكنها طليعة صامتة، متكتمة، متحررة من الأوهام. كانت طليعة *أخرى*، منتقدة لذاتها ومنخرطة في تمرد منعزل ضد الأكاديمية التي تحولت إليها الطليعة الأولى. لم تكن مسألة ابتكار، كما في ١٩٢٠، وإنما استقصاء. ولم تكن المنطقة التي جذبت أولئك الشعراء في الخارج أو الداخل. كانت المنطقة التي يندمج فيها الخارجي والداخلي: منطقة اللغة. لم يكن انهماكهم جماليا، كانت اللغة

بالنسبة للشعراء الشبان قدرهم وخيارهم بشكل متزامن ومتناقض. كانت شيئا معطى وشيئا نصنعه - ويصنعنا.

اللغة هي الإنسان ولكنها العالم كذلك. إنها التاريخ والسيرة: الآخرون ونفسي.

تعلم الشعراء الجدد أن يتأملوا أنفسهم ويسخروا منها: كانوا يعرفون أن الشاعر هو أداة اللغة وأن العالم لم يبدأ بهم، لكنهم لم يعرفوا إن كان سينتهي بهم. عاشوا عبر النازية، والستالينية، والإنفجارات النووية في اليابان. وكان فقدانهم للإتصال مع إسبانيا كليا تقريبا، ليس بسبب الظروف السياسية وحسب إنما أيضا لأن شعراء إسبانيا، في فترة ما بعد الحرب، بقوا في بلاغة الشعر الإجتماعي أو الديني. جذبتهم السريالية، الحركة المنحسرة، واعتبروا الشعراء الأنجلو - أميركيين ما بعد الحداثيين مثل لويل، وأولسون، وبيشوب، وغينسبرغ معاصريهم الحقيقيين، حتى ولو أن (أو لأن) الأنجلو-أميركيين كانوا يبزغون من الاتجاه المضاد للتراث الحديث. اكتشفوا أيضا شعر بيسوا، ومن خلاله أعمال الشعراء البرازيليين والبرتغاليين من جيلهم مثل كابرال دي ميلو Cabral de Melo. وعلى الرغم من أن بعضهم كان كاثوليكيا وبعضهم الآخر شيوعيا، مالوا إلى الإنشقاق الفردي، متذبذبين بين التروتسكية والفوضوية. لكن سيكون من السخف أن نضع رقعا إيديولوجية عليهم. شعروا، بسبب الأحداث العالمية، بالرعب من احتمال نهاية الحضارة الغربية، وانجذبوا، في الوقت نفسه، إلى الشرق، والبدائيين، أو أميركا ما قبل كولومبس. كان إلحادهم تمردا دينيا ضد الدين ومثل بحثا عن الإيروتيكية أكثر مما مثل بحثا عن شعرية جديدة. وحدد معظمهم أنفسهم بكلمات ألبير كامي من تلك الأيام التي بعد الحرب

العالمية الثانية : Solitaire Solidaire . كان جيلا قبل الهامشية وجعل منها وطنه الحقيقي .

ولد شعر ما بعد الطليعة (لا أعرف إذا كان ينبغي أن نقبل هـذا الإسم الذي بدأ بعض النقاد يمنحونه لنا) كتمـرد صـامت قـام بـه رجـال معزولـون . ابتـدأ كتغيـير بـلا حـس ، أظـهر نفسـه بعـد عشـر سـنوات ، علـى أنـه لا يلغى . وأحدث جيلي قطيعة مستمرة بين العالمية والأميركيـة : حكـم علينـا أن نكون أميركيين كما كان محكومـا علـى آبائنـا وأجدادنـا أن ينشـدوا أميركـا أو يهربوا منها . كانت قفزتنا في دواخلنا .

أفول الطليعة

اشتغلت معارضة العصر الحديث داخل العصر. وكان نقد هذا العصر إحدى وظائف الروح الحديثة، وأكثر من ذلك، إحدى طرق تحققها. العصر الحديث هو عصر الإنشقاق ونفي الذات، إنه عصر النقد. ربط نفسه بالتغيير، وربط التغيير بالنقد، وكليهما بالتقدم. والفن الحديث حديث لأنه نقدي. انكشف نقده في اتجاهين متناقضين: رفض الزمن الخطي للعصر الحديث ورفض نفسه. بالأول أنكر الحداثة، وبالثاني أكدها. مواجها بالتاريخ وتغيراته سلم بالزمن اللازماني للأصول، اللحظة، أو الدورة، مواجها بتراثه الخاص، سلم بالنقد والتغيير. قامت جميع الحركات الفنية برفض الحركات التي سبقتها، واستمر الفن من خلال جميع حالات الرفض. ولم يستطع الرفض أن يصل إلى كماله إلا داخل الزمن الخطي، ولم يكن بوسع النقد أن يكون خلاقا إلا في عصر نقدي كعصرنا. ونشهد اليوم تحولا آخر مهما: بدأ الفن الحديث يفقد قوى سلبه. وكانت حالات رفضه، لبعض السنوات، تكرارا طقسيا: تحول التمرد إلى نهج، والنقد إلى بلاغة، والانتهاك إلى طقس. لم يعد السلب إبداعيا. وهنا لا نقول إننا نشهد نهاية الفن: نحن نحيا نهاية *فكرة الفن الحديث*.

لا يمكن فصل الفن والشعر عن مصيرنا الأرضي: لقد وجد الفن حالما أصبح الإنسان إنسانا وسيستمر إلى أن يختفي الإنسان. لكن أفكارنا عن ماهية الفن، من الرؤية السحرية للبدائيين إلى بيانات السرياليين، كثيرة

ومتنوعة كثرة وتنوع المجتمعات والحضارات. وأظهر إنحدار *التراث ضد نفسه* الأزمة العامة للعصر الحديث. ولقد تطرقت إلى هذا الموضوع في بعض كتاباتي: سأكتفي هنا بسرد مقتضب للعلامات الأكثر وضوحا. ولقد أظهرت في الفصلين الأولين أن فكرتنا عن الزمن هي نتيجة عملية نقدية: تبع هدم الأبدية المسيحية علمنة قيمها ونقلها إلى فئة أخرى للزمن. وبدأ العصر الحديث بثورة المستقبل. كان المستقبل من منظور الديانة المسيحية القروسطي فانيا: وكان يوم الحساب هو الذي سيلغيه ويأتي بحاضر أبدي. لكن العملية النقدية للعصر الحديث عكست الكلمات: كانت الأبدية الوحيدة المعروفة للإنسان هي أبدية المستقبل. وبالنسبة للمسيحي القروسطي استراحت الحياة الأرضية في الوجود الأبدي للخير أو الشر، أما بالنسبة للإنسان الحديث الحياة تقدم لا ينتهي نحو المستقبل. وهنا تكمن قمة الكمال، ليس في حياة أبدية وراء الموت. الآن، في النصف الثاني من القرن العشرين، تشير علامات معينة إلى تغير في نسق معتقداتنا. لقد برهن مفهوم التاريخ كسيرورة تعاقبية وخطية على أنه غير متماسك. وهذا الاعتقاد ولد مع العصر الحديث، وإلى حد ما، كان مبرر وجوده. إن تخفيف قبضته يكشف عن تمزق في قلب الوعي المعاصر: بدأ العصر الحديث يفقد الإيمان بنفسه.

ولا يصمد الإيمان بالتاريخ كتقدم مستمر أمام بعض التعثرات والسقطات. لقد أخذ أشكالا كثيرة: أحيانا كان تطبيقا ساذجا للداروينية على مناطق التاريخ والمجتمع، وفي أوقات أخرى كان رؤية للسيرورة التاريخية كتحقيق تقدمي للحرية، والعدالة، والعقل، أو قيمة أخرى مشابهة. وفي حالات أخرى، تمت مماثلة التاريخ مع تطور العلم

والتكنولوجيا أو مع هيمنة الإنسان على الطبيعة أو مع كونية الثقافة. امتلكت جميع تلك الأفكار شيئا مشتركا: إن قدر الإنسان هو أن يستعمر المستقبل. وفي السنوات الأخيرة طرأ تغير حاد: بدأ البشر ينظرون إلى المستقبل بخوف، وما بدا في الأمس على أنه عجائب التقدم أصبح كوارثه. لم يعد المستقبل مخزن الكمال وإنما الرعب. ورأى علماء الديموغرافيا، وعلماء البيئة، وعلماء الإناسة، والفيزيائيون، وعلماء الوراثة المسير نحو المستقبل كمسير نحو الدمار. وتنبأ البعض باستنفاد الموارد الطبيعية، آخرون تنبأوا بتلوث الأرض، وبالإنفجار النووي. ودعيت إنجازات التقدم الجوع، التسمم، التطاير. ولست مهتما هنا إن كان مبالغا بهذه النبوءات أم لا: أريد أن أؤكد أنها تعبيرات عن شك عام في التقدم. ومن الجدير بالذكر أن كلمة "تغيير" حظيت، في بلد كالولايات المتحدة الأميركية، باحترام خرافي.

كانت الماركسية، على الأرجح، التعبير الأكثر تماسكا وجسارة عن التاريخ كسيرورة تعاقبية خطية. كانت أكثر تماسكا لأنها نظرت إلى التاريخ كسيرورة بقسوة الخطاب العقلاني، وكانت أكثر جسارة لأن الخطاب يشمل ماضي وحاضر ومستقبل السلالة البشرية. علم ونبوءة. بالنسبة لماركس التاريخ سيرورة مفردة - والأمر نفسه للبشرية كلها - تتكشف كمتتالية رياضية أو فرضية منطقية. وتولد كل فرضية نموا تراكبيا ينحل في توكيد. بهذه الطريقة، ومن خلال حالات السلب والتناقضات، تنشأ مراحل جديدة. التاريخ مثل نص ينجب نصوصا أخرى. إنها سيرورة تتحرك من شيوعية المجتمع البدائي إلى شيوعية العصر الصناعي. أبطال هذه السيرورة هم الطبقات الإجتماعية، التي تحركها قوة تقنيات انتاجية مختلفة. وتحدد كل فترة تاريخية تقدما على السابقة، وفي كل فترة تأخذ طبقة اجتماعية

على عاتقها تمثيل الإنسانية كلها: الأرستقراطية الإقطاعية، البرجوازية، البروليتاريا. الأخيرة تجسد الحاضر التاريخي ومستقبله الفوري.

أكرر ما نعرفه جميعا: إذا كانت تحولات القرن العشرين العنيفة تؤكد رؤية ماركس، فإن الشكل الذي جاءت فيه ينكر العقلانية المفترضة للسيرورة التاريخية. .

وأظهر غياب الثورات البروليتارية في البلدان الصناعية الأكثر تقدما، كالثورات على أطراف العالم الغربي، أظهر أن الإيديولوجيا الماركسية لم تسبب ثورة العمال العالمية ولا الإشتراكية الحقيقية وإنما الإنبعاث القومي لروسيا، والصين، وبلدان أخرى بطيئة في الوصول إلى عصر الصناعة والتكنولوجيا فحسب. ولم يكن العمال أبطال تلك التغييرات، وإنما طبقات وجماعات وضعتها النظرية الماركسية على الحافة أو في مؤخرة العملية التاريخية، وهي تتألف من المفكرين، والفلاحين، والطبقة الوسطى الأدنى. وكان الأمر الأكثر جدية هو أن الثورات التي انتصرت تحولت إلى أنظمة شاذة من وجهة نظر ماركسية دقيقة. إنه انحراف تاريخي أن تأخذ الاشتراكية شكل الديكتاتورية من قبل طبقة بيروقراطية جديدة أو طبقة منغلقة. ويختفي الانحراف إذا تخلينا عن مفهوم التاريخ كسيرورة تعاقبية خطية مباركة بعقلانية متأصلة. ومن الصعب أن نفعل ذلك لأن التخلي عن هذا المعتقد ينطوي على نهاية ادعاءاتنا حول صياغة المستقبل. مع ذلك، إنه ليس تخليا عن الاشتراكية *كخيار حر*، أخلاقي وسياسي، وإنما عن فكرة الاشتراكية *كمنتج ضروري* للسيرورة التاريخية.

ينبغي أن يبدأ نقد الانحرافات السياسية والأخلاقية لـ "الاشتراكيات المعاصرة" بنقد انحرافاتنا الفكرية. ليس التاريخ مفردا: إنه

متعدد، إنه تاريخ البشر والتنوع المدهش للمجتمعات والحضارات التي أبدعها البشر. إن مستقبلنا - فكرتنا عن المستقبل - يترنح ويتردد: يجعل تعدد الماضي فكرة تعدد المستقبلات قابلة للتصديق.

وكذبت الثورات، التي نشبت في البلدان النامية، وعلى حافة المجتمعات الصناعية، المعارف السبقية للفكر الثوري، وشوهت التمردات والفوضى في البلدان الأكثر تقدماً، بشكل أكثر شمولاً، فكرة المستقبل التي صنعها لأنفسهم المؤمنون بمذهب النشوء، والليبراليون، والبرجوازيون التقدميون. ومن اللافت للنظر أن الطبقة التي عُزيت إليها المهمة الثورية، لم تشارك في الاضطرابات التي هزت المجتمعات الصناعية. ومؤخراً تم القيام بمحاولة لشرح هذه الظاهرة بمقولة اجتماعية جديدة: لم تمر المجتمعات الأكثر تقدماً، وخاصة الولايات المتحدة، من العصر الصناعي إلى العصر ما بعد صناعي. ويتصف هذا الأخير بالأهمية التي تُضفى على ما يمكن أن يُدعى انتاج المعرفة المنتجة، بصيغة أخرى، نمط انتاج جديد تشغل فيه المعرفة الموقع المركزي. ولم تنتج الصراعات الاجتماعية في المجتمع ما بعد الصناعي عن التضاد بين العمل ورأس المال، وإنما عن صراعات في المجالات الثقافية والدينية والنفسية. هكذا، يمكن أن ترى اضطرابات الطلاب في العقد الأخير كتمرد غريزي ضد العقلنة المفرطة للحياة الاجتماعية والفردية التي يتطلبها نمط الانتاج الجديد. أنماط مختلفة من الوحشية: لقد عاملت الرأسمالية البشر كآلات، وعاملهم المجتمع ما بعد الصناعي كعلامات.

ومهما كانت قيمة دراسات المجتمع ما بعد الصناعي، الحقيقة هي أنه، على الرغم من رفضها العادل والهيامي للأوضاع القائمة، فإن التمردات في البلدان المتطورة لم تقدم برامج لتنظيم مجتمع المستقبل. لهذا السبب أسميها

تمردات، لا ثورات. هذه اللامبالاة إزاء الشكل الذي ينبغي أن يتخذه المستقبل ميز الراديكالية الجديدة عن الحركات الثورية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. الثقة بقوة التلقائية توجد في نسبة عكسية للقرف من البنى النسقية. إن تكذيب المستقبل بفراديسه الهندسية واسع الانتشار. وليس هذا غريباً: باسم بناء المستقبل امتلأ نصف الكوكب بمعسكرات الأشغال الشاقة. وتمرد الشبان هو حركة رفض للحاضر، لكنه ليس محاولة لبناء مجتمع جديد. يريد الشبان أن ينهوا الوضع الحاضر لأنه حاضر يقمعنا باسم مستقبل وهمي. ويحدوهم الأمل الغريزي والمشوش بأن هدم هذا الحاضر سيسبب الظهور المفاجئ للحاضر *الآخر* بقيمه الجسدية، والحدسية، والسحرية. دائماً ذلك البحث عن *الزمن الآخر*، الزمن الحقيقي.

وليست طلبات إعادة توزيع الثروة هي المسائل الوحيدة أو المحورية في تمردات الأقليات الإثنية والثقافية. إذ أن السود والشيكانوز يصارعون من أجل الاعتراف بهويتهم. وينطبق الأمر نفسه على حركات تحرر المرأة وحتى على الأقليات الجنسية. ولا تدخل كثيراً مسألة تشييد مدينة المستقبل- كبزوغ جماعات تبحث عن الهوية أو تصارع من أجل الاعتراف بحقوقها - داخل المجتمع المعاصر. ولا تدخل كذلك الحركات القومية أو المعادية للإمبريالية، حروب التحرير، والاضطرابات الأخرى للعالم الثالث في فكرة الثورة التي صاغها مفهوم التاريخ الخطي والتصاعدي. وهذه الحركات هي تعبير عن الخصوصيات التي تم إذلالها في أثناء فترة التوسع الغربي، ولهذا السبب أصبحت نماذج لصراعات الأقليات الإثنية في الولايات المتحدة وأمكنة أخرى.

إن الثورات في العالم الثالث وتمردات الأقليات الإثنية والقومية في المجتمعات الصناعية هي انتفاضات الخصوصيات التي قمعتها خصوصية أخرى ترتدي قناع الكونية: الرأسمالية الغربية. وتنبأت الماركسية باختفاء البروليتاريا كطبقة فوراً بعد اختفاء البرجوازية، وتواشج انحلال الطبقات مع كوننة البشرية. وتميل الحركات المعاصرة إلى الاتجاه المعاكس: إنها تأكيدات لفردية كل جماعة، وحتى للخواص الجنسية. سلمت الماركسية بمستقبل ستنحل فيه جميع الطبقات والخصوصيات في مجتمع كوني واحد، صراع اليوم هو من أجل الاعتراف هنا والآن بالحقيقة الملموسة والفردية للجميع.

وتظهر جميع هذه التمردات كخرق في فكرة الزمن الخطي. إنها اقتحام الحاضر المضطهد وهكذا، بوضوح أو غموض، تسلم بتجريد المستقبل من قيمته. إن خلفية هذه التمردات هي الحساسية المتغيرة للعصر. انحطاط الأخلاق البروتستانتية والرأسمالية ومنظومته الأخلاقية عن الادخارات والعمل: طريقتان لصياغة المستقبل، محاولتان لجعل المستقبل ضمن قوتنا. إن عصيان القيم الجسدية والطقوس العربيدية هو تمرد ضد عقوبة الإنسان المزدوجة - الحكم بالعمل وكبت الرغبة. بالنسبة للمسيحية الجسد البشري كان طبيعة ساقطة، لكن النعمة الإلهية تستطيع أن تحوله إلى الجسد العظيم، بينما أعتقت الرأسمالية الجسد الذي توقف عن كونه ساحة معركة للملائكة والشياطين وأصبح أداة عمل. وقاد مفهوم الجسد كأداة إلى إلغائه كمصدر للمتعة. تغير الزهد وأصبح، بدلاً من كونه وساطة للوصول إلى الفردوس، تقنية لزيادة الانتاج. المتعة إضاعة للوقت، الحسية ضعف. وشجب المتعة يعني شجب الخيال لأن الجسد ليس منبعاً للأحاسيس فحسب وإنما للصور كذلك. وتعيق تشوشات المخيلة الانتاج والنتاج الأفضل كما

تعيق الارتجافات الجسدية المتعة الحسية. باسم المستقبل تتوجت الرقابة على الجسد وبترت قوى الإنسان الشعرية. وفي هذه الأيام تمرد الجسد هو أيضاً تمرد للمخيلة. كلاهما يرفض الزمن الخطي: قيمهما تنتمي إلى الحاضر. لا يعرف الجسد والمخيلة المستقبل، الأحاسيس هي إلغاء للزمن في اللحظة الفورية، تبدد صور الرغبة الماضي والمستقبل في حاضر لا زماني. إنها العودة إلى بداية البداية، إلى حساسية وهيام الرومانسيين. ويمكن أن يكون انبعاث الجسد نذيراً بأن الإنسان في النهاية سيستعيد حكمته المفقودة. والجسد لا يرفض المستقبل فحسب: إنه ممر نحو الحاضر، نحو ذلك الآن وهنا حيث الحياة والموت نصفان للمجال نفسه.

وتشير هذه العلامات المتنوعة إلى تغير في صورتنا عن الزمن. في بداية الحقبة الحديثة فقدت الأبدية المسيحية حقيقتها الأنطولوجية وتماسكها المنطقي، وأصبحت فرضية بلا حس، وكلمة فارغة. ويبدو اليوم أن الواقع ليس أقل لاواقعية من الأبدية. كان نقد الدين بالفلسفة، من هيوم إلى ماركس، قابلاً للتطبيق على المستقبل: إنه ليس واقعياً ويسرق الواقع منا، إنه لا يوجد ويسرق الحياة منا. مع ذلك، لم تقم الفلسفة بنقد المستقبل وإنما الجسد والمخيلة قاما بذلك.

أفرط القدماء في تقدير الماضي. ولكي يواجه طغيانه اخترع الإنسان أخلاق وجمالية استثناءات تستند إلى اللحظة. إزاء قيود الماضي والأسلاف، وضع حرية اللحظة: لا قبل ولا بعد، وإنما الآن - زمن المتعة الذي هو خارج الزمن، الوحي الشعري، أو الرؤيا الشعرية. وكانت اللحظة في العصر الحديث حاجزاً أمام هيمنة المستقبل أيضاً. إزاء الزمن التاريخي، المتعاقب واللانهائي، أكد الشعر الحديث، منذ بليك، زمن الأصل، لحظة

البدء. وزمن الأصل ليس الماضي، إنه الآن. إنـه مصالحـة للبداية والنهايـة، كل آن هو بداية، وكل آن نهاية. والعودة إلى البداية هي عودة إلى الحاضر.

إن رؤية الحاضر كنقطة التقاء جميع الأزمنـة، التـي هـي رؤيـة الشـعراء في الأساس، أصبحت الاعتقاد الضمني في مواقف وأفكار جميع معاصرينا تقريباً. أصبح الحاضر القيمة المركزية للثالوث الزمني. والعلاقـة بين الأزمنـة الثلاثة تغيرت، لكن هذا لا ينطوي على اختفـاء المـاضي أو المستقبل. على العكس، يكتسبان واقعية أكبر: يصبحان بعدين للحاضر، كلاهما حـاضر - كلاهما حضور في الآن. جاء الزمن ليشيد علم أخلاق وسياسة على شعرية الآن. توقفت السياسة عن كونها بنـاء للمستقبل، مهمتها هـي أن تجعـل الحاضر صالحاً للسكنى.

وليست أخلاق الآن متعوية بالمعنى العادي للكلمـة، على الرغـم من أنها تؤكد المتعة والحواس. ويكشف الحاضر أن النهاية غير مختلفة عـن البداية أو معارضة لها، وإنما هي إكمال، نصف غير قابل للإنفصال. أن نحيا في الحاضر هو أن نحيا مواجهين للموت. اخترع الإنسان الأبدية والمستقبل لينجو من الموت، لكن هذين الابتكارين كانا فخاً مهلكاً. يصالحنا الحاضر مع الواقع: نحن أكثر فناء. والحياة لا تكتسب حقيقتها إلا في مواجهة الموت. داخل الآن، لا ينفصل الموت عن الحياة. كلاهما الحقيقة نفسها، الثمرة نفسها.

يمكن رؤية نهاية العصر الحديث، وسقوط المستقبل، في الفن والشعر كتسريع يبدد فكرة المستقبل وكذلك فكرة التغيير. يصبح المستقبل ماضياً على الفور. إن التغيرات سريعة بحيث تنتج حس الثبات. كانت فكـرة

التغيير حجر زاوية الشعر الحديث، أكثر من التغييرات نفسها: ينبغي أن يختلف فن اليوم عن فن الأمس. والآن، كي ندرك الفرق بين الأمس واليوم يجب أن يكون هناك إيقاع معين. إذا حدثت التغييرات ببطء شديد فإنها تجازف بأن تختلط مع الثبات. هذا ما حدث مع فن الماضي: لا الفنانون ولا الجمهور الذين نومتهم فكرة "محاكاة القدماء"، استطاعوا أن يدركوا التغيرات بوضوح. ولانستطيع أن ندركها اليوم، ولكن للسبب المعاكس: تختفي بالسرعة التي تظهر فيها. وهي في الواقع ليست تغيرات، وإنما تنوعات لنماذج أسبق. وأدت محاكاة الحديثين إلى موت كثير من المواهب أكثر مما فعلت ذلك محاكاة القدماء. وينبغي أن نضيف الانتشار إلى السرعة المزيفة: إن الحركات الطليعية لا تموت حالما تولد وحسب، وإنما تنتشر كالأعشاب. ويحل التنوع في التناظر. تتبعثر الطليعة إلى مئات الحركات المتماثلة: تختفي في كثيب النمال.

أحضرت الرومانسية مزيج الأنواع. أكملت الرمزية والطليعة صهر الشعر والنثر. وكانت النتيجة وحوشاً مدهشة، من نثر قصيدة رامبو إلى ملحمة جويس اللغوية. وتتوج المزج والإلغاء المطلق للأنواع في نقد موضوع الفن. وأصبحت أزمة فكرة الأعمال الكاملة Oeuvre ظاهرة في جميع الفنون - الرسم، النحت، الشعر، الرواية - لكن تعبيرها الأكثر جذرية كان الأشياء الجاهزة" لدوشامب. تكريس ساخر: ما يهم ليس *الشيء* وإنما فعل الفنان الذي يفصله عن سياقه ويضعه على قاعدة العمل الفني القديم. تحل الإيماءة مكان العمل.

كان كثير من الفنانين، في الصين واليابان، حين يكتشفون إشعاعاً جمالياً معيناً في حجر غفل، يلتقطونه ويوقعون اسمهم عليه. والإيماءة هي

إيماءة تعرّف أكثر مما هي إيماءة اكتشاف. إنها طقس يبجل الطبيعة كقوة خلاقة: الطبيعة تبدع والفنان يتعرف. إن سياق "الأشياء الجاهزة" لدوشامب ليس الطبيعة الخلاقة وإنما التكنولوجيا الصناعية. إيماءته ليست فعل اختيار أو تعرف وإنما رفض، في جو من غياب الخيار واللامبالاة. يجد دوشامب "الجاهز" وإيماءته هي انحلال التعرف في غفلية الشيء. إيماءته فعل نقد، ليس للفن وإنما *للفن كشيء*.

كان الشعر الحديث، منذ أيام الرومانسية، ناقداً للشيء. ولقد أكمل عصرنا هذا النقد ومنح السرياليون وظيفة أساسية في الخلق الشعري للاوعي والمصادفة، والآن يشدد بعض الشعراء على أفكار التبديل والمزج. على سبيل المثال قرر أربعة شعراء في ١٩٧٠ - فرنسي، وإيطالي، وإنكليزي، ومكسيكي - أن يؤلفوا قصيدة جماعية في أربع لغات (أطلقوا عليها الاسم الياباني رينغا Renga). ولم تكن المسألة مزج نصوص مختلفة وحسب وإنما مزج منتجي نص - شعراء - في الوقت نفسه. إذ أن الشاعر ليس "مؤلفاً" بالمعنى التقليدي للكلمة، إنه لحظة التقاء للأصوات المختلفة التي تتدفق في النص. إن نقد الشيء والذات يتقاطع في زمننا: ينحل الشيء الفني في الفعل الفوري، الذات تبلورٌ تصادفي للغة.

نهاية الفن والشعر؟ كلا: نهاية "العصر الحديث"، ومعه، فكرة "الفن والأدب الحديثين". إن نقد الموضوع يهيئ الطريق لانبعاث العمل الفني، لا كشيء يمتلك، وإنما كحضور للتأمل. ليس العمل غاية بحد نفسه ولا يوجد وحده: العمل جسر، وسيط. ولا يتضمن نقد الذات هدم الشاعر أو الفنان وإنما الفكرة البرجوازية للمؤلف فحسب. بالنسبة للرومانسيين، كان صوت الشاعر هو صوت *الجميع*، بالنسبة لنا ليس صوت *أحد*. "الجميع" و"لا أحد"

متساويتان، وكلاهما بعيد بشكل متساو عن المؤلف و "أناه". ليس الشاعر "إلهاً صغيراً" كما أراد ويدوبرو. يختفي الشاعر وراء صوته الخاص، وهو صوته لأنه صوت اللغة، صوت لا أحد وصوت الجميع. وأي اسم نطلقه على هذا الصوت -الإلهام، اللاوعي، المصادفة، عرض، أو وحي - فهو دائماً صوت *الآخرية* .

وجمالية التحول ليست أقل إيهاماً من جمالية محاكاة القدماء. ويميل المرء إلى التقليل من شأن التغييرات، ويميل آخر إلى إضفاء طابع المبالغة عليها. ولم يكن تاريخ الثورات الشعرية في العصر الحديث أكثر من حوار بين التناظر الوظيفي والمفارقة. رفض الأول العصر الحديث، والثانية رفضت التناظر. كان الشعر الحديث نقداً للعالم الحديث ونقداً لنفسه. كان نقداً يبدد نفسه في قصائد من هولدرلين إلى مالارميه. شيد الشعر نصباً تذكارية شفافة من سقوطه. ولكن المفارقة والتناظر، الصورة والغرائبي ليسوا إلا لحظات في دوران العلامات، وأخطار جمالية التغير هي أيضاً فضائلها: إذا كان كل شيء في حالة تغير فإن جمالية التغيير تتغير أيضاً. هذا ما يحدث اليوم. بحث الشعراء الحديثون عن مبدأ التغيير، وشعراء العصر الذي يبزغ يبحثون عن مبدأ غير قابل للتبديل هو جذر التغيير. ونتساءل إن كانت الأوديسة والبحث عن الزمن المفقود ***A la recherche du temps perdu*** يشتركان في أي شيء. وهذه المسألة تتجاوز الطليعة أكثر مما تنكرها. شددت جمالية التغير على الطبيعة التاريخية للقصيدة. والآن نسأل: أهناك نقطة يندمج فيها مبدأ التغير مع مبدأ الاستمرارية؟

تتوضح الشخصية التاريخية للقصيدة على الفور بفضل كونها نصاً يكتبه شخص ما ويقرؤه شخص آخر. إن كتابة وقراءة قصيدة هما فعلان

يحدثان، يحدثان في الزمان ويمكن تأريخهما. إنهما تاريخ. ولكن، من منظور آخر، العكس صحيح أيضاً. وبينما هو يكتب، لا يعرف الشاعر كيف ستكون قصيدته، لن يعرف إلا حين يقرؤها، بعد أن تنتهي. المؤلف هو قارئ القصيدة الأول، وبقراءته تبدأ سلسلة من التأويلات وإعادات الخلق. تنتج كل قراءة قصيدة مختلفة. ليس هناك قراءة نهائية، وبهذا المعنى، كل قراءة، دون استثناء قراءة المؤلف، هي حادثة نصية. يهيمن النص على مؤلفه - قارئه وقرائه اللاحقين. إنه يبقى ويقاوم تغييرات كل قراءة. النص يقاوم التاريخ. في الوقت نفسه، يأتي النص إلى الوجود عبر تلك التحولات فحسب. إن القصيدة هي طاقة عابرة للتاريخ مجسدة في التاريخ، في القراءة. ليست هناك قصيدة *في ذاتها*، وإنما *فيك* أو في فحسب. التذبذب بين العابر للتاريخ والتاريخي: بدون نص ليست هناك قراءة، وبدون قراءة ليس هناك نص. النص هو شرط القراءات، والقراءة تحقق النص، تدخل فيه تعاقب الزمن. إن العلاقة بين النص وقراءاته هي *متناقضة و ضرورية*.

القصيدة نص لكنها في الوقت نفسه بنية. يتكئ النص على البنية - دعامته. النص مرئي، مقروء، العمود الفقري لا مرئي. تمتلك جميع الروايات البنية نفسها، لكن مدام بوفاري، و The Turn of The screw هما نصان فريدان واضحان. والأمر نفسه ينطبق على القصائد الملحمية، والسونيتات، والحكايات الخرافية. إن بنية الأوديسة تشبه بنية الإنيادة: كلتاهما تطيع قوانين البلاغة نفسها، ومع ذلك كل منهما نص مختلف لا يمكن استبداله. ويحقق كل نص شعري بنى معينة مشتركة بين جميع القصائد - وكل نص هو استثناء لهذه البنى وغالبا انتهاك لها. وتتنوع

النصوص، فيما البنى مستمرة. الأدب مملكة فيها كل عمل هو فريد بذاته. يسحرنا بودلير، خاصة، بما هو خاص به وحده ولا يمكن العثور عليه عند راسين أو مالارميه. في العلم ننشد تكرارات وتشابهات - قوانين وأنساقا، أما في الأدب ننشد استثناءات ودهشات - أعمالا فريدة. إن علما للأدب كما يدعي بعض البنيويين الفرنسيين (وبالتحديد جاكوبسون) سيكون علم موضوعات خاصة. اللاعلم: كاتالوج أو نسق مثالي تكذبه باستمرار حقيقة كل عمل.

البنية لا تاريخية، النص تاريخي، يحمل تأريخا. من البنية إلى النص ومن النص إلى القراءة. النص دائما نفسه - ويختلف عند كل قراءة. كل قراءة هي تجربة مؤرخة تنكر التاريخ بفضل النص وبسبب هذا النكران تقسر نفسها مرة أخرى داخل التاريخ. التنوع والتكرار: القراءة تأويل، تنوع النص، وفي هذا التنوع يحقق النص، يكرر - ويمتص التنوع. أخيرا، القراءة تاريخية، وفي الوقت نفسه، تبديد للتاريخ في حاضر غير مؤرخ. يتلاشى تأريخ القراءة، إعادة القراءة تكرار (تنوع إبداعي) للفعل الأصلي: تأليف القصيدة. تعيدنا القراءة إلى زمن آخر، هو زمن القصيدة. زمن ليس زمن التقاويم والساعات -زمن يوجد قبلهما.

زمن القصيدة هو داخل التاريخ، لا خارجه. لا يمكن فصل النص عن القراءات، وفيهما يتوحد التاريخ واللاتاريخ، التغيير والهوية، دون انحلال.

وهذا ليس تجاوزا وإنما التقاء. إنه زمن يكرر نفسه وغير قابل للتكرار، يتدفق دون تدفق: زمن يدور على نفسه. زمن القراءة هو الآن وهنا: الآن التي تحصل في أية لحظة، وهنا التي توجد في أي مكان. القصيدة تاريخ

وهي ذلك الشيء الـذي يرفـض التـاريخ فـي اللحظـة الـذي يؤكـده فيـها . إن قراءة نص غير شعري تعني أن نفهمه ، أن نأسر معناه ، أما قراءة نـص شـعري تعني أن نحييه ، أن *نعيد انتاجه* . وتكشـف *إعـادة الانتـاج* هـذه نفسـها فـي التاريخ ، لكنها تنفتح نحو حاضر هو إلغاء للتاريخ . إن الشعر الذي يبـدأ في هـذا النصـف الثـاني مـن القـرن لا يبـدأ فـي الحقيقـة . ولا يعـود إلـى نقطـة الانطلاق . الشعر الذي يبدأ الآن ، دون بداية ، يبحـث عـن تقـاطع الأزمنـة ، نقطـة الالتقـاء . يجـزم أن الشـعر هـو الحـاضر ، بـين المـاضي المليء بالركـام والمستقبل غير المسكون . إن إعادة الانتاج هي تقديـم . الزمـن النقـي : نبـض قلب الحضور في لحظة ظهوره/ غيابه .

حواشي

-١-

كان نقد الزمن طريقة من طرق تطهير التاريخ فحسب. وكانت الطريقة الأخرى نظام الطبقة المنغلقة أو المنبوذة. وعلى الرغم من أن الكلمة البرتغالية Casta تترجم بشكل مخلص مصطلح Jeti الذي يستخدم في الهند بشكل عام، يميل الغربيون إلى منحه معنى ملونا بالتاريخية ملمحين، لا إلى النسب أو الجيل، وإنما إلى طبقة مقسمة. وتصلنا كلمة طبقة على الفور بالتاريخ والتحول. ويرى علماء الإناسة الغربيون ومريدوهم الهنديون، أن ظاهرة الطبقة المنغلقة حالة متطرفة لظاهرة عالمية: الميل إلى التطبق الاجتماعي. يتبدد هذا التأويل ويخطف الصفة الفريدة لمفهوم الطبقة المنغلقة. ذلك أن هناك شيئا ما محددا في فكرة الطبقة المنغلقة لا يوجد في فكرة الطبقة. إذا أردنا أن نفهم الإيديولوجيا الضمنية التي تستند إليها حقيقة الطبقات المنغلقة، وما يعنيه هذا المفهوم للهنود التقليديين، الشيء الأول الذي ينبغي أن نفعله هو أن نميز "الطبقة المنغلقة" عن "الطبقة" Class.

المجتمع، بالنسبة إلينا، مجموعة من الطبقات، تكون، عادة، في حالة حرب مع بعضها بعضا وكلها في حالة حركة. ويشكل المجتمع الإنساني كلا ديناميكيا يتغير باستمرار، وهذه الحركة التي لا تتوقف هي ما يميزه عن البنى الإجتماعية الثابتة للحيوانات. ويظهر في المجتمع الإنساني شيء ما لا يوجد في الطبيعة: الثقافة. والثقافة هي تاريخ. التصور الهندي هو العكس. ليس هناك تضاد بين الطبيعة والمجتمع، فالطبيعة هي النموذج

الأصلي للمجتمع . وبالنسبة للهندي - ليست "الطبقات المنغلقة" - هناك أكثر من ثلاثة آلاف منها - "طبقات" وإنما أنواع . ويرى الهندي المجتمع الإنساني في مرآة الطبيعة الثابتة وأنواعها التي لا تتغير . بعيدا عن كونه استثناء ، يطيل المجتمع الإنساني النظام الطبيعي ويؤكده . أما نحن ، المعتادون على رؤية المجتمع كسيرورة ، نفكر بنظام الطبقة المنغلقة كاستثناء فضائحي ، كشذوذ تاريخي . وهكذا يخفي التضاد بين "الطبقة المنغلقة" و"الطبقة" Class تغايرا أكثر عمقا : بين التاريخ والطبيعة ، التغيير والاستقرار . إذا استطاع بشر من حضارات أخرى أن يتوسطوا في الجدل ، سيقولون ، على الأرجح ، إن الاستثناء الحقيقي ليس نظام الطبقة المنغلقة - على الرغم من أن البعض يمكن أن يتعرف عليه كمبالغة جائرة كثيرا أو قليلا - ولا الفكرة التي تلهمه ، وإنما وجهة نظرنا الخاصة التي ترى التغيير متضمنا في المجتمع وتعتبره مفيدا بشكل دائم . إن الشيء الفريد والغريب هو وجهة النظر التي تفرط في تقييم التغيير ، وتحوله إلى فلسفة ، ثم تجعل هذه الفلسفة أساس المجتمع . إن إنسانا بدائيا سيرى وجهة النظر هذه غير حكيمة على الأقل . لا تفعل سوى أن تفتح باب العماء الأصلي .

-٢-

بعد كتابة هذه الصفحات تلقيت دراسة ممتعة كتبها إدموند ل . كنج بعنوان " ما الرومانسية الإسبانية؟ (خريف ١٩٦٢) . تزامن الجزء الأول من تحليل الفيلسوف كنج مع تحليلي : يمكن شرح ضعف رد الفعل الرومانسي من خلال بؤس الكلاسيكية الإسبانية المحدثة وغياب تنوير أصيل في إسبانيا .

على أي حال، لا أوافق على وجهة النظر المشروحة في النصف الثاني من الدراسة حيث يقول إن مذهب كراوز Krausismo كان الرومانسية الإسبانية الحقيقية التي "ولدت في جيل من الشبان الإسبان اهتمامات رومانسية حقيقية عبر عنها في فنون وآداب ما ندعوه جيل ١٨٩٨". يمكن أن ألخص عدم موافقتي في حجتين:

أولا، كان مذهب كراوز Krausismo فلسفة، وليس حركة شعرية. ليس هناك شعراء كراوزيون Krausist، على الرغم من أن بعض الشعراء في بداية القرن - من بينهم خمينيث - كانوا متأثرين كثيرا أو قليلا بأفكار مريدي كراوز Krause الإسبان.

ثانيا، إن شرح البروفسور كنج متناقض ذاتيا، لأنه ينكر - أو ينسى - في الجزء الثاني من دراسته ما يؤكده في الأول. أولا يؤكد أن الرومانسية الإسبانية فشلت لأنها افتقدت للأصالة التاريخية - على الرغم من أن الرومانسيين الإسبان كانوا مخلصين بشكل فردي - لقد شكلت رد فعل ضد شيء لم تمتلكه إسبانيا، أي التنوير ونقده العقلاني للمعتقدات والمؤسسات التقليدية. في جزئه الثاني يقول إن مذهب كراوز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان الرومانسية التي افتقدتها إسبانيا في النصف الأول. حسنا الآن، إذا كانت الرومانسية رد *فعل* على التنوير وضده ينبغي أن يكون مذهب كراوز أيضا رد فعل - ضد ماذا ؟ إنه لا يخبرنا. كي أوضح فكرتي: إذا كان مذهب كراوز المرادف الإسباني للرومانسية فما هو المرادف الإسباني للتنوير؟ ستحل المشكلة إذا اعترفنا أن التراث الإسباني ليس واحدا - شبه جزيري - وإنما ثنائي - الإسباني والأميركي الإسباني - . ويكمن الجواب على هذا اللغز الواضح في كلمتين وفي علاقتهما المتناقضة في سياق أميركا

الإسبانية: الوضعية والحداثة. الوضعية هي المرادف الأميركي الإسباني للتنوير الأوروبي، والحداثة كانت رد فعلنا الرومانسي. بالطبع لم تكن الرومانسية الأصلية لعام ١٨٠٠ وإنما استعارتها. إن مصطلحات هذه الاستعارة هي نفسها مصطلحات الرومانسيين والرمزيين: التناظر والمفارقة.

أجاب شعراء إسبانيا في ذلك الزمن على المحفزات الأميركية الإسبانية بالطريقة نفسها التي أجاب بها الأميركيون الإسبان على محفزات الشعر الفرنسي. أجوبة خلاقة، أحيانا ردود حاسمة: تحويلات. حلقات السلسلة: الوضعية الأميركية الإسبانية – الشعر الإسباني.

لماذا كان تأثير الشعر الأميركي الإسباني مثمرا هكذا؟ حسنا، لأنه، بفضل التجديدات العروضية واللفظية للحداثيين، أصبح من الممكن للمرة الأولى أن نقول بالقشتالية الأشياء التي كانت لا تزال تقال حتى ذلك الوقت بالفرنسية والإنكليزية والألمانية. حذر أونومانو ذلك، لكن لكي يدحضه فحسب. قال في رسالة إلى روبن داريو: " ما أراه، فيك على وجه الخصوص، هو كاتب يريد أن يقول، بالقشتالية، أمورا لم يفكر بها بالقشتالية مطلقا، والتي لا يمكن التفكير بها بلغتنا حتى الآن". اعتبر أونومانو الحداثيين متوحشين مفرنسين يعبدون الأشكال البراقة والفارغة. قالت الأشكال الشعرية، وأشكال الحداثيين شيئا ما لم يقل حتى الآن في القشتالية: التناظر والمفارقة. أكرر: كانت الحداثة الأميركية الإسبانية نسخة، استعارة الرومانسية والرمزية الأوروبيتين. ومنذ الفترة التي وجدت فيها تلك النسخة فصاعدا، استقصى الشعراء الإسبان عوالم شعرية أخرى لأنفسهم.

كيف نستطيع أن نشرح ضعف انتشار أفكار التنوير في إسبانيا؟ في *ليبراليون ورومانسيون* ***Liberals y Romanticos***، يقتبس يورينز Liorens بضع

كلمات مثبطة للهمة من ألكالا غاليانو Alcala Galiano : "دون أي شك هذا التجديد للشعر والنقد (الرومانسية) كان ترحيبيا بشكل متطرف ، لكن ضعفه في إسبانيا كان مثل تلك المذاهب التي دعيت بشكل خاطئ كلاسيكية ، إذ أنها كانت نبتة أجنبية أحضرت إلى تربتنا واستنبتت بطريقة غير ذكية ونتج عن هذا ثمار رديئة ، بليدة اللون ، وضعيفة". إن شرح ألكالا غاليانو ليس مقنعا : ولم يكن الشعر الإيطالي في القرن السادس عشر أقل غرابة -- نبتة - من الكلاسيكية المحدثة في القرن الثامن عشر والرومانسية في التاسع عشر ، لكن ثماره لم تكن هزيلة أو فقيرة . اقتبس يوريـنز رأي أحد المتطرفين أو اليعاقبة المنفيين إلى لندن ، الذي خبأ هويته تحت الاسم المستعار فيلوباترو . في ١٨٢٥ كتب فيلوباترو في مجلة El Espanol Constitucinal ، التي كانت تعتبر الناطقة باسم المنفيين المتطرفين : " بدأ الإسبان ينورون أنفسهم سريا ويستوعبون بلهفة كتب الفلسفة والقانون العام المختارة التي لم يمتلكوا عنها حتى ذلك الوقت أدنى فكرة... وعلى أي حال ، لأن التنوير الذي مثله (لوك ، فولتير ، مونتسكيو ، روسو ، والرفقة...) لم يهضم ولم تكن له صلة اطلاقا بالواقعية التجريبية ، كانت النتيجة ثمارا أكثر مرارة من الجهل نفسه" . كان فيلوباترو على صواب : كي يخصب التنوير إسبانيا كانت هناك حاجة إلى إدخال الأفكار - النقد - في الحياة -الممارسة . افتقدت إسبانيا إلي طبقة ، إلى برجوزية وطنية ، قادرة على نقد المجتمع التقليدي وتحديث البلاد .

-٣-

شمل النقد الديني في القرن الثامن عشر السماء والأرض وكان نقدا للإله المسيحي، وقديسيه وشياطينه، ونقدا لكنائسه وقساوسته. كان هناك، من ناحية، نقد الدين كحقيقة موحاة ونص ثابت، ونقده كمؤسسة صنعها الإنسان، من ناحية أخرى. قوضت الفلسفة الصرح المفاهيمي للاهوت، وهاجمت مزاعم الكنيسة بالهيمنة والكونية. دمرت صورة الإله المسيحي، لا فكرة الله. وكانت الفلسفة معادية للمسيحية وربوبية، توقف الله عن كونه شخصا وتحول إلى مفهوم. أصبح الفلاسفة حماسيين حين واجههم مشهد الكون: اعتقدوا أنهم اكتشفوا في حركاته نظاما سريا، إلهاما مخبوءا لا يمكن إلا أن يكون مقدسا وإلهيا. الكمال المزدوج: تحرك الكون خطة عقلانية وهي أيضا خطة أخلاقية. حل الدين الطبيعي مكان الدين الموحى، وحلت الفلسفات مكان مجلس الكاردينالات. كانت فكرة النظام وفكرة العلة تجليين مرئيين، وبرهانين عقلانيين وحسيين على وجود خطة إلهية. لقد ألهمت حركة الكون غاية وهدف: الله غير مرئي، لا أعماله ولا النوايا التي تنفخ فيها الحياة. ولقد اشترك الماديون والملحدون، مع بعض الاستثناءات، في هذا المعتقد: الكون نظام ذكي منح هدفا واضحا، على الرغم من أننا لا نعرف ما الذي سيتمخض عنه في النهاية.

كان ديفد هيوم هو أول من انتقد نقاد الدين، وبقي نقده متفوقا وقابلا للتطبيق على كثير من المعتقدات المعاصرة. أظهر في حوارات بخصوص الدين الطبيعي أن الفلاسفة وضعوا على مذابح الدين المسيحي الفارغة آلهة أخرى ليست أقل شبحية، ومفهومات مؤلهة كالانسجام الكوني والهدف

الذي ينفخ الروح في هذا الانسجام. إن فكرة الخطة أو الهدف هي جذر الفكرة الدينية، أينما ظهرت، دون إقصاء الفلسفات الإلحادية والمادية، يظهر الدين أيضا، وعاجلا أم آجلا، كنيسة، وأسطورة، ومحكمة تفتيش. ويمكن أن يتنوع محتوى كل دين - إن عدد الآلهة والأفكار التي عبدها البشر لا نهائي تقريبا - ولكن وراء جميع هذه المعتقدات نجد النموذج نفسه: يعزى هدف إلى الكون، وحالا بعد ذلك يماثل هذا الهدف مع الخير، والحرية، والقداسة، والأبدية أو فكرة ما مشابهة.

وليس صعبا أن نستنتج من نقد هيوم النتيجة التالية: إن أصل فكرة التاريخ كتقدم هو ديني والفكرة نفسها شبيهة جدا بالدين. إنها نتيجة استنتاج ناقص: الاعتقاد بأن الطبيعة لها خطة، ومماثلة هذه الخطة مع حركة التاريخ والمجتمع إلى الأمام. ويظهر خط التفكير نفسه في جميع الأديان والأديان الزائفة في مرحلتها الأولى، كما لوحظ الانتظام الحقيقي أو الظاهر. وأدخلت فكرة الغائية في نظام الطبيعة، بعد ذلك على الفور، عزيت التغييرات والاضطرابات الاجتماعية إلى فعل المبدأ نفسه الذي يدفع الطبيعة إلى العمل. وإذا كان التاريخ يملك معنى، يصبح مرور الزمن حادثا بسبب تدخل العناية الإلهية، رغم أن اسم هذه العناية يتغير بتغير المجتمع والثقافة: أحيانا يدعى الله، وفي أحيان أخرى النشوء، وطورا جدل التاريخ. وأهمية التقويم في الصين القديمة أو أميركا الوسطى هي نتيجة أخرى للفكرة نفسها: إن نموذج الزمن التاريخي هو زمن الطبيعة، الزمن الإلهي.

إن الدين هو تأويل للوضعية الأصلية للإنسان المرمي في عالم غريب يشعر إزاءه بالهجران، واليتم، والاستسلام. ونستطيع أن نحكم على معنى

وقيمة التأويل الديني بطرق عديدة. مثلا، نستطيع أن نقول، على سبيل المفارقة، إنه فعل نفاق لا واع، نخدع، بوساطته، أنفسنا قبل أن نخدع أندادنا. أو نستطيع أن نقول إنه وسيلة معرفة، أو بالأحرى، اختراق الواقع الآخر، تلك المنطقة التي لا نراها أبدا وأعيننا مفتوحة. بوسعنا أن نقول أيضا إنه على الأرجح ليس أكثر من تجل لميل كامن في الطبيعة الإنسانية. إذا كان الأمر هكذا، لن يكون لدينا أي ملجأ سوى أن نقبل بوجود "غريزة دينية". إن نقد هيوم حاسم لأنه، بإظهار أننا نتعامل مع السيرورة نفسها - مهما كان المجتمع، والحقبة، والمحتوى، وطبيعة التمثيل والمعتقدات - فهو يسمح لنا ضمنيا أن نشتبه بأنه تواجهنا بنية ذهنية مشتركة عند جميع البشر. في الوقت نفسه، ومن خلال تأكيد طبيعتها اللاواعية، فهو يبين أنها نتيجة حاجة نفسية، وإلى حد ما، غريزية. ولقد أكمل نقد هيوم بعد قرن ونصف على يد فرويد وهيدجر، لكننا لا نزال نفتقد إلى وصف كامل لـــ "الغريزة الدينية".

إن الدين، مهما كان أصله، حاضر في جميع المجتمعات: في مجتمعات الزمن القديم البدائية والكبيرة، في صدور البشر الذين يؤمنون بالسحر، وفي المجتمعات الصناعية اليوم، بين عابدي محمد وأولئك الذي يقسمون بماركس. في جميع الأمكنة والحقب تحول "الغريزة الدينية" الأفكار إلى معتقدات، والمعتقدات إلى طقوس وأساطير. ولن يكون عادلا أن ننسى أننا مدينون له بتجسد الأفكار في صور قابلة للإدراك. ليس هناك شيء أكثر جمالا من التمثال الذي يعود إلى القرن الثاني عشر في إقليم أوريسا الهندي الذي يمثل برانجا باراميتا Pranja Paramita ، الحكمة البوذية المطلقة، المفهوم المـ[illegible] المحوري لبوذيي ماهايانا، كفتاة عارية مزينة المجوهرات. وجها

الدين: تجربة المتصوفين في العزلة وتحويل العامة إلى وحوش، الإشراق الروحي وجشع الإكليروس، المتعة المشاعية وحرق الهراطقة.

يمكن تطبيق نقد هيوم على الفلسفات والإيديولوجيات كلها التي ليست أكثر من أديان خجولة، دون آلهة ولكن بكهنة، وكتب مقدسة، ومجالس، ومتعصبين، ومهرطقين وفاسدين. توقع هيوم ما سيأتي بعد ذلك: العقل يعبد كإلاهة، والكائن المطلق للفلاسفة يتحول إلى يهوه لطوائف متحذلقة ومتعطشة للدماء. أزاح نقد الدين المسيحية وأسرع البشر كي يتوجوا مكانها إلها جديدا: السياسة. واعتمدت "الغريزة الدينية" على اشتراك الفلسفة في الجريمة. استبدل الفلاسفة معتقدا بآخر: الدين الطبيعي بالدين الموحى، العقل بالنعمة الإلهية. جدفت الفلسفة ضد السماء لكنها قدست الأرض، وكان تكريس الزمن التاريخي تكريسا للتغير في شكله الأكثر توترا وفورية: الفعل السياسي. توقفت الفلسفة عن كونها نظرية وانحدرت إلى البشر. دعي تجسدها ثورة. وإذا كان التاريخ الإنساني هو تاريخ التفاوت والظلم، فإن علاج التاريخ، القربان المقدس الذي يحوله إلى مساواة وحرية، هو الثورة.

وحولت التيمة الأسطورية للزمن الأصلي إلى التيمة المستقبلية لمجتمع المستقبل. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر، وبشكل ملحوظ، منذ الثورة الفرنسية، صادرت الفلسفة السياسية الثورية، واحدا واحدا، المفهومات، والقيم، والصور التي انتمت تقليديا إلى الأديان. وأصبحت عملية الاستيلاء هذه أكثر ذكاء في القرن العشرين، قرن الأديان السياسية كما كان القرنان السادس عشر والسابع عشر قرني الحروب الدينية.

عشنا مائتي عام، أولا الأوروبيون ثم الجميع، متوقعين حدثا سيمتلك بالنسبة لنا الجدية والسحر اللذين امتلكهما المجيء الثاني للمسيح بالنسبة للمسيحيين الأوائل: الثورة. ويمتلك هذا الحدث الذي ينظر إليه البعض بأمل والبعض الآخر برعب، كما قلت، معنى مزدوجا: إنه تأسيس مجتمع جديد واستعادة الزمن الأصلي، قبل أيام الملكية الخاصة، والدولة، والنص المقدس، وفكرة الله، والعبودية، واضطهاد النساء. والثورة التي هي تعبير عن العقل النقدي تضع نفسها داخل الزمن التاريخي، تضع مكان الحاضر الشرير المستقبل العادل والمحرر. وهذا التغيير عودة - إلى زمن البداية، إلى البراءة الأصلية. وهكذا الثورة هي فكرة وصورة، مفهوم يشترك في خصائص الأسطورة وأسطورة مؤسسة على سلطة العقل.

امتلك الدين في المجتمعات السابقة وظيفتين حصريتين: تغيير الزمن، وتغيير الإنسان. لم تكن تغييرات التقويم ثورية وإنما دينية. تغيير التقويم، تغيير الله: كانت تغيرات العالم هي تغيرات العالم الآخر. الثورات، الانتفاضات، اغتصابات العروش، التنازل عن العروش، مجيء سلالات جديدة، التحولات الاجتماعية، تحولات نظام الملكية أو النظام القضائي، الابتكارات، الاكتشافات، الحروب، الفتوحات - كل قعقعة التاريخ هذه الشاملة واللاامتماسكة، بتقلباتها التي لا تتوقف، لم تحدث أي تبديل في صورة الزمن وإحصاء الأعوام. ولا أعرف إن كان قد أشير إلى فكرة واحدة أو نوه بها: كان الفتح بالنسبة إلى الهنود المكسيكيين تغييرا للتقاويم. تغيير الآلهة، تغيير الدين.

أزاحت الثورة الدين في العالم الحديث وبالتالي حاول الثوريون الفرنسيون أن يغيروا التقويم. واستنادا إلى قول ماركس المأثور والمعروف

جيدا : ليست مهمة الفيلسوف تفسير العالم وإنما تغييره ، يتضمن هذا التغيير تبنيا لنموذج أصلي زمني جديد : تغيير الأبدية المسيحية إلى الثورات المستقبلية . والوظيفة الدينية التي تتألف من خلق وتغيير التقويم هكذا تحول إلى وظيفة ثورية .

وحدث شيء مشابه مع الوظيفة الأخرى للأديان : تغيير الإنسان . وتتألف طقوس البدء وشعائر العبور من تحول حقيقي للطبيعة الإنسانية . وتشترك جميع هذه الطقوس في شيء واحد : إن القربان المقدس هو الجسر الذي يعبر عليه المعتنق الجديد - المبتدئ في الرهبنة - من العالم المدنس إلى العالم المقدس ، من هذا الشاطئ إلى الآخر . عبور هو موت وانبعاث : يبزغ إنسان جديد من الطقس الديني . المعمودية تغيرنا ، تمنحنا اسما وتجعلنا آخر ، العشاء الرباني هو أيضا تحول ، والشيء نفسه ينطبق على قربان الموت - كلمة غنية بالمعاني أكثر من معظم الكلمات الأخرى . إن الطقس المحوري في جميع الأديان هو طقس الدخول في جماعة المؤمنين ، وفي كل حالة يتضمن هذا الطقس تغييرا للطبيعة . ويشرح الاعتناق بوضوح ناصع هذا التحول الذي هو أيضا عودة إلى الجماعة الأصلية . منذ ولادة العالم الحديث ، وبشكل أكثر إلحاحا أثناء السنوات الخمسين الأخيرة ، أعلن الثوريون الحاكمون أن الهدف المطلق للثورة هو تغيير الإنسان : تحويل الفرد والجماعة . وأحيانا ارتدى هذا الادعاء أشكالا أخرى ستكون غريبة لو لم تكن متوحشة ، كما حين خلطت الخرافة بالتكنولوجيا والخرافة الإيديولوجية ودعي ستالين "مهندس البشر" .

إن مثال ستالين مرعب ، ومن الأمثلة الأخرى التي تؤثر بنا بعمق : سين - جست Saint- Just ، وتروتسكي . حتى ولو أثرت بنا الطبيعة

البرومثيوثية لمزاعمهم ، ليس بوسعي إلا أن أرثي براعتهم وأشجب إفراطهم .

الفهرس

مقدمة ٥

تراث ضد نفسه ٩

ثورة المستقبل ٢٩

أطفال الطين ٥١

التناظر والمفارقة ٧٣

الترجمة والاستعارة ٩٥

إغلاق الدائرة ١٢

الثورة -إيروس/ الميتا -مفارقة ١٢

النموذج معكوساً ١٣

أفول الطليعة ١٧

حواشي ١٩

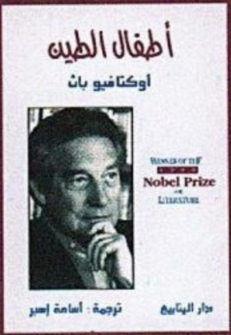

دار الينابيع
طباعة . نشر . توزيع
دمشق - ص.ب ٦٣٤٨
هاتف ٤٤٦١٣٣٠